

1551 A
DU

396
A96mA

~~DEC 1 59~~

~~DEC 28 60~~

~~DEC 1 61~~

~~1 JUN 64~~

~~21 Dec 64~~

~~2 1 65~~

~~2 5 65~~

J. Lib.

~~7 AUG 1985~~

~~7 JUN 72~~

~~29 MAY 1974~~

JAFET LIB.

~~10 JUN 1975~~

~~1 JUN 1968~~

JAFET LIB.
~~FEB 1978~~

~~13 SEP 1988~~

JAFET LIB.

~~30 MAR 1982~~

JAFET LIB.

~~1 DEC 1982~~

~~Lib.~~

~~25 JUN 1988~~

~~JAFET LIB.~~

~~1 JUN 1978~~

JAFET LIB.

~~1 JUN 1982~~

JAFET LIB.

~~1 JUN 1983~~

المراة في الإسلام

مكاتها وجهادها ، وحقوقها وواجباتها
وطريق نهضتها ، ونهضة الأمة بنهوضها

بقلم

كمال حميد عيون

منعالماء الأزهري

والمدرس بمعهد طنطا الثانوي

(حقوق الطبع للمؤلف)

١٣٧٤ - ١٩٥٥

يسيرة الزكي الرحيم

مقدمه

بسم أستاذنا الجليل فضيلة الشيخ محمد فوزي خشي



(المؤلف)

وتمم الأذان عن الاستماع إلى الأذان...
الكتاب القيم بين يديك، يكشف عن مدى ما كان الإسلام من فضل لم يسبق
إليه، وإن يلحق على مدى الأيام، في النهوض بالمرأة، والاعتراف بها، والحفاظ
عليها، والصيانة بأعدادها، وتربيتها تربية ناضجة صالحة تجعل منها إنساناً مستقلاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بقلم أستاذنا الجليل فضيلة الشيخ محمد فوزي خشبة

أستاذ البلاغة والأدب بمعهد طنطا

... مسكينة هذه المرأة ، ومسكين معها نصف هذا المجتمع الكادح المكافح في سبيل إعداد الأبناء والبنات ، ليعد من أولئك وهؤلاء آباء وأمهات ..
وكم من الأجيال والحقب تحاملت خلالها الأوضاع ، وتحامل المشرعون على هذه المرأة ، فازورت عن انصافها ، وانصرفت عن الأخذ بيدها ، والاعتراف بما لها من حق أو وجود .. وها هو ذا التاريخ يسجل بين ثناياه ما نالها من من حيف لدى الإغريق والرومان ، وغير الإغريق والرومان ، من هذه الدول الغالبة ، التي لم ترع للمرأة حقا يذكر ..

ثم جاء الإسلام وجاء معه تشريعه الخالد ، فسميا بالمرأة سمو لم يكن لها على بال وقد تسألني أيها القارئ العزيز كيف مكّنت الإسلام للمرأة ، وكيف أخذ بيدها وأنصفها ، وما نزال نقرأ لبعض الأقلام اتهام الإسلام بالجمود ، والحيولة بين المرأة وبين ما ينبغي لها من منازل ومنازل !! أما أنا فلن أكلف نفسي مهمة إقناعك بسخافات هذه الأقلام ، ولا بتحامل أصحابها رغبة في الشهرة ، وإرضاء للشهوة ، والشهوة الجاححة التي تعمى العيون عن رؤيا الحقائق ناصعة واضحة ، وتضم الآذان عن الاستماع إلى الآيات البينات - ولكني سوف أدع هذا الكتاب القيم بين يديك ، يكشف عن مدى ما كان للإسلام من فضل لم يسبق إليه ، ولن يلحق على مدى الأيام ، في النهوض بالمرأة ، والاعتراف بها ، والحفاظ عليها ، والعناية بإعدادها ، وتربيتها تربية ناضجة صالحة تجعل منها إنسانا مستولا

شاعرا بماله من حقوق ، وما عليه من واجبات ...

حسبك أن تقرأ هذه الفصول الممتعة في هذا البيان الأخاذ ، لتؤمن معي برسالة المرأة في الإسلام ، ورسالة الإسلام في النهوض بالمرأة ، وسوف يزداد يقينك وأنت تنتقل مع المؤلف من روضة مورقة يانعة ، إلى أخرى مشرقة باسمة ، بأن الإسلام لم يدع مجالا لمجدد ما ، كائنا ما كان نبوغه أو تقصيره ، ولا لباحث ما ، كائنا ما كان إخلاصه أو خضوعه لهواه ، مجالا لنقد أو ماثرا لنزید ، اللهم إلا أن تنكر العين ضوء الشمس من رمد ، أو ينكر الفم طعم الماء من سقم ثم مالى أذهب بعيدا وهذه فصول الكتاب بين يديك ، تتحدث بعناوينها عما تحمله بين ثناياها من تفنيد وتحميص لهذه البحوث المحدثه والقديمة ، المتعلقة بالمرأة في أسلوب رصين جزل ، وتحليل جيد مشرق ، وتوفيق في إصابة الهدف ... ولولا ما عرفته للأولف منذ درست له وهو طالب في السنة الرابعة الثانوية من زهده في المدح ، ورغبته عن الثناء والحمد ، بينما كنت ولا أزال ألس فيه تعلقه بالتوجيه ، وحبه للنقد ، أملا في التوفيق ، ورغبة في الكمال ... لولا هذا ولولا أن أشق عليه وعليك لكنت قد استعرضت معك فصول الكتاب وبحوثه فقرة فقرة لئلاها معي متراصة متساندة آخذة حجزها بحجز بعض نحو الهدف ، وما كنت أرى بأسا - والإعجاب يملأ قلبي - أن أتلو معك البحث ، ثم أدعك تقرأه وحدك ، لتعرف معي أن كثيرا من فصول الكتاب - بله الكتاب كله - من حقها عليك ، ومن حقك على معارفك وثقافتك أن تقرأها مرة ومرة ليزداد إيمانك بحلال الفكرة ، ويربو يقينك بعناية الإسلام بالمرأة والسمو بها ، وبإعدادها إعدادا جامعا في دراسة حرة طليقة تتناول فيها مع الحاكمين شئونها المتعلقة بها ، وشئوننا عامة كثيرا ما تتصل بشئون الحياة العامة . وسوف تجد من باب

« المرأة والمسجد » ، هذه الصورة الحية الصادقة للدراسة الجامعية ، التي كان الاسلام أول من شرعها للمرأة ، وأول من اهتم بتثقيفها أولا ، والأخذ عنها والاستئارة بآرائها ثانيا .

ثم هذا الموضوع الشائك ، موضوع تعدد الزوجات للمسلمين عامة ، ولرسول الإسلام عليه السلام بنوع خاص ، سوف ترى الكاتب ، وقد طوف بنواحي الموضوع على تشعبها ، وألم بفقرها وعناصرها ، إلما ما يزيل الشكوك وينير الطريق ، بتمحيص الروايات ، وتزييف المدسوس منها . . ثم لا يدعك إلا وقد آمنت إيمان الدارسين الباحثين بجلال الفكرة وسمو ذلك التشريع ، وأنت بين يدي هذه الفذلكة الحلوة الأخاذة عند قوله : « ولعل أصدق دليل في هذا الصدد صحة الحياة برجل مع نساء ، وضياعها بامرأة مع رجال ،

وستجد نفسك مقبلا بعد على هذا الموضوع القيم الدسم ، موضوع الطلاق - والطلاق فرقة أباحها الإسلام على بغض لها ، فأحاطها بسياج وأى سياج ؛ ! سوف تقرأ هذا الفصل الممتع ، وسوف لا تمالك نفسك أن تكبر وتهل ، فلكم كانت في نفسك أثارة من عتب ، وأثر من قلق ، لما يبدو في هذا التشريع من قسوة قد تسيء إلى هذا الجنس اللطيف .

ولكنك إذ تفرغ من قراءة ذلك الطلاق مع الأستاذ « كمال » ، ستذهب عنك أحاسيس العواطف الحارة وتستقبل المنطق والعقل ، وفلسفة الإصلاح وهدى العلاج الناجع ، وقد يكون آخر ذلك العلاج الكي كما يقولون . وأن تعجب أيها القارئ الكريم فعجب أن تجد نفسك وأنت ترتاد هذه الروضة الحافلة بأنواع البحوث الشيقة — قد وقفت أمام لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، وهي لجنة لها قداستها وهيبتها ممثلة في هؤلاء الفحول من علمائها ، وإذا

بالمؤلف يخاصمها في شجاعة ، ويتناول آراءها فيما يختص بالمرأة ، ثم يتناول آراء المرأة وما تريده لنفسها من حقوق ، وما يريده لها بعض الكتاب من هيمنة على شئون التقنين والتشريع ، أو قل المشاركة في هذه الهيمنة ، ثم تجسد شخصية المؤلف أبت إلا أن تكون حرة طليقة ، تجول وتصول ، في دقة وحذر ، ثم تراه يدلي برأيه مؤيدا بالأدلة ، موثقا بالبراهين ، وسواء لديه أن يصادف هذا الرأي الذي رآه هوى هؤلاء ، أو يتبرم به بعض أولئك . . .

ومهما يكن من شيء فأنا إذ أحدثك عن توفيق الأستاذ دكّال ، في كتابه أعتقد أن الكمال لله وحده ، وأنه سوف يعود إلى قراءة كثير من فصول كتابه ، ليفصل بجملا ، أو يستدرك نقصا فاته ، ويرحم الله العباد الأصفهاني حين كان يقول :
« إنى رأيت أنه لا يكتب لإنسان كتابا في يومه إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن . . . »

وإن رأيت أن ترجع إلى المؤلف معترضا ، أو ناقدا ، أو مستفسرا ، فسوف تجد من صدره رحوبة ، ومن عقله نضوجا ، ومن خلقه ما يمكن لك من إبداء الرأي ؛ فبادلك حجة بحجة ، وبرهانا ببرهان ، رغبة في الحق ، وتحريا للصواب وبعد : فهأنذا وقد امتلأت إعجابا وتقديرا لهذا البحث القيم ، في هذا العرض الموفق ، يسرني أن أبارك هذا الغرس الكريم ، راغبا إلى الله أن ينسأ في أعمارنا ، حتى نرى هذه الآمال التي علقها المؤلف على الأزهر المعمور ، قد آتت الثمر شهيا ، في تخريج البنات مثقفات بتلك الثقافات الدينية المختارة ، على أيدي أساتذة مختارين .

وها هي ذى تحياتي العطرة ، مزوجة بأطيب الأمانى له ولك أيها القارئ العزيز ، وسلام من الله ورحمة
محمد فوزي خشبة

الإهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ،

«ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشدا ،

وصل اللهم على النبي الأمين ، خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ،

وعلى آله وصحبه والتابعين . وبعد :

فألى من تهمه قضية المرأة ، ومن ورائها الأسرة والمجتمع

إلى كل بنت وأخت ووالدة

وكل ابن وأخ ووالد .

إلى كل من يرى في نفسه خيرا لإحقاق حق وإزهاق باطل ، من

العاملين لبلائهم ، والساعين لخير أوطانهم .

إلى «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله

وأولئك هم أولوا الألباب ،

إلى هؤلاء جميعا أهدى هذا الكتاب راجيا من الله سبحانه أن

ينفع به كفاء ما بُذل فيه من جهد ، وصاحبه من إخلاص ، وفوق ذلك

من فضله إنه سميع مجيب .

كمال احمد عوده

طنطا : { جمادى الثانية سنة ١٣٧٤ هـ
يناير سنة ١٩٥٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً .

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى»

قضية خالدة~ ما خلدت الإنسانية ، باقية مابقي الدهر ، قديمة العهد ، جديدة الذِّكر ، يَهْتَمُّ الرجلُ بالمرأة ، وتهتم المرأة بالرجل ، ويهتم كلاهما بالحياة حتى يُقَدَّ ما لها ما تفرضه عليهما من مادة جديدة ، يبقى بها النوع ، ويكثر النسل ، وتعمر الأرض «فطرة» الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، لم تقسم الحياةُ بالرجل وحده ولن تقُوم ، ولم تقم المرأة وحدها ، وما ينبغي لها ، بل نفس واحدة من روح الله ، خلق منها زوجها ، فإذا الزوجان أزواج ، وإذا النفسان عالم ضخم يموج بالأنفُس ، ويزخر بالحياة ، يسير ما قدَّرَ له السير ، ويمضي إلى غايته وأهدافه ، يعين بعضه بعضا ، ويُكَمِّل شطره الشطر الآخر ، على نسقٍ عجيب ، فيه آيات للناظرين ، وهدى للمستبصرين .

وما أبدعته يدُ القدرة في عالم الإنسان ، أبدعت مثاله في عالم الحيوان ، بل في سائر الأحياء على السواء «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» ، تمضي قضية الرجل والمرأة ، وموضع كلٍّ من الحياة ، وموضع كلٍّ من صاحبه في الحياة ، سائرةً مع الزمن ، متأثرة به ، مؤثرة فيه ، فإذا اعتدل الميزان اعتدلت الحياة ، وتعاون الطرفان على سنن قويم لا عوج فيه ، ولم يكن ثمة

ما يدعو إلى تلاح أو مقاضاة ، فقد عرف كل مكانه ، ورعى واجبه ، وأدى رسالته ، فاستقام أمر الأسرة ومن ورائها الجماعة .

وإذا انحرف طرف عن سوائه ، آذن بانحراف يُسلم بالجميع فيذيقهم من عواقبه وآثاره ما يذوقه كل منحرف عن الفطرة السليمة ، والمحجة القويمية ، حتى يرجع إلى الجادة ، أو يؤذن بالعفاء .

« سنة الله في الذين خَلَوْا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »

لا يقل أثر المرأة في الحياة عن أثر الرجل بحال ، فلم تكن يوماً عاملاً ثانوياً ، ولا كانت مجرد متعة الرجل ، وموضع شهوته والتزفيه عنه ، وكيف ؟ وما 'يخلق' الرجل إلا من المرأة والرجل معا ، وما تخلق المرأة إلا من الرجل والمرأة كذلك ، وما كان لبشر أن يبرز إلى الوجود من غير هذا الطريق سوى من شاءت إرادة الله ، واختصه الإعجاز الإلهي من آدم ، ثم حواء وعيسى عليهم جميعاً صلوات الله .

لقد حملت المرأة الرجل جنينا ، وَوَضَعَتْهُ وليداً ، وسهرت عليه في مهده وغذّته بلبانها ، وصنعتة على عيناها ، فهي صانعة الرجل ، وهي بذلك صانعة الحياة ، سواء سيطرت على الحياة ظاهراً ، أو دبّت إلى السيطرة ديباً ، أو هاضت الحياة جناحها فتحيّفتها وتنكرت لها .

وخلق بمن كانت هذه منزلها ، أن تجد ما هي جديرة به من العناية والرعاية والتكريم ، وأن تحصّن بالترية والتهديب من آفات الانحراف الخلق والروحي وأن تصان بالعلم والمعرفة والقُدوة الحسنة من زيف الآراء ، وضلال الأهواء ، حتى تؤدى رسالتها على خير وجه ، وأكمل حال ، وتؤتي ثمرتها الطيبة في خلق جيل سليم قوى ، يحمل رسالة الحياة ، ويحسن خلافة الله في الأرض .

والإسلام وهو دين الفطرة السليمة قدّر المرأة قدرها ، ووضعها مكانها وأعطاه كل ما لها ، وكلفها بكل ما عليها ، فهو يخاطبها كما يخاطب الرجل ، ويثق بها ويعوّل عليها ، ويحوطها بعنايته ورعايته كما يحوط الرجل ، بل لعلّ حظها من ذلك أجلّ وأعظم ، فلا عجب أن تُبجّل المسلمة الأولى في نصرّة الإسلام ورفع شأنه مثل بلاء الرجل ، وإن تجعل من التاريخ سجلّ حمد ، وصفحة ثناء وتبجيل .

قضية المصرية الحديثة :

والدارس لقضية المرأة المصرية في العهد الأخير يرى أمراً عجيباً ، هو في الواقع نتيجة منطقية لسير هذه القضية . ولن يُغنى الأسف الشديد شيئاً إذا ما قررنا — ونحن آمنون من الخطأ — أنها مضت تمشي برجل واحدة ، وسعت تطير بجناح ، فكان أمرها أشبه بالطائر يثب وثوب الأعرج ، ويضرب الأرض بجناحه ليطير فلا ينهض . فمددنا صاحب المرأة الجديدة ، وتحير المرأة دعوته ، والمعارضون المشفقون على أخلاق الأمة وآدابها وتقاليدها كأمة شرعية إسلامية يقفون موقفاً سلبياً من هذه القضية ، مكتفين بالنصح والتحذير ، أو التجريح والتشهير ، لم يتقدموا لعمل إيجابي ، وإصلاح حقيقي يدفع بقضية المرأة إلى الطريق المستقيم ، والمنهج القويم ، وكان في وسعهم لو شاءوا أن يجدوا ذلك واضحاً في نور الإسلام ، وهدى رسوله الكريم .

لقد كان للبرأة على عهد رسول الله ﷺ حظها من المسجد والجمعة والجماعة تشهد من ذلك ما يشهد الرجل ، وتعلم منه ما يعلم ، وكان لها حقها في مجالس الوعظ ومواقف الإرشاد مستزيدة من ذلك بطلب أوقات خاصة بها فوق ما يتاح لها

شهوده مع الرجال ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه لا يرضن عليهن بوقت ولا مجهود ، عارفاً لمن أثرهن إلا كبر في نشأة الأسرة ، وصلاح الأمة ، ومجد الإسلام ، حتى سجلت المسئلة في العصر الأول أنصع ما خلد التاريخ للمرأة من صفحات ، وأروع ما شاهد من بطولات وتضحيات ، بل شهدها التاريخ غير مقصرة عن الرجل المسلم في علم أو عمل أو جهاد وتضحية ، حتى عز الإسلام بأبنائه من الرجال والنساء ، وارتفع لواؤه خفاقا ، وعلت كلمته في العالمين .

لم ينهج المعارضون الذين عرفوا بالمحافظين نهجا عمليا ، ومالاً الخوف والأشفاق الأفتدة منهم والقلوب ، فكانوا سلبيين متشائمين ، لم يعودوا بالمرأة إلى المسجد لتعلم من دينها ما يجب أن تعلم ، واتسمو روحها وأخلاقها وآدابها بما في الدين من سمو ورفعة وتوجيه سليم .

ولم يحاولوا أن ينشئوا من المدارس الدينية للبنات ما ينبغي أن ينشأ ، فحرمت المرأة المثل الصالح من بنات جنسها علما وعملا وخلقا ، فاطردت ساعة لا تجد أمامها إلا دعاة الحضارة الغربية ممن تغربت عقولهم وأرواحهم ، وتفتحت عيونها على رائع من المدنية ، وخلاب من الحياة العصرية ، فاندفعت تعوض بعض مافات ، واستمعت طويلا ، وقرأت كثيرا عن دعاوى الظلم الذي حل بالنساء فيما مضى من عهود ، فكانت شديدة الحساسية فيما يتصل بقضيتها في الحياة .

وأولع بتريد هذه المعاني على أسماعها رجلا ن ، متكلم ديني يريد أن يعرض فضل الإسلام على المرأة وأنصافه لها ، ورفعته شأنها فيجسم أنواع ما كانت فيه من ضيم ، وما لحقها من أذى ، ليجعل من ذلك إطراء لما جاء به الإسلام تاركا ما كان للمرأة العربية في جل القبائل من مكانة رفيعة ، وعزة منيعة ، وما

بلغته في بعض الدول من رتبة الملك وعرش السلطان . وما أغنى الإسلام بحقائقه
وأجاده وروائعه عن المبالغة والإطراء .

وكتب اجتماعي ملكت عليه حياة الغرب لبه وفؤاده ، فهو يدعو إلى حرية
يهواها ليست في الحقيقة إلا تحللاً وإباحية ، فتراه يثير مشاعر المرأة وأحاسيسها
بأقاصيص الظلم الذي نالها ، وأفانين الحيف الذي قاسته ، وصور الاستعباد الذي
عاشت فيه ، زاعماً أنه من أنصارها والمدافعين عنها ، وكأنه يقول لها حذار حذار
من دعوى الفضيلة والاحتشام ، ان هي إلا الدعوة المقنّعة للذل والاسترقاق ،
الذي جاهدت للخلاص منه ، والرجل يحن إليه ، ويحرص عليه ، فإن تراجعت
قليلاً فهو القضاء على ما عليه تحرصين . إن دعوى الاحتشام رجوع بنا إلى
أكثر من ألف عام ، إن التصون والعفاف والستر نكوص إلى عهد الحريم .
بهذا وغيره كانت المرأة شديدة التأثير والحساسية في هذه الناحية ، ترى أقل
مظهر من مظاهر التفرقة نوعاً من العبودية حتى ولو كانت أوفر بهذا التفريق
حظاً ، وأرجح نصيباً ولعل تلك الظاهرة غير خاصة بالمصرية ، بل لعلها شائعة
في نساء القرن العشرين .

خطبت قانونية مصرية في مؤتمر القوانين العالمية بتورنتو من مدن
إيطاليا ، تبين حقوق المرأة المصرية ، فذكرت من حقوقها الصداق يقدمه الرجل
آية على صدق مودته ، وبرهاناً على اعتزامه القيام باعبائه وواجباته ، وانتوانه
التضحية من أجل شريكه حياته ، فقاطعتها فرنسية من القوانين قائلة : إذا
فالرجل عندهم يشتري المرأة بالصداق ، فكانت المصرية حكيمة موفقة إذ
ردت المغالطة بما أخذ عليها السبيل حيث قالت :

إن ذلك على أي حال خير من أن تشتري المرأة الرجل فتدفع له

رأينا المرأة — إلا من عصم الله — بتأثير (الأفلام) المنحرفة والأقلام المسمومة (٢) انحرفت عن سواء السبيل ، وصار ما كان يدعو إليه قاسم أمين من تخفيف الحجاب الى الحد الإسلامى الذى يسمح للمرأة بكشف الوجه واليدين ، والذى يبيح لها الخروج لحاجتها من علم وعمل ، عرياً وتكشفاً وتهتكاً وانطلاقاً ، يزرى بالمرأة والرجل ، ثم يتمنخض كل يوم عن مآسٍ مريعة تزلزل من الأسره كيائها وتصيب من الأمة سويداءها .

ونحن فى عهدنا الجديد الذى اعتزنا فيه ببناء الأمة على أساس وطيء من الخلق المتين ، والترية الجادة أجدر بتبين طريق الصواب ، واستهداء وجه الحق . وهذه فصول فى قضية المرأة متساوقة ، يمد أولها لآخرها ، وينعطف آخرها على أولها ، تصح من حقائق التاريخ مازيفه المبطلون ، وتكشف من واقع الحياة ما أضله المخطئون ، وتهدى إلى نور من الإسلام يهتدى به المؤمنون ويعشى من ضيائه الجاهلون ويعي دون فهمه المتغربون وأتباع المتغربين . قد استقيتها من مصادرها الأصلية ، فلم أكتف بمقول إليه عن المنقول منه ولا بالفرع القريب عن الأصل المأخوذ عنه .

فصول حاولت بها أن تكون قضية المرأة فى وضعها الصحيح ، بعيدة عن حيف من يحيف ، ومحابة من يحابى . لم أبغ بها وسطاً بين رأيين ، ولا تقريباً بين متباعدين إنما الحقَّ وحده قصدت ، ومن ضاق به الحق فالجور عليه أضيق . وعسى أن تكون هذه الفصول داعية إلى خير ، ومرشدة إلى برٍّ ، كاشفة عن جانب من عظمة الإسلام فى شأن المرأة ، وهادمة لضلal كثير حول قضيتها

(١) انظر فصلى المرأة فى الميراث والشهادة ، والمرأة والحياة السياسية .

(٢) انظر فصل المرأة والأقلام المسمومة .

أخذة بيدها عن طريق المسجد (١) والأزهر إلى ما نرجوه للسلامة الحديثة
من عزة وكرامة، وعفة ومجد، واحتشام وترفع، كي تستعيد في الحاضر المرجو
أمجادها الأولى، وفي الغد المأمول عظمتها الخالدة في صدر الإسلام.
تأليف هذا الكتاب :

لعل حظي من اختيار هذا الموضوع لم يكن بقدر ما دفعت إليه دفعا، فقد
احتمت المعركة الكلامية سنين واشتد لظاها حول مطالب المرأة السياسية،
وكنت شاهداً أقرأ ويسمع وأحيانا باحثا في الأمر بحثا عارضا، وفي أكثر من
مرة ولمناسبات تكررت في غير عام كان ضمن مواضيع الإنشاء للفرقة الرابعة
الثانوية الموضوع الآتي :

هل ترى المرأة المصرية حقوقا سياسية من الخير أن تمارسها؟ وجهه ما
تقول، وفنن رأي الآخرين ..

وكان جمهور الطلاب وهم شباب في أواخر العقد الثاني وأوائل الثالث يفيض
قوة وحيوية ويتدفق نشاطا وتوثبا ويصغي لما حوله من الآراء ويشدو إلى
علومه الأزهرية طرفا من الآداب ويطلع أشتاتا من الصحف اليومية والمجلات
الأدبية والسياسية، كان جمهورهم عادة ضد ما ترى المرأة لنفسها من حقوق وإن
كان علاج الموضوع كما توحى صياغته يفسح جوانب من القول ويدعو الطلاب
إلى مناظرة فيها حرية البحث كاملة يمحس الرأي فيها ويقلب على شتى وجوهه
ثم يمضى كغيره من الموضوعات.

حتى بلغ الأمر ذروته وتساءل كثيرون عن رأي الدين فيه وصدرت
الفتوى الرسمية من الأزهر الشريف بمنع اشتغال المرأة بالأمور السياسية

وعدم جواز دخولها البرلمان لأنه ولاية عامة ، وبمنع اشتراكها فيها يكون طريقا إليه من اعطاء صوتها في الانتخاب (١) ولست أكنتم القارىء أنى أحسست عند صدورها بحلقة مفقودة فيها ، مع اعجاب بلجنة الفتوى واجلالى لأصحابها .

وجدت الحوادث وتوالى وقررت لجنة الدستور الفرعية بأغلبية ثمانية أصوات إلى ستة مطالب المرأة السياسية

وكما لاحظت في الفتوى جانباً يحتاج الى بيان ، لم أرمأ قررته اللجنة رأياً سديداً ، وعملاً حميداً . ذلك أن تجاهل الرأى الدينى الرسمى للبلاد أمر لا تسيعه الأمة ، ولا يقع منها موقع القبول ، وليس يكفى ان تقرر لجنة مهما علا شأنها مطالب المرأة السياسية محتجين لقرارهم بان الدين لا يمنع ذلك ، فيؤمن الناس بما تقول ، ضاربين صفحا عن فتوى لجنة الازهر .

وقد سقط دستور ودستور لانهما لم يقوما على الحق الصريح « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » ،

واقترحت في كلمة حملتها الاهرام مشكورة أن يجتمع السياسيون والدينيون ويتفاهموا على رأى سواء « جمعا للكلمة ، وحفظا للوحدة ، وتوفيرا للجهود » ، وليحتكم الجميع إلى الحكيم العليم ، والله يقول : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ، . ولم أكن مسرفا في الظن الحسن كى أعتقد بأن كلمة او كلمات بمن لا يملك سواها تجمع الجبهتين المتعارضتين في صعيد واحد ، ذلك ان الجانب الدينى يرى انه بلغ وبرا ذمته ، وأن الجانب السياسى غالبا يتخذ الغرب قبلته ، ثم جدت امور وظهرت كتب ، تحمل طابعا خاصا لم تشف منى غليلا ، ورأيتنى مدفوعا الى درس هذه الناحية دراسة وافية وبدأت أدرس وأبحث ، وأراجع وأتقضى ، وأقرأ فى القديم والحديث ، والعربى والمغرب ، وأطالع قضية المرأة ، ومكانتها

« ١ » انظر الفتوى ومناقشتها فى فصل المرأة والحياة السياسية .

في التاريخ ومزاتها في الاسلام ، ومالهـا من حقوق وما عليها من واجبات ، مستجلبا مضتها الحديثه ، ومكانها في الحياة العامة وفي الشؤون السياسية ، متابعا ما ينشر عنها في الصحف والمجلات . لم ادع من ذلك شيئا يفيد في الموضوع . استطعتـ الا اطلعت عليه ؛ حتى اكتمل الدرس او كاد ، فكان من ثماره هذا الكتاب ، وما هو ذا اقدمه لكل باحث منصف يطلب الحق أنى وجده ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مصادر الكتاب :

لم أشأ ان أثبت في صدر الكتاب أو آخره سجلا حافلا بمصادره كما هي عادة البحث العلمى الحديث ، ذلك أن هذه المصادر كثيرة تحتاج الى ثبت طويل عدا أن منها الكتب العديدة يؤخذ منها الشئ الواحد ، ومنها الكتاب الكبير يراجع فلا يؤخذ منه سوى القليل فكان اثباتها جميعا أشبه بالتزيد والمغالة حيث لا رغبة لنا فيها ولا حاجة بنا اليها ، بيد أنى لم أغفل منهج البحث العلمى الدقيق فأشرت الى المراجع التى آخذ عنها فى ثنايا البحث وهامش الصفحات ليسهل الرجوع اليها لمن شاء ، مالم يكن ذلك من الشهرة بحيث لا حاجة فيه الى انتساب . وبصفه عامة :

فالمراجع الاول فى الناحية الدينية كتاب الله سبحانه ورسا وفيها على وفرة التفاسير المرجوع اليها ، ثم سنة نبينه ﷺ فى منابعها الاولى . ومصادرها الاصلية ؛ اذ هي شارحة القرآن الكريم ، ومبينة لاحكامه ، ومفصلة لمجمله ، على أن ما نقلته عن البخارى ومسلم والموطأ فيها بلا واسطة ، ومن بقية الصحاح والمسانيد فقد اعتمدت فيه غالبا على نيل الأوطار للشوكاني ، وطرح التثريب للعراقى . ورياض الصالحين للنووى ، والترغيب والترهيب للنندرى .

وفي الناحية الفقهية راجعت مجموعة من كتب الفقه، وفي مقدمتها بداية
المجتهد لابن رشد، وزاد المعاد لابن القيم، وبعض موسوعات الاحناف لما
عرف عنهم القول بتولية المرأة القضاء في غير حدٍّ وقود وكذلك جملة القوانين
الخاصة بالطلاق والزواج المعمول بها الآن في المحاكم الشرعية. ومذكراتها
التفسيرية وانتفعت في ذلك كله بجهود الائمة الاعلام الذين خدموا القرآن
الكريم والسنة النبوية المطهرة من القدامى والمحدثين، وما حرره العلماء والفقهاء
جزاهم الله عن دينه خير الجزاء على ان النصوص الدينية من الكتاب والسنة هي
مقطع الصواب في ذلك غير متعصب لقول خاص، ولا امام بعينه، فكلهم من
رسول الله ملتصق، ومن بحر القرآن مرششف، أتحرى ما أراه أقرب وأمثل،
وأضئ مع الحق اينما كان.

وفي الناحية التاريخية كان اهم المراجع القديمة سيرة ابن هشام، واسد الغابة
والكامل لابن الاثير، والاصابة لابن حجر، ومروج الذهب للسعودي،
ومعها كذلك الكتاب المقدس.

ومجموعة من الكتب الحديثة في علم النفس والتاريخ والاجتماع ووظائف
الاعضاء، منها الخاص بالمرأة، ومنها ما يجيء ذكرها فيه مع غيرها، ولم أنقل
شيئا من ذلك خاصا الاشرت الى مصدره، أما الرأي العام الذي ليس وقفا على
أحد فليست اشير اليه الا ان يكون اقتباس تعبير بعينه أنسبه له صاحبه

فان كنت وفقت فيما اليه قصدت فذاك فضل الله منه واليه، وان كانت
الأخرى فما ألوت الصواب جهدا، ولا الحق ابتغاء وقصدا.
وأرجو أن اكون خالص النية في القول والعمل، والله حسبي، وهو
سبحانه نعم الوكيل.

المرأة في التاريخ

« وكيف عولجت مكانتها فيه ،

يذكر كثير من الباحثين ان المرأة غابت في عصور التاريخ القديمة منذ قبلت أن تدخل شريكة في الأسرة ، وتنزل عن بعض حرياتهما للرجل ، حيث لم يقنع منها بذلك ، بل استبد بها وببالغ أحيانا في ذلك الاستبداد ، حتى كان له أن يتصرف فيها تصرف المالك في ملكه ، وينزل بها الى دركة الحيوانات فيبيعها إن شاء ، فهي عنده ليست انسانا كالرجل .

ولاذ بلغ الأمر هذا الحد ، فليس بعجيب ما يذكره عالم فرنسي كبير (١) من « أن مجمع ما كون في القرن الخامس الميلادي بحث في : هل للمرأة نفس كالرجل ؟ ولم يكن جوابه على هذا السؤال بالإيجاب إلا فيما يخص مريم العذراء والدة الله ،

ويقول المرحوم قاسم أمين رأس الداعين الى تحرير المرأة المصرية في كتابه « المرأة الجديدة » (٢) « وترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانها من استقلالها ، لذلك نرى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكا لزوجته ، وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق البيع والشراء ، بمعنى ان عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء ، وهذا أمر يعرفه كل مطلع على التاريخ الروماني ، ورواه (السائحون) المعاصرون لنا ، يشترى الرجل زوجته من أبيها فتنتقل اليه جميع حقوق الأب عليها ، ويجوز

(١) هنري ماريون من الاخصائيين في تربية البنات بكلية الآداب بفرنسا في كتابه خلق المرأة ترجمة أميل زيدان (٢) فضل المرأة في حكم التاريخ .

ان يتصرف فيها بالبيع اشخص آخر ،

ويقول في موضع آخر من الفصل السابق

هذا هو مجمل تاريخ المرأة نلخصه في كلمتين : عاشت المرأة حرة في العصور الأولى ، حيث كانت الانسانية لم تزل في مهدها ، ثم بعد تشكيل العائلة وقعت في الاستعباد الحقيقي ، ثم لما قامت الانسانية على طريق المدنية تغيرت صورة هذا الرق ، واعترف للمرأة بشيء من الحق ، ولكن خضعت لاستبداد الرجل الذي قضى عليها بالألا تتمتع بالحقوق التي اعترف لها بها ، ثم لما بلغت الانسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة ، وتساوت المرأة والرجل في جميع الحقوق او على الأقل في معظمها — أربعة أحوال يقابلها أربعة ادوار من تاريخ التمدن في العالم . ١٥

وغير العالم الفرنسي والمرحوم قاسم أمين ينحون في معالجتهم لمكانه المرأة في التاريخ هذا المنحى ، وهو رأى شائع ، تراه كثيرا في الصحف والمجلات ، وبعض المؤلفات وتسمعه على المنابر ولن يُغفوز هؤلاء الباحثين الاستدلال على ما يقولون ببعض الحوادث التاريخية .

ونحن لانرد هذه الحوادث متى كانت في مصادرها المحترمة ؛ ولكننا نلاحظ أن اعطاءها الصبغة العامة الشاملة ، والحكم بها على مكانة المرأة في جميع العصور السالفة ضرب من المبالغة والغلو ينقصه التحقيق العلمي ، لانا اذ نقرأ هذه الحوادث التاريخية نقرأ الى جانبها كذلك للمرأة صفحات بيضاء من الأعمال المجيدة ، والمكانة الحميدة ، فهي فضلا عن مضيقها في وظيفتها الأولى من إنسال الذرية واحتضانها لعمارة الكون غير متوانية ولا مقصرة ، ولا باخلة بما يصحب ذلك من جهد ومشقة وتضحية ، تشارك الرجل في جسام الأمور ان

اضطر الى معونتها واسعافها كمواقف الحروب والقتال .

بل ان من النساء في الزمن القديم من تربغن على كراسي العروش والممالك ، وليس ذلك على ندره او شذوذ ، فتاريخ مصر شهد عدة ملكات علون عرشه ؛ كذلك ملكت المرأة في روما ، وملكّت المرأة في الفرس الاولى ، وملكّت امرأتان من بنات كسرى قبيل الفتح الاسلامي ، وملكّت امرأة في بعض جهات العراق أربعين سنة ، وهذه بلقيس التي حكى القرآن الكريم شأنها مع سليمان ، ووصفها بأنها « أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، ملكت باليمن كذلك ملكت الزّباء في تدمر .

وكان بعض اولئك النسوة يبدن حكمة وحنكة وبصرا بتدبير الامور . بل هذه هي المرأة الرومانية التي حدثوا عنها بأنها كانت في وصاية الرجل وكان له قتلها بيده ان شك في سلوكها (١) وله ألا يعترف بأبنائها قد خرجت من خدرها ، وشاركت الرجل في سياسة الدولة ، وتغلغل نفوذها في كل مرفق من المرافق العامة ، وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الاول في تعيين رجال السياسة وخلعهم ، (٢)

كذلك من النساء من احتفظت بشخصيتها في أروع بيئة وأقواها ؛ فلم تلبس صفاتها ، ولم تغمز قناتها ، وانما مالت باختيارها حيث شاءت ، فقد تكون البيئة بيئة النبوة التي تملأ الفؤاد هبة وروعة ، ثم تختار المرأة دين قومها ، وإن كانت في كنف النبي زوجها ، وقد تكون بيئة الملك وصولته وجبروته ، فلا ينخلع قلبها ، ولا يشغف عليها فؤادها ؛ فتتهو إلى ملكوت السموات ، وتنظر

(١) هنري ماريون في كتابه خلق المرأة السابق

(٢) دائرة معارف المرحوم وجدي الجزء الثامن ص ٦١٨

وكتابه المرأة المسلمة ص ١١٧

الى الملا الاعلى وتقول : « رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ،

ذاك مايقصه القرآن الكريم حيث يقول : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخاتاهما . » وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ،

وتذكر التوراة فى مواضع كثيرة شئون الرجل والمرأة فلا تنتقص المرأة بمثل مايدكره السكاتبون وتقرأ الاناجيل كذلك فترى الدعوة الدينية للمرأة والرجل على السواء ، وترى انصارها من الجنسين كليهما ، وتجد الشاء عليهما ان قدما مايجعلهما اهلا للشاء ، والذم لهما ان كانا بالذم جديرين

ذكرت التوراة ان المرأة تكهنات ، واستطاعت طلع الغيب وأن من النساء من بلغت مرتبة النبوة وكانت بالفعل نبية ، وأن منهن من اختيرت فجلست مجلس القضاء السنين الطوال ، ثم اشتركت القاضية فى بعض المعارك الحربية بعد اذ أبى القائد المضى حتى تصاحبه ، وبفضلها انتصر الجيش على الاعداء (١) كذلك تقوم امرأة حكيمة بمهمة كبرى اذ تفاوض قائد الجيش المغير ، وتحدثه من فوق سور المدينة ، وتقنع قومها بتسليم السلاجىء الغادر وينجو بذلك الحصن ومن فيه (٢) .

وأعجب من ذلك أن توصى التوراة بان يكرم المرأة السببية سايها ، ويكى لها أباهما إن اراد اتخاذها زوجة ، او يطلقها حرة ان لم تحظ فى عينه ولم يرد زواجها ، فلا تباع ولا تشرى ككفاء ذلها السابق بأسرها (٣) .

(١) الفصل الرابع من سفر القضاء ص ٣٩٨

(٢) سفر الملوك الثانى ، الفصل العشرون ص ٥٣٩

(٣) سفر تثنية الاشتراع الفصل ٢١ ص ٣٢٢

ونحن لانورد هذا لنقول : ان اليهود قد التزموا بكل مافيه ، أو انهم حافظوا على دين الله فلم يغيروه ، وحسبنا ان تكون هذه نظرة دينية في الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى ، لنرى ان دعوى الاتباع على ظلم المرأة وهضمها في الامم السابقة والعصور السالفة الى ان جاءت المدنية الحديثة ، والاستشهاد على ذلك بالحوادث الجزئية التي اعتاد الناس ان يسوقوها بل يتلقفوها في مثل هذا الموضوع أمر لا يسيغه البحث التاريخي ، ولا التحقيق العلمي

فاذا اتفق لانيسان أو جماعة بدافع من حماقة جاهلية أو قسوة اقتصادية أن اعتبروا المرأة متاعاً أو سائمة، أو حسبوها جسداً بلا روح، أو روحاً نجسة خلقت لخدمة الرجل - إن جاز تحسين الظن بأمثال هاتيك الروايات التي أولع بها قوم - فما اخال ذلك أمراً عاماً يتعارفه جيل أو قبيل ، وما هو - إن صح - الانزوة عارضة ، ومرض طارئ يتداركه عقلاء الناس بالتغيير والتبديل .

على أن بعض ما وقع من الحيف للمرأة ، وقع مثله للرجل كذلك ، وهذا هوذا الرق في العالم القديم شمل الرجال والنساء على السواء ، بل كثيراً ما وقعت المحن للرجال من دون النساء .

فاذا كان البعض يقتل المرأة خوفاً الفقر أو العار ، فلقد كان الرجال يقتلون في بعض العهود خوفاً من سطوتهم وبأسهم . أولئك هم الذكور من بني اسرائيل تعمل في رقابهم سيوف آل فرعون ليسيّدوا وينجوا من ذلك النساء ، وفي القرآن الكريم « واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبجون آبناكم ويستحيون نساءكم ؛ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ،

ومثل هذا حدث للولدان زمن نمرود بن كنعان ، وقد ولدت ابراهيم عليه السلام أمه بعيداً ، وتركته بمغارة في فلاة من الأرض حتى كبر وشب ، ورأى

في الكواكب مارأى وكملت نبوته (١)

كذلك زمن ولادة عيسى عليه السلام ؛ وقد أمر (هيردوس) أن يقتل الصبيان ببית لحم ؛ فخرج يوسف به وبامه الى مصر ، حيث أقام سنتين ثم رجع بعد موت (هيردوس) (٢)

بل من تعاليم التوراة اذا كان الابن عاقا لأبيه وأمه غير سامع لقولها ، فليقبضا عليه ويخرجاه ليشيوخ المدينة ليرجموه حتى يموت (٣)

فأحر بهذه المظالم التي تنسب للمرأة ان تكون فردية أو وقتية ، وفي عصرنا هذا وانه لشديد الفخر والاعتزاز بما نال من حريات وحقوق توجد مظالم من هذا النوع ، وان اختلفت مقاديرها وأسلوبها

فتلك عصابات تتاجر في الرقيق الأبيض وأولئك آباء يبيعون اولادهم تحت سمع العالم المتمدن وبصره . واليك مثالا واحدا من كثير

نشرت المصري بعدها الصادر في ٣ / ١١ / ١٩٥٣ مانصه :

اليابانيون يبيعون اولادهم :

طوكيو في ٢٢ — يؤخذ من بعض الاحصاءات الرسمية التي اذيعت اليوم أن أكثر من ألف وخمسمائة من أبناء اليابانيين قد باعهم أهلهم خلال هذا العام ، ومعظم هؤلاء الأبناء من الفتيات اللاتي تتراوح اعمارهن بين السادسة عشرة والسابعة عشرة ؛ وكان متوسط سعر الفتاة أو الغلام ١٠.٠٠٠ عشرة آلاف فرنك

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٣٢٠ «٢» المصدر نفسه ص ١٤٦

«٣» سفر تثنية الاشتراع ف ٢١ ص ٣٢٢ «١»

العدد تضاعف

ويلاحظ أن عدد الأولاد الميعةين هذا العام قد تضاعف عما كان عليه في العام الماضي وتُعزى هذه الزيادة الى القحط الذى ساد عدة مقاطعات يابانية ، على أثر الخراب الذى أحدثته الامطار والسيول والاعاصير ١ هـ .
فأين هذا عما يقوله شاعر النيل حافظ ابراهيم فى اعزاز اليابانيين وشجاعهم بلسان غادة اليابان :

نَبْتُونِي بِرَحِيلٍ عَاجِلٍ لَا أَرَى لِي بَعْدَهُ مُنْقَلَبًا
وَدَعَانِي مُوْطِنِي أَنْ أَغْتَدِي عَلَّيْ أَقْضَى لَهُ مَا وَجَبَا
قُلْتُ وَالْآلَامُ تَفْرِي مَهْجِي وَكَيْكَ مَا تَصْنَعُ فِي الْحَرْبِ الظُّبَا ؟
أَحْسَبْتُ الْقَدَمَ مِنْ عَدَّتِهَا أَمْ ظَنَنْتُ اللَّحْظَ فِيهَا كَالشَّبَا (١)
فَأَجَابَتْنِي بِصَوْتِ رَاغِي وَأَرْتَنِي الظُّبَى لَيْثًا أَغْلَبَا
إِنْ قَوْمِي اسْتَعْذَبُوا وَرَدَّ الرَّدَى كَيْفَ تَدْعُونِي أَلَا أَشْرَبَا
أَنَا يَابَانِيَّةٌ لَا أَتْنَى عَنْ مَرَادِي أَوْ أَذُوقُ الْعُطْبَا (٢)

ماذا يصنع كاتب التاريخ بعد ، ان هو نظر الى جانب واحد فقط ، وان كان فى جانب آخر امرأة هندية ترأس هيئة الأمم المتحدة عامًا كاملاً ، واخرى زعيمات وقائدات وسفيرات . لئن اقتصر فسوف يذكّر بعض الحق ويهمل بعضه الآخر ، وهو فى ذلك من القاصرين بل من الخاطئين .

فاذا كان الرجل حينًا يعامل المرأة بالعسف ، ويغتصب منها بعض حقوقها فذلك من نقص الرجل فى نفسه ، وكما حدث فى القديم ، فانه لا يزال يحدث كل

(١) مفردة الشبابة وهى حد كل شيء كالسيف مثلاً « ٢ » ديوان حافظ

يوم ، وليس التظالم قاصرا على الرجل والمرأة . فكما نقرأ كثيرا أخبار من قتل زوجته أو بنته أو أخته ليدفع العار عن نفسه فكذلك نقرأ أخبار من قتل صديقه أو قريبه أو أخاه من أجل الشرف والكرامة .

ونستطيع ان نقول باطمئنان هذا هو القرآن الكريم يحدث ان الله سبحانه خلق آدم ونفخ فيه من روحه وخلق منه زوجه وبث منها رجلا كثيرا ونساء ، وهو في ذلك مصدق للتوراة والانجيل ومهيمن عليهما ، وقد اوحى ربك إلى الانبياء السابقين بالهدى والنور كما اوحى الى رسوله محمد ﷺ وكانت رسل الله تترى الى البشرية ؛ ولكل أمة رسول ، وإن من أمة الا خلا فيها نذير ، ومكان المرأة من الرجل مكان الفطرة السليمة كما أباتها الآية الكريمة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

فلا بدع أن يعرف عقلاء الرجال للمرأة منزلها وكرامتها ؛ كما يعرفون ذلك لانفسهم ، بل لا عجب ان يعرف ذلك الفطريون والهمجيون ، وكيف يستعبدونها من يعلم أنه بضعة منها وأنها بدورها بضعة منه ؟

قال رجل لمعاوية : كيف أنت وقد ملكتك نصف رجل ؟ قال يابن أخى : انهن يملكن الكريم ، ويملكهن اللئيم ، وهو لاشك قد انتفع بقول الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه « ما أكرم النساء الا كريم ، ولا اهانهن الا لئيم أما مكانة المرأة العربية فإليك الحديث عنها في فصلها الخاص .

المرأة العربية

« ومكانتها في قومها »

وهل للمرأة العربية من مكانة في نفوس العرب وقلوبهم ؟

وما ظنك بمن كانت مكانته في التراب ، وعيشه في الرغام ، يورث كالانعام ،

ويدس في الثرى ان شاء مولاه ؟

هذه فكرة سائدة ، ربما ساعد عليها النظر السطحي في الآية الكريمة « واذا

بُشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء

ما بُشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألساء ما يحكمون

يقراء القارىء هذه الآية فيظن لأول النظر أنها تحدث عن العرب قاطبة

وعن فعلة فيهم شائعة فيأخذ منها مكانة المرأة عند العرب ، وسنعرض للآية

الكريمة بعد ، بما يتبين منها انها لا تساعد على ما يظنون .

وترى كثيرا من الكاتبين يُعَمِّمُونَ الحكم ، والتعميم غير سليم ، لا يسلّم

من ذلك بعض كبار الباحثين ، فهذا كاتب كبير ، له مكانة المرموق في مصر

والشرق كالأستاذ العقاد ، وكتاباته الاسلامية من أجل وأقوى ما كتب في بابها

يحدث عن المرأة العربية في كتابه المعروف « عبقرية محمد ، صلى الله عليه وسلم » فيقول :

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة في الجاهلية

وبعد ما صارت اليه بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

« كانت متاعا يورث ، ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين ، فأصبحت بفضل

الاسلام ونبيه صاحبة حق مشروع ترث وتورث ، ولا يمنعها الزواج أن تتصرف

بمالها وهي في عصمته كما تشاء وكانت وصمة تدفن في مهدا فرارا من عار وجودها

او عبثا تدفن في مهدها فرارا من نفقة طعامها فأصبحت انسانا مرعى الحياة
ينال الغقاب من ينالها بمكروه ، (١).

هذا كلام أدبي جميل . ولنا عليه ما أخذناه على سابقه . فهو إجمال يحتاج الى
تفصيل ، بل هو تعميم يجب فيه التخصيص ، فلم تكن المرأة في جميع احياء العرب
وشعوبهم وقبائلهم متاعا يورث . او عارا يدفن في التراب وإلا فكيف جاءت
الجحافل الجرارة ، والبطولات النادرة التي دكت المعازل . وثلثت العروش
وغيرت وجه التاريخ ؟ أمن تلك التي دفنت في التراب أم من هذه الذليلة
الحقيرة المستهجنة ؟

والحق أن المرأة العربية عند الكثرة الساحقة من العرب لم تكن بمنزلة
كريمة عند الرجل فحسب . بل كانت شريكة حياته ، وربة بيته ، وموضع احترامه
وُمراد أنسه . ومهوى فؤاده (٢)

ترى ذلك جليا في أشعارهم وأخبارهم وتواريخهم تزخر به اسفار الادب وكتب
التاريخ وهاك بين يدي البحث نماذج من كلام العربي الصميم في خطابه ومعاملاته
ونظراته الى امرأته حيث نراه يفتديها بنفسه ويخوض الغمرات صيانة لها ،
وغيره عليها وفي ذلك يقول :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقن جيانا ويقن لستم بعولتنا اذا لم تمنعونا (٣)

« ١ » للاستاذ العقاد في كتابه الصديقة بنت الصديق كلام اوفى بموضوع المرأة
العربية بما ذكره في عبقرية محمد (٢) من خير المؤلفات التي عرضت لهذا الموضوع
باستيفاء محاضرات الاستاذ « محمد سليمان بدير » بكلية أصول الدين . وهي مطبوعة .
« ٣ » معلقة عمرو بن كلثوم

يناديه نداء التكريم ، وَيَكْنِيهَا بِكُنَى التعظيم ، ويخاطبها أَجمل الخطاب :

ياربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا

ويستشيرها في الذي يعنيه من أمره ، وفي كيفية نزول الضيفان به

ماذا كترين أُندينهم لأرحلنا بجانب البيت ام بنبي لهم قيبا (١)

ويستدر عطفها ورضاها ، ويتطلب فيه جميل رأيها :

صبأت الكاس عنا أم عمرو وكان الكاس مجراها اليينا

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لاتصبحينا (٢)

ويسألها الثناء عليه والشهادة له .

اثني على بما علمت فاني سمح خالطي اذا لم أعظم

.....

هلا سألت الخيل يابنة مالك ان كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغي وأعف عند المغنم (٣)

بل انه ليستنكر ضربها ، ويعده غير لائق بكرام الرجال ، ويطلق لها التصرف

في بيتها ثقة برجاحة عقلها ، وحسن تصرفها :

وما انا بالساعي الى ام عاصم لا تضربها في اذا لجهول

لك البيت الافينة تحسنينها اذا حان من ضيف على نزول

وليس ذلك بالنزر اليسير في آداب العرب وأشعارهم ، ولا هو من خلائق

بعض أفرادهم بل انك لتقرأ الوفرة الغزير من شعر العرب وقصائدهم ومطولاتهم

فقلها تجد قصيدة تخلو من وصف المرأة واطراء محاسنها وخلالها .

١، الحماسة لابن تمام ٢، معلقة بن كثوم ٣، معلقة عنتره

وتقرأ تاريخ العرب فترى من ملوگهم واشرافهم من ينسب لأمه ، ويعرف
بها كما عرف بأبيه ويمدح بها فلا يجد في ذلك غضاضة عليه ، بل انه ليزداد شرفا
الى شرف ، فهذا عمرو بن المنذر بن ماء السماء الملقب بعمر بن هند ، وأبوه
المنذر غلب عليه لقب امه ماء السماء لصفائها وبهائها ، أو لجمال حسنها ، وهؤلاء
ملوك غسان 'يمدحون بأمرهم مارية ذات القرطين ، ويقول فيهم حسان بن
ثابت رضى الله عنه

أبناء جفنة عند قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
وليد بن ربيعة يفتخر بين يدى النعمان بامه أم البنين :

نحن بنى ام البنين الأربعة ليوث حتف وجفان مترعة

ومدركة جد النبي ﷺ وأخواه طابخة وقعة أبناء الياس بن مضر غلبت
عليهم النسبة الى أمهم فقيل أبناء خندف (١) ومزينة وباهله وبجيلة قبائل من
العرب عرفت بأماها

وضرب المثل بالمرأة فى العز والمنعة كما ضرب بالرجل ، فكما قيل أعز
من كليب وائل ، قيل أمتع من أم قرفة (٢)

«١» ذكره صاحب القاموس

«٢» أم قرفة امرأة مالك بن حذيفة بن بدر الفزارى وكان يعلق فى بيتها خمسون
سيفا كل سيف لذى محرم لها .

وتكهننت المرأة العربية كما تكهن الرجل ، واحتكم الرجال إليها ، (١)
وتنبأت كما تنبؤوا ، فالى جانب مسيلة ، وطلحة الأسدي ، كانت سجاح التى انقاد
اليها قومها من بنى تميم

وفى الفصل السابق رأينا بلقيس العربية ملكت فى اليمن بالجنوب ، والزباء
او زينب ملكت فى الشمال ، وسيمون كما يذكّر المسعودى فى مروج الذهب
ملكّت فى بعض جهات العراق اربعين سنة .

وتقرأ أيام العرب وحروبهم ووقائعهم فكثيرا ما ترى الحرب هاجت بكلفة
منها ، أو لحادثة مستها ، كما قد تهدأ راحاها عن رأيها ومشورتها ، فحرب البسوس
وقد دامت بين بكر وتغلب اربعين سنة قامت انتصافا لجار امرأة وحرب ذى
قار وفيها انتصف العرب من العجم بسبب مقتل النعمان من اجل رفضه مصاهرة
كسرى فى خبر طويل (٢) وتخرج المرأة كثيرا الى المعارك الحربية ، فتأسو
جراح المجروحين ، وتنزل الثبات على قلوب المتهيبين وتشعل نار البسالة والاقدام
فى صدور المستبسلين ، كما كان فى موقعة ذى قار ، وكما حدث فى حرب الفجار
ولقد كانت أحيانا تبحر على القوم ، بل يتفق لها ان تكون من قبيلة نسابوفى

١٠ ، واحتكم الرجال اليها من ذلك ما رواه ابن اسحاق فى حفر عبد المطلب زمزم
ومعارضة قريش له ، واحتكامهم الى كاهنة بنى سعد هذيم باشراف الشام ، وما حل بهم
من العطش المميت ببعض الطريق وانبعث الماء من نبع تحت ركبة بعير عبد المطلب
فسقوا جميعا ، وانصفه قومه وقالوا والله لانخاصمك فى زمزم ابدا ان الذى سقاك
هذا الماء فى هذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم فارجع الى سقايتك راشدا — ولم
يصلوا الى الكاهنة .

راجع القصة بطولها ص ١٥٥ ج ١ .

٢ ، الاغانى ج ٢

أخرى صهرا ، فتكون ملاذ الفريقين في البأساء ، يلوذون بحماها ، ويحتمون
بجباها ، فيُجار من تجير ويصان من تصون كما حدث لسبيعة بنت عبد شمس
في حرب الفجار (١)

وكانت تستشار في زواجها كهند بنت ربيعة ، وكان من النساء من تملك
عصمتها ، ويكفيها لفراق زوجها ان تشعره بانصرافها وتحويل باب خباتها
وكانت ام عبد المطلب فيمن ملكن عصمتها (٢)

ونبغ من العرب الشاعرات والخطيبات ، وكن يردن الاسواق الادبية كعكاظ ،
فينشدن الأشعار ويخطبن على الرجال ، ويساجلنهم أفانين القول ، وضروب الكلام (٣)
أما حرمانها من الميراث فكان ذلك في رأيهم لانها معفاة من كثير مما
كلف به الرجال فهي لا تبشر الحرب كما يباشرون ، ولا تفتح بيتها للضيفان فتبهظها

١، الاغانى ج ١٩ في ذكر ايام الفجار ان مسعود بن معتب الثقفي ضرب
لزوجته سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف القرشية خباء وقال لها من دخله من
قريش فهو آمن فجعلت توصل في خباتها ليتسع لمن يلوذ بها من قومها ثم دارت
الدائرة على قيس فلاذوا بها فامضى جوارها حرب بن اميه القرشى وقال لها ياعمة
من تمسك باطناب خباتك او دار حوله فهو آمن فخرج زوجها مسعود منهزما
لا يعرج على شيء حتى اتاها فجعل انقه بين ندييهما وقال لها انا بالله وبك ،
فقلت : كلا - زعمت انك ستملائي بيتي من اسرى قومي اجلس فأنت آمن .

٢، السيرة الحلبية ص ٧ نقلا عن الهاشمية

٣، الاغانى ج ٣ ص ٢٦ في اخبار بشار وقد سئل عن عريته وعدم لحنة: فقال:
ومن اين يأتيني الخطأ ولدت ههنا ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل
ما فيهم احد يعرف كلمة من الخطأ وان دخلت الى نساءهم فنساؤهم أفصح منهم وايفعت
فايديت حتى بلغت فمن اين يأتيني الخطأ ؟

واجبات الكرم وضرورات الشرف ومن حرما فقد حرم الصغير لذلك
رهي لا تحرم التملك ، أو التصرف فيما تملك ، والارتزاق والاتجار ان
شاءت ، غير أنها غالباً تكفي ذلك بمن يليه لها من الرجال ، على ان تكفيه
البيت وما فيه .

أما وأد البنات في الجاهلية فلم يكن ذلك عاما في العرب ولا فاشيا فيهم ، وإنما
كان في بعض قبائلهم خوف العار وخشية الفقر .

ذكر المؤرخون انه في بني تميم ثم استفاض في جيرانهم ، وسبب ذلك
ان بني تميم وحلفاءهم كانوا يؤدون الاتاة الى النعمان ملك الحيرة . ثم منعوها
في بعض السنين فجرد عليهم جيشا هزمهم وساق انعامهم ، وسبي ذراريهم ، فأرسل
بنو تميم يطلبون السبايا من النساء والاموال فأبى ، فسأله النساء ، فقال كل
امرأة اختارت اباهارت اليه ، وان اختارت صاحبها تركت عليه ، فكلن اختارت
أباهن الا ابنة لقيس بن عاصم سيد بني تميم ، فانها اختارت عمرو بن المشرج
وآثرت البقاء معه على الذهاب مع ابها ، فغضب قيس ونذر ألا تولد له بنت
الا قتلها ، وغضب القوم لغضبه من أجل الشرف ، وقلدهم بعض الناس في ذلك
وساعد عليه لدى بعض الاحياء غلبة الفاقة وخشية الفقر كما روينا مثله عن
اليابان في أيامنا هذه

حتى اذا تاب القوم لرشدكم ، استعكر عقلاؤهم هذه الفعلة الشنيعة
وأنكروا على قيس عمله ، ورأوه أمرا إذا (١) ، وقام بعضهم يناهضها ، ويفتدى
البنات من اهلها ، وشهر بذلك صعصعة بن ناجية جد الفرزدق الشاعر المشهور
وقال في ذلك يفتخر .

ألم تر أننا بني دارم زارة منا أبو معبد

(١) الامر الإِدَّ بالكسر ، وتفتح الهمزة : المنكر

ومنا الذى منع الواثدا ت وأحيا الوئيد فلم توأد
ومجد فى دارم دونه مكان السماكين والفرقد (١)

هذا :

والآية الكريمة ليس فيها دلالة على ان جميع العرب كانوا يصنعون ذلك
وبقليل من التأمل فى سياق الآيات قبلها يستبين لنا انها تتحدث عن فريق زادت
شناعة جرمهم ، وكفروا بأنعم ربهم يلجأون اليه فى الشدائد فإذا كشف الضر
عنهم أشركوا به ، وجعلوا الكفران بديلا من الشكران وما بك الا أن تمدمينك
الى كتاب الله فقرأ فيه من سورة النحل « وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم
الضر فإليه تجأرون ، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون
ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون ، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم
ما يشتهون ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من
القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ،
والآيات بعد جلية فى أن الحديث عن فريق من المشركين لا عن جميع
المخاطبين ، وهذا هو مورد النهى فى قوله تعالى « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق
نحن نرزقهم وإياكم ، وان كان اللفظ عاما ، لان اوامر الله ونواهيها تشمل جميع
المكلفين .

وبعد :

فاذا كنا نحاول وضع قضية المرأة العربية فى أطوارها الحقيقى ، فليس معنى
ذلك الدفاع عن العرب ، او نكران ما كانوا عليه من نقائص ومساو ، فالعرب
قوم لهم حسناتهم وسيئاتهم ، كافح الاسلام سيئاتهم وقضى على كثير منها ، وزكى

(١) الكامل للبرد ج ١ ص ٢٨٣ وما بعدها

حسناتهم وانتفع بها اكبر انتفاع في حمل دعوته الى العالمين ، والله اعلم
حيث يجعل رسالته ،

العرب امة من الامة فرضت عليهم معيشتهم ويبتهم خلائق من الخير
والشر ، ولم يكونوا جميعا يكرمون المرأة ويحاونها ، كما لم يكونوا جميعا
يحتقرونها ويستهنون بها ، وكانت لهم أنظمة في النكاح والطلاق ، منها الصالح
ومنها الفاسد فما كان صالحا ابقاه الإسلام وما كان شرا محاه .
وحياة العرب في ظلال الحرية الكاملة التي لاحكومة فيها ولا سلطان
غالبا الا ما تعارفوا عليه وارز تضرّوه غلبت عليهم الطباع الفطرية التي لا نفاق
فيها ولا التواء ، والتي قد تصل بأحدهم إلى أبعد مدى من المروءة والكرامة
والنجدة ، كما قد تنزل بالبعض إلى مهاوى الرذيلة والشراسة ، وقلبا تجد من بينهم
وغنداً خسيسا يقبل الضيم ويرضى بالهون ، وكثيرا ما تجد الفاتك المتقمّحهم يركب
الشطط ويخوض الغمرات :

إذا هم لم 'تردّع' عزيمة همه ولم يأت ما يأتي من الأمر هائبا
إذا هم ألقى بين عينيه همّه ونكّبت عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا
لا يبالي أهدم روحه أم هدم داره

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا على قضاء الله ما كان جالبا
وأذهل عن دارى واجعل هدمها لعرضى من باقى المذمة حاجبا (١)
هذا العربى قد يصل به العفاف والتكرم إلى حد قوله :

(١) ديوان الحماسة قائله سعد بن ثابت شاعر إسلامى أموى .

وأغضُّ طرفي حين تبدو جارتى حتى يُوارى جارتى مخبأها
وقد يسفَّ إلى حد أن يُكره إمامه على البغاء تكسبا بأجورهن ، حتى
ولو أبين ذلك .

ولو داخلك العجب من أمر كهذا فلا بأس أن تذكر أنا منذ قليل ونحن
أهل الإسلام ، وفيما كتاب الله يُتلى ، وتُدرس آياته وعظاته ، ومصرُّنا
العزيزةُ بلد الأزهر ، وزعيمةُ المسلمين ومع كل هذا فكان البغاء رسمياً
وكانت له دوره ومواخيرُ ونظمه ، بل ولا يستحي أقوام أو أشباه أقوام أن
يطلبوا إعادته بعد إذ قضى عليه .

أما البيئة العربية فكانت بما تجيش به من قوة وحيوية ، وما تزخر به من
خير وشر ، وما يغشاها من ظلام دامس وضلال مبین ، أنسبَ البيئات لنور
الإسلام يحو ظلامها ، وصلاحه يزيلُ فسادها ، وهُداؤه ، يكشف ضلالها
فاذا هي في نورها وصلاحتها وهداها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف
وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وهي في ذلك تحمل مشعل النور والهداية
إلى الناس أجمعين .

وقبل أن أمضى في الحديث عن هذا النور الإلهي الأكبر ، ونصيب المرأة
فيه ، أراني مضطراً إلى فصل أقدمه بين يديه ، يتحدث عن المرأة والرجل في ذات
أنفسهما قبل الحديث عن آثارهما وأعمالهما .

هل تساوى المرأة الرجل في القوة الجسمية؟..

هذه قضية ما كان أغنانا عن الحديث فيها ، فللرجل مكانه من الحياة . كما للمرأة مكانها ، وإذا كانت المرأة لا تغني غناء الرجل ، فليس يغني الرجل غناءها ، ولن يقوم أحدهما بدون الآخر ، فهما معاً مادة الحياة .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ،

وإذا كانا متكاملان ويتعاونان على مقتضى الفطرة وشرعة الله فليس يعنى ذلك أنها حتماً متساويان .

وإن مجرد النظر إلى كل منهما وقد أبدعته القدرة الإلهية التي أحسنت كل شيء صنعا ، يرينا اختلاف جانب الرجل من الحياة عن جانب المرأة ، فخلقه على ما هو عليه يؤذن بواجباته التي هدى إليها منذ الخليقة ، كما أن صورة المرأة وخلقها يوحي بما هو منوط بها من الواجب الأقدس في الحياة فكما خالفت الرجل في جسمه خالفته في وظيفته وعمله .

ومن هذا التنوع في الواجبات والأعمال تسكمل ضرورات الحياة ، ويتم به العمران .

هذه حقائق واضحة ومحسوسة ، يراها الناظر العادى ، كما يراها الباحث الفلسفى ، ولكن قوما لا يُعجبهم التسليم بهذا الواضح البين فتراهم يمارون فيه زاعمين أن الطبيعة وهبت المرأة والرجل مواهب متماثلة ، ويحاولون التدليل على ذلك بإثبات مساواة الأنثى للذكر في عالم الحيوان ، وتفوقها عليه في بعض الأنواع ، وينسبون هذه الفروق الظاهرة بين الذكر والأنثى في القوة والجلد إلى العادات والقوانين التي ظلمت المرأة وألزمها القرار في بيتها ، وحرمتها أنواع

النشاط الخارجى وكثرة التجارب والخبرة فى الحياة حتى عاد الرجل قىما عليها
يسلبها حقها ويتصرف فى جميع شئونها ، فوهن لذلك جسمها وحدث الوهن
من تفكيرها ، وأضعف شخصيتها .

يقول المرحوم قاسم أمين (١) : المرأة وما أدراك ما المرأة ؟ لا تختلف عنه
فى الأعضاء ، ووظائفها ، ولا فى الأحساس ولا فى الفكر ولا فى كل ما تقتضيه
حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان إلا بقدر ما يستدعيه اختلافهما فى الصنف
ثم يزيد هذا المعنى تقريراً فيقول بعد :

« فإذا فاق الرجل المرأة فى القوة البدنية والعقلية فذلك إنما لأنه اشتغل بالعمل
والفكر أجيالاً طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين
ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط فى الشدة والضعف على حسب الأوقات
والأماكن ، .

وينقل فى كتابه المرأة الجديدة (٢) عن جملة من العلماء الأوربيين ما يؤيد
وجهة النظر هذه ، ويذكر عن أحدهم وقد وصفه بأنه العلامة « ماتتجازا ،
المدرس لعلم الإنسان والعضو فى مجلس الشيوخ الطليانى فى كتابه « فسيولوجيا
المرأة ، قوله : « ما أ كفر الرجل ألجأه كبره أن يزور حتى فى علم التشريح
فلم يكتف بأن يغتصب المحل الأول فى العالم ، بل أراد أن يبرهن أن
المرأة أقل منه فى الإنسانية وأنها فى مرتبة بين القرد والانسان ، ولهذا
فيكون له الحق فى أن يجردهما عن الحقوق التى منحها نفسه ، وكأنه نسى أن
الذات التى يريد أن يحط منها هى أمته . والحقيقة أن المرأة أمام علم التشريح
ليست أقل من الرجل ولا أرق منه ، وإنما تختلف عنه لأن لها وظائف تقوم

(١) فى كتابه تحرير المرأة فصل تربية المرأة

(٢) تحت عنوان : حرية المرأة

بها غير وظائف الرجل ، ثم علق عليه بقوله : وقد بين هذا العالم الاختلافات الدقيقة التي توجد بين الرجل والمرأة بالنسبة للإحساسات والعواطف .

وهذا الكلام لا يرد علينا معشر المسلمين شيء منه ، فلم تكن المرأة في نظر الإسلام يوماً أقل إنسانية من الرجل فضلاً عن أن يعتبرها منزلة وسطاً بين القرد والإنسان وليس هناك شخص في الإسلام له مثل واجب الأم من الرعاية والعناية والتكريم (١) ولئن كانت المرأة أمام علم التشريع ليست أقل ولا أرق وإنما تختلف عنه لاختلاف وظائفها فذلك لا يجافي الإسلام ، بل هو برهان له وتأييد ، فإذا زاد عقل الرجل وزخرت عواطف المرأة فذلك فيهما معاً من كمال الفطرة وحظ النوع البشري ، ولو كان الرجل عاطفياً فأني له أن يثبت في صراع الحياة وقراع الخطوب ولو نضبت عواطف المرأة وغلبها عنصر التقدير والتفكير فما الذي يغريها بذلك الحمل كرها والوضع كرها حتى تشارف الموت وتظنره ، ويهون عليها ما يلي ذلك من آلام النفاس ورعاية الولد ؟

اللهم لا شيء إلا عواطف الأمومة الزاخرة حيث تحتل الأم الآلام في سبيل وليدها ، وتستعذب العذاب من أجل رضيعها ، واجدة في مناجاته أجمل الألحان وأعذب الأمانى شاعرة بأن حياته من حياتها ، وبأن سعادته من سعادتها هذا : والعالم الإيطالي الذي يرمى الرجل بالتزوير في علم التشريع هو نفسه يثبت الاختلافات بين الرجل والمرأة .

ولو تجاوزنا عن تجارب العلماء وموازنهم ، ومقاييسهم وتشريحهم لا يمكن أن نلاحظ بعيداً عن المعامل والخبر بالآعين المجردة فروقاً ما بين الرجل والمرأة لا يرتاب فيها عاقل فصغر الرأس في المرأة واضح جليّ يعلمه العالم والجاهل

(١) وفي الحديث من أحق النساء بحسن صحابي قال أمك ، قال ثم من ؟ قال: أمك ، قال : ثم من ؟ قال أمك قال ثم من قال : أبوك

وسرعة نمو الفتاة عن الفتى ، ونضوجها المبكر ، وميلها إلى بناتها الصغار ، واعتبارها كل صغير بنتا لها أمر مشاهد كذلك ، دع عنك اختلاف الأعضاء الخاصة بكل نوع .

أما الزعم بان هذا من أثر العادات والتقاليد والحياة التي عاشتها المرأة سجيئة فغير سليم ، لأن هذه الفروق تشاهد عند المتمدنين الذين درجوا حيناً على حجب المرأة كما تشاهد عند القرويين والبدويين حيث المرأة شريكة الرجل كثيراً في الأعمال ، بل عند المتوحشين الذين يكلفون نساءهم الحرث والسقى والزرع والذين لا يعرفون عادة حجب النساء كما يرويه الباحثون .

ولو صح ما يدعون فيماذا تعلل هذه العادات والتقاليد والقوانين ، وكيف نشأت وبقيت كل هذه الأزمان الطويلة منذ الخليفة الأولى ، وكيف لم يتسن تغييرها في زمن من الأزمان حتى توافق الحق والعدل ولو في بعض الأحيان ؟ وكيف لم تثر المرأة على الرجل كما ثارت طبقة على أخرى حتى يفىء الرجل إلى الاعتدال ؟ مالنا نشاهد المرأة لا تعجب إلا بالفحل من الرجال ، ذلك الذي تحس بالضعف بين يديه ، لأنها خلقت لتثور عليه ، أم لتزكن إليه ؟

لا شك أن بعض العادات والشرائع المتبعة عند كثير من الأقوام قد ضمنت الفروق بين الرجل والمرأة فتبع ذلك انحفاف بحقوقها من جانب الرجال ولكنه ولا ريب - لولا وجود الفوارق الطبيعية ، والمميزات الجسمية والعقلية لما نشأت هذه العادات وتلك التقاليد واليك طرفاً مما أثبتته العلم الحديث في الفروق بين الرجل والمرأة سواء في البدن أو الحضر ، والمدنيين أو المتوحشين .

يذكر الباحثون : (١)

« ١ » من أهم الكتب التي انتفعنا بها في هذا البحث « خلق المرأة والمقارنة بينها وبين الرجل لهنري ماريون » دائرة المعارف للرحوم و جدى ، وكذلك كتابه المرأة المسلبة

أن قامة المرأة في جميع الاجناس أقصر من قامة الرجل ، وذلك منذ المهد
فالذكر يولد أكبر من الأنثى ، ومعدل الفرق بينهما عند تمام النمو ١٠ سم -
وكذلك الوزن ويظهر جليا في الهيكل العظمى فهيكلك المرأة اخف وزنا من
هيكلك الرجل ليس في ذاته فحسب ، بل كذلك بالنسبة لوزن الجسم ، وتركيب
الهيكل يجعلها أقل قدرة على الحركة والانتقال ، وعضلاتها أضعف من عضلات
الرجل بقدر الثلث - وتفضله هي في النسيج الخلوى الذى يحوى كثيرا من
الاوعية الدموية والليمفاوية والاعصاب الحساسة ويسمح باختران طبقة دهنية
وعلى هذا النسيج بما فيه تقف استدارة شكلها ، ورشاقة قدّها .

فاذا أتينا الى الرأس وجدنا ان مخ الرجل يزيد فى المتوسط عن مخ المرأة
بمقدار مائة جرام - وليس ذلك راجعا الى اختلاف حجم الجسمين لأنه قد
شوهد أن نسبة مخ الرجل الى جسمه كنسبة $\frac{1}{4}$ ، أما نسبة مخ المرأة الى
جسمها فهي $\frac{1}{4}$ ، وفرق بين النسبتين ، وغير هذا فان مخا أقل ثنيات ، وتلافيفه
أقل نظاما ، كذلك يوجد اختلاف بين المخين فى الجوهر السنجانى الذى هو
النقطة المدركة من المخ ، فهو عند النساء أقل منه عند الرجال بدرجة محسوسة .
ولكن فى مقابلة ذلك نجد مراكز الاحساس والتهيج عند المرأة أحسن
تركيبا منها عند الرجل (١) فاذا انتقلنا الى الجهاز التنفسى رأينا المرأة متخلفة
عن الرجل فى سعة الصدر والرئتين . والتنفس لديها أسرع ولكنه انقص من
الوجهة الكيماوية فالرجل اكثر امتصاصا منها للأوكسجين واطلاقا للحمض
الكربونى ، ولذلك نجد المرأة دون الرجل فى درجة الحرارة .

أما القلب فهو في المرأة أصغر منه في الرجل ، ونبضه لدى المرأة أسرع ،
واكثر بما يتراوح بين ١٠ ، ١٤ مرة في الدقيقة ، ويشاهد مثل ذلك الفرق بين
انثى الحيوان وذكره .

وإذا كان بعض هذه الفروق مما يختلف فيه آراء الباحثين ، فإن مجموعها
ثابت لاسبيل الى جحده او الشك فيه ، وهي بعد ليست سبيلا لانتقاص قدر
المرأة او توهين شأنها ، وليست شهادة بتزكية الرجل واعلاء قدره ، وانما
هي فقط دليل قاطع على تنوع الأعباء والواجبات في الحياة بما يناسب الفطرة
ويناسبها ، ويضمن استغلال المواهب الانسانية على احسن حال واكمل
وجه « وكل ميسر لما خلق له »

هذه هي المرأة وقد كتب عليها في الحياة ان تكون والدة تحمل الجنين
وتضعه وترضعه في حولين كاملين أو أكثر ، وتقوم على شئونه لتدفعه للمجتمع
عضوا عاملا ينفعه وينتفع به ، فمن لها وتلك حصتها اذا لم يكن على الرجل
تعاهدها ورعايتها والحنو عليها ؟

من يقوم بغذائها وكسائها وعلاجها وقد شغها الطفل حتى عن نفسها ؟
ليست هي في حاجة ماسة الى معونة الرجل حينذاك ؟

أليس المجتمع يكون ظالما إن ترك امر عيشها اليها ، فكلفها بذلك ضعف
ما يكلف به الرجل ؟

يقول الاستاذ هنري ماريون (١) :

فلله در هكسلي القائل : « مادامت الأمومة حصّة المرأة فانها حمل ثقيل
عليها في ذلك السباق الذي يسمى الحياة » فواجب الرجل ان يخفف عنها ذلك

الحمل ، او على الأقل ألا يضيف اليه اثقالا أخرى فيزيد الحيف الذي نالها من الطبيعة .

ويقول : ان في حياة المرأة على الخصوص في العارض الابتدائي (بين سن ١٢ ، ١٤) وفي العارض النهائي (حوالى سن ٤٥) جملة اخطار تجعلها عرضة للضعف والعطب ...

ان المرأة في اجمال دور من حياتها — حتى اقصى النساء وارزهن عقلا وجسدا عرضة لمشاق وشدائد تتفاوت في الخطورة ، فقد كتب لها ان تعرف ايام تعب وضعف تتكرر في اوقات معلومة ، وان تكون شديدة التأثر والانفعال من أتفه الاسباب ، كثيرة التعرض للغم والكرب والتخوف والتوجس ، ميالة الى العزلة والهدوء .

ذلك هو الجعل المفروض عليها تكبده للاحتفاظ بالجنس ، ولهذا كانت ضرورة التكافل بين الرجل والمرأة قاضية بالتعاون التام بينهما القائم على اساس تخصص كل في اعماله واعبائه بحيث يحىء من مجموعهما وحدة كاملة في حياتها وعيشها واهدافها على اساس وطيد من النظام والانسيجام .

والإسلام وهو دين الفطرة الذي أنزله مبدع الكائنات ، وبارئ السمات ، لم يكن منه الا رعاية هذه المفارقات لخير الطرفين على السواء ، فسان المرأة ورعاها فتاة وزوجة وأمّاً ، وأوجب لها من الحقوق الشيء الكثير على الرجل والمجتمع ، فرضا لازما ، وحقا مقضيا ، لاصدقة ولا تفضلا ، كفء ما تقوم به من اعباء ، وما تهض به من تبعات لا ينهض بها الرجل ، ولا تكون بغيرها الحياة .

المسرة والدعوة

ظهرت المرأة في ساحة الإسلام منذ اللحظة الأولى عاملاً إيجابياً له أثره البالغ فيه ، ثم لم يزل ذلك الأثر واضحاً بارزاً حتى أتم الله دينه ، وأكمل يقينه ، وارتفعت راية الإسلام وعلت كلمته في العالمين .

وإذا كانت المرأة المسلمة لها سجلها الحافل في تأييد هذا الدين ، ورفع قواعده ، فللمرأة الكافرة موقفها الإيجابي في مناوآته ومعاداته منذ كان دعوة ناشئة ، إلى أن صار أمة ناهضة تحمل المهند في وجوه الصادين عنه ، حتى شرح الله صدرها للإسلام فاجتذب قلبها فيمن اجتذب ، أو تمادت في عنادها فقضى عليها فيمن قضى وستابع هذا الجهاد في مراحل مختلفة .

وأول ما يلفت النظر في هذا السبيل ، بل ويملاً القلب إعجاباً وروعة ، هو الموقف الجليل من سيدة الإسلام الأولى ، تلك التي استقبلت الدعوة فجراً صادقاً لم ينبج نوراً ؛ ولم يستبين بعد ضياؤه ، بل لم يطمئن الرسول نفسه إلى هدف ذلك النور ومبتغاه ؛ فها هو ذا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وقد أتاه جبريل بحراء يبلغه آيات من القرآن الكريم ويتلو عليه قول الله سبحانه « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، فيرجع بها وفؤاده يرجف ، يقص على زوجته ما رأى ، ويقول : « والله لقد خشيت على نفسي ، فتش له وتبش ، وتبصر بظهر الغيب ما يمكن أن يكون لمثل ذلك الرجل الذي اصطفاه مولاه فصفاه ، وأدبه فأحسن تأديبه وصنعه على عينه ، وجمله بالخلق العظيم والخالق الوسيم والحكمة البالغة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته تقول له : « كلا والله لا يخزيك

الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ، أبشر يا بن عم واثبت ، ثم لم يكفها ذلك حتى تنطلق معه الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان امرأ كبيراً مجرباً ، تنصر وقرأ من الكتاب ما شاء الله فقالت يا بن عم اسمع من ابن أخيك ، فسمع ورقة منه ، ثم بشره بأنه النبي المنتظر ، وأن هذا هو الناموس الاكبر الذي انزله الله على موسى ، وتمنى أن لو امتدت حياته لينصر النبي .

بل مالنا لانمد أبصارنا وقلوبنا الى ما قبل ذلك لنعلم أن موقف خديجة أعمق من ذلك في حياة الاسلام وأبعد . لقد كان ربك يُعد نبيه أكمل الاعداد لحمل الأمانة العظمى ، والرسالة الخاتمة ، وكانت خديجة أكبر معين للرسول في هذه الفترة الهامة ، ترعى له بيته وولده ، وتهبى له الجواهر الهادية السعيد ، وتعد له زادا ليخلو بغار حراء ، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، ثم يرجع لاهله فيتزود لمثلها ، الى أن جاءه الملك . فكانت رضى الله عنها أول من آمن به ﷺ وكانت سكنه وملاذه من جهاد قومه ، وكانت سند الدعوة بمالها وجاهها حتى استحققت أن يقرئها جبريل السلام من الله الكريم مبشراً إياها ببیت فی الجنة من قصب (١) الى ان اختارها الله لجواره .

يدعو الرسول الى ربه ، ويعلم على قریش دعوته ، ويؤمن بها من شرح الله صدره للاسلام من الرجال والنساء ، وتفاتن قریش في الصد عن دين الله ، وتبلغ من أذى المسلمين ما يبلغ الحياة نفسها ، ويشاء الله ان تكون المرأة أول الشهداء في الاسلام ، فهذه ام عمار بن ياسر في يد جلاذيتها ليفتنوها عن دينها ، فتأبى حتى تقضى نحبها ، وتفارق الحياة مؤمنة برب الحياة .

(١) البخارى وغيره - والقصب هنا هو الدّر الرطب المرصع بالياقوت

تلك وغيرها من المسلمات كثيرات يحتمل العذاب الوانا ؛ فلا يصدهن ذلك عن دينهن . ويفيض الأذى حتى يجاوز كل حد ، ويحزن الرسول اشفاقا على اصحابه ، ويُشير عليهم بالهجرة قائلا : « لو خرجتم الى الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد ... حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه ... فيخرج المسلمون بدينهم مهاجرين ، يبلغون نيفا وثمانين ومن بينهم ثمان عشرة امرأة .

وهذه الفترة من الدعوة ، فترة الصبر والتحمل والثبات ، لاتقف المرأة المسلمة الموقف السلبي صابرة محتسبة فحسب ، بل تكون داعية ومؤيدة ، فذاتك بطلان من ابطال الاسلام اقاما على دين القوم حينما حتى اذا شاء ربك أن يُعزهما بالاسلام ويُعزّيهما الإسلام هيا لهما المرأة لتدفعهما اليه دفعا .

أما أولهما فصقر قريش وعم الرسول حمزة بن عبد المطلب

حدث ابن هشام وغيره ان أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ فأذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ، ثم انصرف عنه ، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحا قوسه ، راجعا من قنص له ، وكان اذا رجع من قنصه لم يصل إلى اهله حتى يطوف بالكعبة ؛ وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم عليه وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش وأشد شيكامة فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ الى بيته فقالت له : يا أبا عمارة لو رأيت مالتى ابن أخيك محمد أنفا من ابن الحكم بن هشام !! وجده هنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته فخرج يسعى ولم يقف على أحد

مُبعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشججه شجعة منكرة ثم قال له : أتشتمه فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد على ذلك إن استطعت . فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل دعوا أبا عمارة فإني والله سببت ابن أخيه سبا قبيحا ، وتم حمزة رضى الله عنه على اسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله من قوله .

قال ابن اسحق : فلما اسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه . وأما ثاني البطلين فعمربن الخطاب ، وكان من أشد الناس إيذاء للمسلمين ، فلما أراد الله له الهدى جاءه ذلك على يد امرأة من خاصته .

حدث ابن اسحاق قال : خرج عمر يوم ما متوشحا بسيفه - وذلك بعد خروج من هاجر الى الحبشة - يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه ذكروا له انهم اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من اربعين من بين رجال ونساء .. وفيهم حمزة وابو بكر وعلى .. فاليه نعيم بن عبد الله وكان مسلما يستخفى باسلامه فقال له : اين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد هذا الصابي الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الارض وقد قتلت محمدا ؟ افلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال وأى أهل بيتي ؟ قال : خنتك وابن عمك سعيد بن زيد واختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلمها وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما - قال : فرجع عمر الى اخته وخنته وعندهما خباب بن الارت معه صحيفة فيها د طه ، يقرئهما اياها ، فلما

سمعوا حس عمر تغيب خباب في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهزيمة التي سمعت ؟ قال له ما سمعت شيئا قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه اخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضر بها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدالك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لاخته : اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون أنا أنظر هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر كاتبها فقالت له أخته انا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي وحلف لها بألته ليردنها اذا قرأها اليها ، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه وقالت : يا أخى إنك نجس على شركك ، وانه لا يمسه الا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل فاعطته الصحيفة ، فلما قرأ صدرا منها قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خباب خرج اليه فقال يا عمر انى لأرجو ان يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فاني سمعته امس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام او بعمر بن الخطاب فانه الله يا عمر فقال عمر فدنى يا خباب على محمد حتى آتاه فأسلم . . . فلما اسلم عمر سبر رسول الله وكبر بتكبيره المسلمون

وكذلك كانت اخت عدى بن حاتم الطائي داعيته الى الإسلام في خبر

طويل (١)

وكان من النساء من تسلم وإن تأخر زوجها ومنهن من تدعو الى هذا الدين تعلن ذلك ان استطاعت او تخفيه

فأم سليم بنت ملحان الانصارية تسلم مع السابقين ، فيغضب زوجها مالك ، ويخرج الى الشام فيموت هناك . ولما خطبها ابو طلحة وكان مشركا تقول له : أأنت تعلم ان أهلك الذي تعبدت من الأرض ؟ قال : بلى ، فتقول ألا تستحي ؟ أتعبد شجرة ؟ إن أسلمت فاني لا أريد منك صداقا غيره ، فيقول لها حتى أنظر في امري ، فيذهب ويحيى مسلما . فتقول لابنها أنس زوج أبا طلحة (١) وقريب من هذه تلك التي يخطبها الرجل فتأني عليه حتى يهاجر ، وبها عرف وسمى مهاجرا أم قيس .

وام شريك القرشيye العامرية وقع الاسلام في قلبها وهي بمكة فجعلت تدخل على نساء قريش وترغبهن في الإسلام حتى ظهر امرها لأهل مكة فأخذوها واوثقوها ، وساموها صنوفا من العذاب ، قائلين لها لولا مكان قومك لفعلنا بك وفعلنا بك ولكننا سنردك اليهم (٢)

يقابل هذه الصفحة المشركة التي سطرتها المرأة المسلمة في هذا الدور من تاريخ الإسلام ، صفحة أخرى للمرأة المشركة في صدها عن دين الله وصرفها الناس عنه واذاها النبي والمؤمنين ، وأبرز أولئك النسوة تلك الشقية التي برعت في حمل الشوك والأذى تلقيه على منزل الرسول ﷺ وفي طريقه ، وكانت أجدر بمواساته ومؤازرته ، تلك هي زوجة ابني لهب ، عم الرسول ﷺ والتي عبر عنها القرآن بحمالة الخطب في جيدها جبل من مسد وصورة اخف من هذه ، أم تحاول صرف ابنها البار بها عن الإسلام باعزازها الصيام حتى الممات ان لم يرجع عن الدين الجديد .

(١) الاصابة لابن حجر ج ٨ ص ٢٤٣

(٢) ابن الاثير في أسد الغابة - وابن حجر في الاصابة .

روى ابن كثير في تفسيره عن الطبري بسنده عن سعد بن مالك قال :
انزلت في " هذه الآية " وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا
تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا . . . ، قال : كنت رجلا برا بأبي فلما
اسلمت قالت : ما هذا الذي أراك قد أحدثت ، لتدعن دينك هذا أولا آكل
ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال يا قاتل أمه ، فقلت : لا تفعل يا أمه فاني
لا أدع ديني هذا لشيء ، فكشيت يوما وليلة لا تأكل فأصبحت قد جهدت
فكشيت . . . حتى آمنت ثلاثا فلما رأيت ذلك قلت لها يا أمه تعلمين والله لو
كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء فكلتي ، وإن
شئت لا تأكلتي . فأكلت .

كذلك امرأة رافع بن سنان تحاول صرف بنتها عن الإسلام حيث أسلم
رافع ولم تسلم المرأة فجاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت : إن أبا الحكم أخذ
ابنتي ومنعنيها ، فأمر رسول الله ﷺ أبا الحكم فجلس ناحية وأمر المرأة
فجلست ناحية ووضع الجارية بينهما وقال . أدعواها فمالت إلى أمها فقال رسول
الله ﷺ اللهم اهداها فمالت إلى أبيها فأخذها (١) .

وفي المرحلة الثانية مرحلة الإعداد لترك مكة الظالمة ، بعد إذ طال أمد
الدعوة ولم يعد في البقاء بمكة من رجاء يرتجى ، يحى ستة نفر من أهل المدينة
فيؤمنون ، ثم يتواعدون العام القابل فيزيد عددهم إلى اثني عشر رجلا فيؤمنون
ويبايعون على ألا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يأتوا بهتان
يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوا في معروف ، فمن وفى فلا الجنة ومن
أصاب من ذلك شيئا فأمره الى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب ،
وتعرف هذه البيعة بعد بيعة النساء لأنها على غرار البيعة المذكورة في سورة

المتحنة: «يايها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على ألا يشركن بالله شيئا...»
 فإذا كان العام الذي يليه حضر كثيرون ، يجتمع مع الرسول منهم ليلا
 بضع وسبعون رجلا وامرأتان من المسلمين فيبائعهم ويباعونه على النصر
 والجهاد (في خبر طويل) ثم تبجى المرأتان تريدان المبايعة ، وكانت للرجال
 مصافحة فيقول لهما الرسول قد بايعتكما على ما بايعت الرجال عليه غير أني لا
 أصافح النساء . رواه ابن حجر وابن هشام وغيرهما وتسمى هذه بيعة العقبة الثانية
 قال ابن الأثير : (في الكامل ج ٢) « وكانت البيعة في هذه العقبة على غير
 الشروط في العقبة الأولى ، فإن الأولى كانت على بيعة النساء ، وهذه البيعة كانت
 على حرب الأحمر والأسود » .

ويقوى ساعد الإسلام بأنصاره الجدد ، فعنف القرشيون
 في مقاومته ، ويضاعفون الأذى والأعنات حتى يأذن رسول الله
 ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة فيكون أول خارج رجل وامرأته وطفلهما
 ذاك أبو سلمة وزوجه ، تقول أم سلمة : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة
 رحل لي بعيره ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة في حجرى ، ثم خرج
 يقود بي بعيره ، فلما رأته رجال بني المخيرة بن عبد الله بن مخزوم قاموا إليه
 فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، رأيت صاحبنا هذه علام نتركك تسير بها في
 البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه ، قالت : وغضب عند
 ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة قالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ
 نزعتموها من صاحبنا قالت : فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق
 به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المخيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى
 المدينة ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني ، فكنت أخرج كل غداة فأجلس
 بالأبطح فما أزال أبكي حتى أمسى ، سنة أو قريبا منها ، فمر بي رجل من بني عى
 فرحمني ... فقالوا الحق بزواجك ، ورد بنو عبد الأسد إلى ابني فارتحلت

بعيرى ، ثم أخذت ابني ووضعته فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله ... حتى لقيها عثمان بن طلحة فأوصاها المدينة فكانت تقول والله ما أعلم أهل بيت أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة (١)

ويموت زوجها وهى بالمدينة ، وتكون خير مكافأة لها على جسيم تضحياتها ان تصير إحدى أمهات المؤمنين .

ويستقر الرسول وصحبه بالمدينة وتوضع اللبنة الأولى فى صرح الدولة الناشئة ويصطدم الإيمان بالكفر ، ويجمع الله بينهما فى صعيد واحد ، حيث يلتقيان بيدى على غير موعد ، «ولو تواعدتم لاختلقتم فى الميعاد ، وينتصف الحق من الباطل ، وتأخذ سيوف المسلمين برقاب الكافرين ، ويكسبون حتى يموت بعضهم كمدأ على قتلى بدر ويضمون الصدور على إحن أشد حلولة من السرار ، ويسكظمون الغيظ إلى أن يأخذوا بثأرهم ، ولنبي فلذة كسبد بينهم أفلا يشتفون منها ؟ لقد كانت زينب بنت الرسول بمكة تحت العاص بن خالتها لم يفرق الإسلام بينهما ، فلما همت بالهجرة أخفت أمرها ، وأحسّت بذلك هند بنت عتبة .. وهى الشكلى فى أبيها وعمها وأخيها ، فذهبت إلى زينب تعرض عليها العون والرفد من متاع ومال ، قائلة إنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال ، وتقول زينب : والله ما أراها قالت إلا لتفعل ، ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أردت الخروج - ثم خرجت زينب محتفية ومعها حموها ، وتتابع رجال يمنعونها فروعت حتى ألقت ما فى بطنها ، فجاءت هند مسرعة إلى أولئك الذين خرجوا إلى زينب وأسمعتهم قارص اللوم والتوبيخ وأنشدتهم :

أفى السلم أعياراً جفءاً وغلاظة وفى الحرب أشباه النساء العوارك (٢)

(١) ابن هشام . (٢) الأعيار : الخمر ، والنساء العوارك الحيف

ثم تمضى روية الكفاح منشورة ، وتقوم المعارك بين المسلمين والمشركين وتثار قریش من المسلمين فى أحد ، وتهاجم الدعوة فى مقرها الجديد بغية استئصالها فى الخندق فترتد عنها حسيرة ، ويجزى الإسلام اليهود بلؤمهم ونقضهم الميثاق فى قريظة والنضير ، ويجىء عهد الحديبية ثم فتح مكة ويليه حنين والطائف ، والمرأة فى ذلك كله لم تغب عن مشهد واحد من مشاهدہ ، بل كان لها فى بعضها ما فاق مواقف الرجال ، وُعد فى بطولة الأبطال ، وأبرز ما يكون ذلك إذا حزب الأمر ، وفدح الخطب ، وطاشت الأحلام وتكشفت الأمور عن المعادن الزاكية من النساء والرجال .

فهذه موقعة أحد والمرأة فيها تقوم بدورها الطبيعى من سقاية الماء وتضميد الجروح ، وخدمة المحاربين ، ولكن لواء المشركين يسقط فلا يجد من يحمله لكثرة من قتل دونه ، فلم يزل صريعاً على حد تعبير ابن اسحاق — حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقریش فلا ثوابه (٢) .

وينكشف ظهر المسلمين بانصراف الرماة إلى الغنime ظانين الموقعة انتهت مخالفين وصاة الرسول ﷺ لهم فتسبح الفرصة لخالد بن الوليد فى خيالة أن يباغت المسلمين من خلفهم ، فتختل صفوفهم ويضطرب أمرهم ، وتبلغ بهم المفاجأة أن يفروا لا يلوون على شىء ، ويثبت رسول الله ﷺ ونفر من صحبه قليل ، ويعظم الكرب ويهول ، فتقدم أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية وتخوض المعركة وتضرب بالسيف وترمى عن القوس ، وتغنى ما لا يغنى الرجال ويدعو لها الرسول ، ولزوجها ، وولدها ، ويقول : ما التفت يمينا أو شمالا إلا ورأيت أم عمارة ، ولمقام أمك — يخاطب ابنها — خير من مقام فلان وفلان . بل لم تكن المرأة المسلمة التى قعدت فى بيتها ، ولم تخرج إلى الحرب بأقل

أثرا ، وأوهن خطرا من هذه التي خرجت ابتغاء مرضاة الله ، فاسمع إلى ما يرويه ابن اسحق بسنده قال : مر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما نعوها لها قالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيرا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين ، قالت أرونيه حتى أنظر إليه ، قال فاشير لها إليه حتى إذا رآته قالت : كل مصيبة بعدك جلل تريد صغيرة (١) .

فأى امرأة تلك التي تنصر الإسلام بزوجها وأخيها وأبيها ، وكل ذلك عندها في جنب الله يسير ؟ بل أى عبارة تستطيع الوفاء بحقها من التمجيد والتقدير ؟ وفى الخندق قتلت صفية بنت عبد المطلب جاسوسا يهوديا كان يتسمع على حرم المسلمين .

وحضرت النسوة خيبر ، وأعطاهن الرسول حظهن من الفداء ، وشهدت الحديبية ، وقد فدح المسلمين أمر الصلح حتى لم يشاءوا أن يحلوا من إحرامهم بعد أن أمرهم الرسول ثلاثا ، فدخل إلى زوجته أم سلمة ويقول : هلك المسلمون ، ويخبرها الخبر ، فشير عليه بأن يخرج فلا يكلم أحدا حتى يحلق وينحر أمامهم ، وما أن يراه المسلمون حتى يتواثبوا إلى القدوة برسول الله ﷺ . وفى الفتح : يقبل الإسلام على مكة فى قوته وصولته ، ويروع أبا سفيان رئيس قريش ما يرى ثم يرجع بالأمان إلى قومه ، كاشفاهم عن قوى المسلمين قائلا يا معشر قريش : هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فتقوم إليه هند بنت عتبة زوجه ، وتأخذ بشاربه وتقول : اقتلوا الحميت الدسم (٢) 'قبح من طليعة قوم ، فيقول أبو سفيان ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم

(١) ج ٣ ص ١٥ (٢) الحميت أءله زق السمن تريد تشبيهه به لضخامته

ما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن — قالوا : قاتلك الله ، وما
تغني عنا دارك ؟ قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ،
فنفرك الناس إلى دورهم والمسجد ،

ويفتح الله مكة على المسلمين ويعم الأمان كل من ألقى سلاحه وسالم ،
ما عدا افرادا يهدر دمه من النساء والرجال لشناعة جرائمهم ، وتجيء هند تائبة
مستغفرة بعد أن رأت من نصر الله ما رأت ، وشاهدت من عبادة المسلمين ماملاً
قلبها إعجاباً ، فيعفو النبي عنها ويصفح ، وتبايع فيمن بايع .

ويهرب فريق من الرجال ، فتأتى نسوة تستأمن لهم ، وتسال الرسول العفو
فيعفو ، وتلحق ام حكيم بنت الحارث بن هشام زوجها عكرمة بن أبي جهل وقد
فر إلى اليمن فتجيء به تائباً فلما أسلم أقر على نكاحها

وفي الفتح تبرز للمرأة مواقف أخرى جديدة بالتسجيل ، فهذه هي المرأة المسلمة
تجبر ويمضي الرسول جوارها فقد استجار بأمر هانيء رجل من أمهاتها فأجارتها ، فجاء
على كرم الله وجهه يريد قتله فمنعته منه وحأكمته إلى رسول الله ﷺ قائلة له
زعم ابن أمي انه قاتل رجلاً قد أجرته ، فلان ابن هيرة فقال رسول الله ﷺ
قد أجرنا من أجرته يا أم هانيء . رواه البخاري وغيره .

ولم يك جهاد المرأة ذلك خاصاً بالعهد النبوي ، فلقد خرجت المرأة مجاهدة
في عصر الخلفاء الراشدين ، خرجت لقتال المرتدين ، تؤدي واجبها في خدمة
الجيش حتى إذا تخرج الموقف ، وعظم الخطب ، وزالت الأقدام ، وقدمت الرقاب
وتطايرت الهام ، رأيت من أولئك النسوة من اقتحمت العجاج ، وحاضت لجنة
القتال وصارعت الكماة والأبطال ؛ فأم عمارة تكون مع المسلمين في حرب
اليامة ويقتل ابنها ، فتأخذ السيف ، وتقسم ألا ترجع حتى يقتل مسيلمة أو تموت

دون ذلك ويرى الله قسمها ويهزم الجمع ويصرع الكذاب مسيلمة، ويصيبها اثنا عشر جرحاً وتقطع يدها، حتى إذا عادت إلى المدينة يجيئها خليفته المسلمين أبو بكر يواسيها في ابنها ويدها، فنقول: وأى شيء هذا إنه في رضا الله يسير

وتأتى الفتوح الكبرى في العراق وفارس والروم، والمرأة تؤدى واجبها أكمل الأداء، وتبلى أجمل البلاء، وتذكى عزائم الرجال، وكثيراً ما يضطرها الحال إلى مباشرة القتال، كما فى القادسية واليرموك فتأتى بالعجب العجيب، غير هيابة ولا وجلّة، ولا مباهية أو محتالة، وربما كانت منتقبة لا يعرف أى رجل أم امرأة.

ويمضى عهد أنى بكر، ويحىء عهد عثمان ومعاريه على الشام، وتغزو المرأة فيمن غزا ملوكاً على الأسيرة تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ.

حدث البخارى ومسلم وهذا لفظ مسلم: عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان (وكانت إحدى خالاته من الرضاع) فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً فاطعمته، ثم جلست تكفلى رأسه فنام... ثم استيقظ وهو يضحك قالت: فقلت ما يضحك يا رسول الله؟ قال: أناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله، يركبون ثبَاج هذا البحر ملوكاً على الأسيرة، أو مثل الملوك على الأسيرة يشك أيهما قال، قالت: فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك قالت: فقلت ما يضحك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله كما قال فى الأولى قالت فقلت يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم قال أنت من الأولين.

فركبت أم حرام بنت ملحان البحر زمن معاوية (١) فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت ولم تكن الوحيدة من النساء بل معها كثيرات غيرها .

كذلك لم تنفض المرأة يدها من المشا كل الكبرى والأحداث الجسام ، التي أملت بالأمة الإسلامية أواخر أيام عثمان ، وزمن علي ومعاوية ، وموقف عائشة في الجمل معروف ، وموقف غيرها من نساء المؤمنين في صفين ونصرهن عليا معروف كذلك ، وثباتهن على الولاء له بعد انقضاء عهده ، وما جرى بين بعضهن وبين معاوية لما يثير الدهشة ويضاعف الإعجاب .

هذا : وموقف المرأة المسلمة في تأييد هذا الدين وإعلاء رايته ، يذكر بموقف المرأة المعادية ومساماتها الرجل في الكيد له ، والتربص به ، والافتراء عليه - كما أشرنا إلى بعضه سابقا - فمن نسوة قاومت الدعوة بأيديهن وأفعالهن ، إلى أخريات قاومت بألسنتهن وأشعارهن ، وكما تنبأ رجال وحاولوا التشبه بالرسول واستهوا أقوامهم بحيل وأكاذيب كذلك صنعت المرأة ، فتنبأت وقادت قومها فسياسة الكذاب في اليمامة وطليحة الأسدي في بني أسد ، كذلك سيجاح التيمية لم يأنف قومها بنو تميم أن ينقادوا لها ، ويحاربوا تحت لوائها .

حتى قضى الإسلام على جميع منائيه ، وانتظم عقده البلاد العربية ، واندفع نوره يسرى بين الأحياء ، ويغمر سائر الأرجاء ، ويدحر فيالق الظلماء ، والمرأة المسلمة في ذلك كله منبع الخير ، ومصدر البركات ، ومصنع البطولات لا تني تصنع الصناديد ، وتبعث بالأشبال الصياد ، إلى كل جبار عنيد .

١ قال النووي : اختلف العلماء متى جرت الغزوة التي توفيت فيها أم حرام في البحر وهل هي في لاية معاوية على الشام زمن عثمان أو في خلافة معاوية نفسه ؟ وقال ابن الأثير من ترجمتها في اسد الغابة : وكان امير ذلك الجيش معاوية زمن عثمان وذلك سنة سبع وعشرين . وذكر مثل ذلك ابن خلدون في تاريخه .

مكانة المرأة في الإسلام

رأينا في الفصل السابق كيف أن المرأة استقبلت الدعوة الإسلامية في أول عهدها فجرا صادقا لم يشع بعد سنه ، وبرزت في أدوار الإسلام كلها مؤيدة وناصرة ، أو جاحدة مكابرة ، لا يخفى أثرها على الحالتين ، ولا يُجحد خطرهما في الجانبين ، حتى تأذن الله لنور الحق بالعُكْب ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وظهر على الدين كله ، ولو كره الكافرون .

ونريد الآن أن نتبين مركز المرأة في هذا الإسلام ، ومكانتها منه ، وهي التي لم تبخل عليه بجهودها وجهادها ، واحتملت من أجله التضحيات الجسام في نفسها ومالها ، وبنيتها وآلها ، طيبة النفس ، راضية الفؤاد ، مستزيدة من الأعباء ، مقبلة غير مدبرة ، ترى هل قامت بذلك كله للإسلام عن طيب خاطر ، وهو ينتقصها ويمتنعها ، ويحرمها بعض حقوقها ؟ وهل هو يكرم الرجل ويحاييه إذ يجعل له درجة ، ويبيح له من الزوجات ثلث ورباع ، ويجعل العصمة بيده ، ويضاعف حظه من الميراث ، ويعتبر شهادة الرجل أحيانا بشهادة امرأتين ، ويجعل البيت مقرها ؟ .

أيصنع الإسلام ذلك وغيره كرامة للرجل وإيثارا لأنه آثرُ لديه ، وأكرم عليه ؟ .

أم نقول في ذلك : إنه أنصف المرأة وأكرمها ، ورفع شأنها ، وحماها من ضيم كثير كان واقعا عليها ولاحقا بها ، فأعلى منزلتها درجات ، ورفع عنها إذيات ، وأزال شكايات ، ثم نذهب نعد ما في المفارقات من حكم عالية ، ومعان جلية ، وتقارن بين حالها الجديد وبين ما كانت عليه من قبل ، لنعرف التفاوت

الكبير ، وأثر الإصلاح الإسلامى فى الأسرة والمجتمع ؟ .

وفى الحق ليس يعنينا كثيرا أن نقارن بين ما كانت عليه المرأة فى الجاهلية وما صارت إليه فى الإسلام ، وإن كانت الأشياء بضدها تتمايز ، فالأمر كما قال القائل :

ألم تر أن السيف يُزرى بقدرة إذا قيل هذا السيف خير من العصا
ذلك أن أية دعوة إصلاحية موفقة ستأتى إلى القائض الموجودة فى المجتمع
وأدوائه المتفشية فيه ، فتعالجها بما ينبغى أن تعالج به ، لتقضى عليها ، وتتخذ
غيرها خيرا منها ولكن الإسلام حينما جاء إلى العرب يضم شتاتهم ، ويجمع
شملهم ، ويوحد قلوبهم وأهدافهم ، ويعالج نقائصهم وأمراضهم ، لم يكن شأنه
شأن أية دعوة إصلاحية أخرى ، يمنع مظالم قائمة ، أو يعالج داء محليا ، أو يقرر
قاعدة مؤقتة ، أو ينشئ أمة على غرار ما نشأ من أمم سابقة ألاحقة . . . إنما
كان أعمق من ذلك وأقوى ، وكان أعم وأشمل .

الإسلام هو الحق الاول والآخر :

جاء الإسلام يقرر أنه دين الله الذى أنزله إلى الأنبياء جميعا ، وأنه هداية
الذى أوحى به إلى عباده على لسان رسله ، شرع فيه ما وصى به نوحا وإبراهيم
وموسى وعيسى وأخوانهم المكرمين ، فكان مصدقا لما سبقه من كتاب
ومهيما عليه ، كاشفا ما لحق به من زيف المبطلين وباطل الخطأئين ، راداً
للناس إلى الفطرة الأولى ، فطرة الحق والخير والعدالة .

وفى القرآن الكريم : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من
الكتاب ، ومُهيّئنا عليه ، ويقول سبحانه بعد ذكر طائفة من النبيين
« أولئك الذين هدى الله » ، فبهدهم اقتده » .

ويقول الرسول الكريم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، ويقول أيضا
مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ ،
فَكَانَ مِنْ دَخْلِهَا فَظَرَ إِلَيْهَا : قَالَ مَا أَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبَنَةِ ، فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبَنَةِ
خَتَمُ بَنِي الْأَنْبِيَاءِ ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . (١)

فالإسلام يقرر الحق الأول ، ويرد الناس إليه ، وينقيه من شوائب الأوهام ،
ويطهره مما لحق به من الضلال والبهتان ، ويكمل ذلك البناء الشامخ من دين الله
وهده ، ليكون مقر السعادة للإنسانية ، وحصن النجاة للبشرية ، وتمام النعمة
لقاطنيه ومجاوريه ، وكان غرة ذلك كله « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت
عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً .

جاءت هداية الإسلام إلى الناس كافة ، يخاطب الرجال منهم والنساء على
السواء ، يصلهم جميعاً بأصل واحد نشأوا منه ، وتفرعوا عنه « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا
رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا
كَثِيرًا وَنِسَاءً .

لا فضل لأحد على آخر إلا بعمله الصالح وتقواه « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ
وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاهُ ، .
يلفت أنظار الجميع إلى عبادة الواحد الأحد ، وينعى عليهم جهلهم وشرهم
وضلالهم ، فيؤمن به رجال ونساء ، ويكفر به رجال ونساء ، ولكل نفس ما
كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، لا تزر وازرة وزر أخرى ، بل توفي كل
نفس ما عملت « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ

يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيرا، فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض...،

وفي الحديث : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الأعظم الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهى مسئولة عن رعيته .. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، (١) .

وذروة ذلك كله هذا النسق البديع فى كتاب الله سبحانه ، حيث ساوت المرأة الرجل فى أجمل صفاته ، وأكمل حالاته ، فتم لها ماتم له من كرامة وفضل وأجر عظيم . قال الله تعالى : «إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما .

إلى هنا قد اكتملت شخصية المرأة فى الإسلام كما اكتملت شخصية الرجل سواء بسواء ، فاذا تفاوتت التبعات ، أو تنوعت الحقوق والواجبات فلتفاوت الفريقين . ولتنوع الأعباء التى هبى لها كل من الجنسين : « وكل ميسر لما خلق له ، .

وإذا قرر الإسلام فى عمقه وقوته . وشموله وأصالته ، علاقة المرأة بالرجل وعلاقة كل منهما بالمجتمع والحياة ، فهو قرار الفطرة البشرية بمن فطرها ، وهو منطق الحياة من خالق الحياة لا يزيغ ولا يحيد ، ما دام الرجل رجلا ، والمرأة

مرأة ، سواء في ذلك أن تكون الحياة بدائية يسعى الرجل فيها على قوته وقوت عياله ، والمرأة في بيتها تعمل بمغزها في ثيابها وثياب زوجها وبنيتها ، وأن تسير الحياة أشواطاً طويلاً ، وتقطع من عمرها أجيالاً وأجيالاً ، وتطير المرأة في السماء ، وتغوص في لجة الماء ، وتعلو قمم الجبال ، تلاحق الرجل وتسابقه ، فهي كما هي ، حواء آدم «خلقكم من نفس واحدة» ، وخلق منها زوجها ، والإسلام هو الإسلام ، عام وعالم ، لا يتغير ولا ينبغي له إلا أن تتغير الفطر ، وتحول الطبائع ، وتتبدل نواميس الوجود .

لقد وضع الإسلام الرجل موضعه ، وأنزل المرأة منزلتها ، ورسم لها طريقاً واضحاً لا عوج فيها ولا التواء ، وفتح لها معاً أبواب المثل العليا عملياً ، وأخذ بأيديهما سعيًا حثيثاً إليها ليصل بهما إلى ذروة ما قدر لهما من سمو ورفعة ونجاح وسرى بعون الله تفصيل ذلك الإجمال فيما يلي من فصول .

اقامة البيت المسلم

تنشأ الفتاة الصغيرة في رحاب أبويها كما ينشأ الفتى أخوها ، ولها من العناية والرعاية مثل الذي له ، حتى إذا تهيأت لدورها الطبيعي في الحياة ، وكانت قادرة على إنشاء بيت جديد مع زوج لها ، استشارها أبوها في شريك حياتها ، ولم تنتقل حتى تأذن في أمرها ، فإن كانت حديثة السن لا خبرة لها زوجها أبوها بأذنها ، وإن كانت رشيدة عاقلة ، فهي أحق بنفسها من وليها ، وليس له اعتراض عليها ، إلا أن يكون رأياً يبيده ، أو نصيحة يذلها مالم تسرف في حقها ، وتندفع إلى الزوج بمن يشينها ، ويسىء إلى مركزها ، أو مركز أسرته كما لو كان الرجل غير مرضى الدين والأمانة ، فلمهم حينئذ أن يباشروا حقهم في حمايتها . بل كان واجبهم أن يصونوها من نزواتها ، ويحفظوها من عواقب شططها .

انظر الى هدى الدين في اقامة بيت الزوجية ، وكيف شرع الرسول ﷺ لمن شاء الزواج من امرأة أن ينظر اليها ، ويرى منها في حدود الصيانة والكرامة ما يرغب فيها او يباعد عنها حتى يكون من أمره على بينة ، فلما جاءته المرأة الواهة تعرض نفسها عليه صعد فيها النظر وصوبه ثم أطرق . فتقدم لخطبتها أحد الحاضرين في حديث طويل رواه البخارى وغيره . وتولى النبي أمرها . وفى الحديث : « إذا ألقى الله عز وجل فى قلب امرئ خطبة امرأة فلا بأس ان ينظر اليها » (١)

بل يطلب ذلك صريحا مبينا الحكمة فيه ، حيث يقول للبخيرة بن شعبة وقد خطب امرأة : انظر اليها فانه أحرى أن يؤدَمَ بينكما ، (٢)

والى جانب ذلك يجعل للمرأة اختيار زوجها ، ويرد نكاحها ان افتات أحد على حقها فيقول : « لا تُنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن ، قالوا يارسول الله وكيف أذننا ؟ قال أن تسكت » (٣) ويقول : الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن فى نفسها . ، (٤)

ولقد علمت المرأة هذا جيدا ، على عهد الرسول ﷺ ، وحافظت على حقها كما تحافظ على أداء واجبها ، فلقد روى ابن ماجة واحمد والنسائي أن فتاة جاءت الى رسول الله ﷺ تقول : « إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بنى خسيسته . قال : فجعل الأمر اليها ، فقالت قد أجزت ما صنع أبى ولكنى أردت أن أعلم النساء أن ليس الى الآباء من الأمر شيء — تعنى ان

١ رواه احمد وابن ماجة ٢ رواه الخمسة الا ابا داود ٣ رواه البخارى وغيره

٤ رواه الجماعة الا البخارى قاله صاحب نيل الاوطار

ليس لهم اكرههن على ما لم يردن ، (١)

وبهذا جمع الاسلام لخير الاسرة بين رضا الآباء والأولياء بغير طغيان أو استبداد ، ورضا الزوجة وعصمتها من الشطط ، وأرشد الرجل الى اختيار زوجته لأنها موضع سره ، وأمانة غيبه ، وحافظة بيته فقال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم ، وقال شارحا الدوافع المرغبة في المرأة عادة ، مرشدا الى أفضلها وأولاهها بالتقديم : 'تنكح المرأة لأربع : لما لها ، ولجملها ، ولحسبها ، ولدينها فافظر بذات الدين تربت يداك .

وزيادة في رعاية الاسرة واحتياطاً لأمرها جعل لمن غرته صاحبه من الزوجين على السواء فآخفى من العيوب والأمراض الخطيرة ما لا يستقيم الزواج معه ، أو تحسن العشرة به ، حق الخيار في النكاح ، فإن شاء فسخ ، وللزوجة في الحالتين الصداق ، ما لم تكن هي الغارة فيترك لها أقل الصداق الشرعى .

وعلى هذا الاساس الواضح البين من التثبت والتفاهم والرضا ، ومن الأمانة والصراحة والإخلاص يقوم البيت المسلم محققاً آية الله ، راجياً معونته وتوفيقه وهداه ، شاهداً بقوله سبحانه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ،
بعد المسلمين عن منهج الدين :

وبعيد عن منهج الاسلام في اقامة الاسرة ، وارساء قواعدها ، ما عليه كثرة المسلمين من افراط أو تفريط . فمن تضيق شديد يحرم الخطيبين حقهما الشرعى في رؤية كل صاحبه ، والتعرف اليه . مبالغة في الاحتشام والأدب على ما يظنون الى تحرر وانطلاق يتيح للخطيبين العصريين اختلاطاً كاملاً في المنزل ، وفي

ارتياذ المتزهات ، ودور الخيالة والشواطيء وسواها ، مما يفتح على الشباب أبواب العواطف المشبوبة ، والحس الملهب ، والنزوات الطائشة ، وكثيرا ما تنتهى أمثال هذه العلاقات بالفواجع ، والمآسى الأليمة ، وقبلها تكون الضحية هنا غير الفتاة المسكينة .

فكان موقف الدين كالعهد به وسطا عادلا ، بعيدا عن عنيت المتعنتين ، وإسراف المسرفين ، اذ جعل لكل منهما فى حدود الصيانة والاحتشام أن يعلم من صاحبه ما يرغبه فيه أو ينفره منه ، حتى إذا آثر أمرا كان منه على بيته . ولعل من الإسراف ما ذكره صاحب كتاب « المرأة بين البيت والمجتمع » (١) عندما روى عن رسول الله ﷺ « إذا خطب أحدكم المرأة فقد أن ينظر منها بعض ما يدعو لنكاحها فليفعل » ثم حملة على ماسماه « محدودا بقيود الذوق العام وتقاليد أهل البيته » ، فللخاطب على حد تعبيره فى عصرنا الحالى ان يراها فى الملابس التى تظهر بها لأبيها وأخيها ومحارمها بلا حرج مكشوفة الرأس والذراعين .

والإسراف هنا إسراف مضاعف لأنه فى الدعوى وفى الدليل معا على عرف أهل المنطق — فقد رأى ان ظهورها للخاطب بما تظهر به لأبيها وأخيها ، وكشف الرأس والذراعين . أمر من الذوق العام وتقاليد البيته . ونحن نسائله وهو الذى يتكلم فى هذا باسم الدين : أى عموم فى هذا الذوق ، وأى بيته لتلك التقاليد؟ لى بيته الريفيين التى تضم بضعة عشر مليوناً من المصريين ، وليس ذلك من ذوقهم ولا هو من تقاليدهم . أم بيته أهل المدن ، وما يزال فيهم المحتشمون والمتصنون ، وليسوا قلة يُغض عنها الطرف أو تُطرح من الحساب ؟ .

لم يبق لهذا الذوق من عموم فيما نرى الا في بيئة الغربيين ومن على شاكلتهم
من المتغربين .

أما اسراف الاستدلال فان الدين الذى قد يسر على النساء فى الآباء والأبناء
رفعاً للخرج فى أمر مأمون العواقب لا ضير فيه ، لم يلحق الخاطب بهؤلاء
وليس الخاطب بمن يحمل بين جنبيه للمرأة قلباً كقلب الآباء والأبناء . وفى آية
النور ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يُبدن زينتهن الا لبعولتهن
أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو اخوانهن ... ،

وأحق من تحميل الحديث اعتبار الخاطب معتبر الآباء والأبناء أن نحمله
كما حملة صاحبه وأبانه بالسنة العملية التى رواها البخارى وغيره فى حديث
الواهة حيث جاءت امرأة تعرض نفسها على النبی ﷺ فصعد النظر فيها
وصوبه ثم اطرق . بل هو الحق لا سواه ، فللرجل بهذا ان ينظر لوجه
المرأة وشكلها العام فيرى ما يدعوه لنكاحها ، او يباعده منها على صيانة فى
الحالتين واحتشام ، من غير ان نفتح للشر ابوابا عكف عليها الشيطان ، يلجها
كل من حاد عن الدين ، وكان فى أمره من المسرفين .

معنى الاسلام بإقامة الاسرة وصيانتها عناية فائقة ، ورغب الرجل أن
يبتغى فى زوجته قرة عين ، فالمرأة من الرجل خلقت منه ليسكن إليها ، ويجد
راحة الأنس والمودة والرحمة بجوارها ، وهو منها غذته بلبانها ، وسقته من
دمائها . ونشأتها فى احضانها ، وأدفاته بحنانها . وزوجة الرجل أقرب شئ إلى
نفسه ، وألصقه بقلبه وحسبه . هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، وهى شريكه
حياته ، وأم بنيه وبناته ، تدير مملكته المنزلية كى يتفرغ هو لواجبه ، ساعيا
على رزقه ورزق أسرته ، محتملا فى ذلك ما يحتمل ، حتى اذا أوى الى سكته

سكن إليه ، ووجد في ظله القلب الحاني عليه ولقى من الهدوء والطمأنينة ما ينسيه آلامه ، ومتاعب أيامه ، ومشاق عيشه .

عظم الإسلام حق المرأة على رجلها ، فأوصاه بحسن عشرتها ، وجميل مودتها ، وكامل رعايتها ، وعدّ خير الرجال خيرهم لنسائهم ، وجعل النفقة على الزوجة والعيال أفضل من نفقة في سبيله ؛ ، بل استشار في الرجل كوامن العزة ، ودافع المروءة ، وأريحية الشمم فقال : « ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم » .

كما عظم حق الرجل على زوجته ، فأكد حرمة ، وأوجب طاعته ، وقدمه في ذلك على أقرب المقربين ، بل على الناس أجمعين فقال ﷺ : « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، وجعل رضا الزوج من رضا الله » أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة ،

على هذا النمط العالي من العلاقة الكريمة تمضي صلة الرجل بامرأته ، وصلة المرأة بزوجها ، وقد عرف المسلمون الأولون هذه المعاني ، وقدروها قدرها ، ورعوا الحقوق رعاية كاملة ، حتى بلغ الأمر من رجل كابن عباس أن يقول والله اني لأحب أن اتزين لامرأتى كما تزين لى ، بهذه الآية ولفظ مثل الذي عليهن بالمعروف ، وكلمة المعروف نور طرّزت به غرّة الحقوق والواجبات ، فليست العلاقة بين الزوجين مبادلة تجارية جافية تقوم على التدقيق والتحقيق والمشاحة ، إنما هي المعروف من الجانبين والرفق والبسر والمساحة .

واللر جال عليهن درجة

تُرى هل غبن الإسلام المرأة اذ جعل للرجل عليها درجة كان له بها
رياسة الحياة الزوجية ؟ ألم يكن الأقرب الى طبيعة الاسلام دين المساواة أن
يسوى بين الشريكين فيجعلهما في منزلة سواء ؟ فيرضى بذلك الغربيين والمتغربين
في هذا القرن العشرين - ولكن هل المساواة المطلقة من صالح الطرفين ؟ وهل
الطبيعة ساوت بينهما في القوى والمملكات ، وفي الاعباء والواجبات ، حتى نطالب
الإسلام برعاية هذه المساواة ؟ . .

أو أن الضرورة قاضية بوجود الرياسة في المنزل ، كضرورة الرياسة في كل
أمر ذي بال ، فللقرية رئيس ، وللمدينة رئيس ، ولكل مصلحة من المصالح
رئيس ، وللوزارة رئيس ، وللدولة رئيس . والاسلام دائماً يطلب هذه الرياسة
ويحرص عليها لتحديد المسئولية ، ولو في الأمور العارضة ، فاذا حضر اثنان
أو أكثر لصلاة الفريضة ، أتمهم واحد منهم ، وإذا خرج ثلاثة في سفر
أمروا أحدهم (١) . .

ويقضى العقل والحكمة أن تكون الرياسة لأقدرهم عليها ، وأصلحهم لها
وتفرض أمانة الاسلام ذلك وتوجهه وفيه يقول الرسول : « من ولي من أمر
المسلمين شيئاً فولي رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله
ورسوله (٢) »

ولن تكون المرأة موضع هذه الرياسة ما لم يكن ذلك نقصاً في الرئيس الطبيعي ،
لأنها بضعها الجسماني ، ومملكتها ، وغرائزها ، ووظيفتها في البيت تكلف ما
ما ليس في وسعها أن تحسن القيام به إذا أسندت إليها تلك الرياسة .

ثم هذا هو الرجل ، مالك البيت والقائم بنفقته ورعايته وحمايته ، كيف لا يكون صاحب الكلمة العليا فيه . ؟

فدرجة الرجال في الإسلام هي درجة الواقع المحسوس من عالم الأحياء ، وهي درجة تضاعف الواجبات وتزيد في الأعباء ، وهي درجة تفهم موقف المسؤولين عن أنفسهم وعن حوّلهم ، وهي درجة تصلح بها الحياة ويستقيم عليها الأمر .

إن خضوع المرأة لشريكها الرجل أمر طبيعي لا غبار عليه ، إذ لا بد للأسرة وهي المجتمع الصغير من رئيس مسئول يكون الفيصل فيما يعرض من مشا كل وأزمات . وإن هذه المسألة من الأصالة والوضوح بحيث ترى المرأة السوية لاتسرها هذه الرئاسة إن سلمت إليها ، ولا يرضيها من الرجل أن تكون مالكة أمره ، والمهيمنة عليه ، ولدينا الأمثلة من الحياة كما عند الكثيرين ولا ريب ، وهذه كاتبة انجليزية تقول : (١) لا تتعلق المرأة بالرجل الذي تديره كيف تشاء ، وما ذلك إلا لأن المرأة تعلم أنه لا يمكن الاستناد إلا إلى ما كان صلبا متينا ، فلا غرابة إذا احتقرت من كان ألعبوبة في يديها .

ويقول الاستاذ هنري ماريون (٢) في مثل هذا المعنى : فقد تبين لنا الآن ، لماذا خضعت المرأة للرجل ، وأيضا لماذا يتحتم عليها ذلك الخضوع إلى حد ، ولا انقلب النظام البشرى رأسا على عقب ، بل لو أراد البشر خلاف ذلك لكان لهم في طبيعة المرأة : في تركيبها وخلقتها ومزاجها ما يحول دون تنفيذ مرادهم .

(١) كانت كتابتها بامضاء جورج اليوت وهو اسم مستعار - خلق المرأة

لهنري ماريون (٢) المصدر نفسه

ثم يقول: إن خضوع المرأة أمر مكروه متى رافقته خشونة الرجل وفظاظته
ولكنه طبعى متى عدله تقسيم العمل ولطفته روح العدل والإنصاف ، بل ليس
ذلك الخضوع إهانة أو مذلة ، إذا نشأ عن تفاوت ضرورى للتآلف والتوافق ،
وكان أساساً لوحدة العائلة ، وهى الجرثومة البدائية فى تكوين الجمعية البشرية ،
كما تتآلف الأعضاء ، وتتوافق فى خدمة الجسم البشرى . ١٠ هـ

فهذا الخضوع إذا كان ضروريا كما رأيت فهو فى الإسلام خضوع الرأى
والمشورة والسمع والطاعة لاختضوع الذلة والعبودية ، أو العنف والاستبداد
فالإسلام يوجب على الرجل الرفق والكرامة والعطف ، وينهاه أن يستبد أو
يجور ، بل لقد طالبه أن يحتمل من المرأة أخطاءها ، وأن يغفر لها هفواتها ،
وأن يحسن إليها ، لافتنا نظره الى طبيعة المرأة ، وما جبلت عليه حتى لا يلج فى
حسابها طمعا فى إقامتها « استوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن خلقن من ضلع ، وإن
اعوج شيء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج
فاستوصوا بالنساء خيرا » وفى رواية « المرأة كالضلع ، إن أقمته كسرتها ، وإن
استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج » رواهما البخارى ومسلم

فقد جعل الرسول ﷺ من طبيعة المرأة عذرا لها فى الصفح عن هفواتها
والتجاوز عن أخطائها ، وليت شعري هل يكون الخير للمرأة والرجل إلا بهذا
العوج (١) وهل يستقيم الحال بعقل مثل عقل الرجل ، وعاطفة كعاطفة الرجل
وجسم كجسم الرجل ؟ لعل فيما قدمناه آفا ما يغنى عن إطالة القول ، وإعادة
الحديث .

(١) من المؤسف ان بعض الباحثين الدينيين يبادرون إلى التشكيك والتشكيك
فى الأحاديث الصحاح بدون التريث الواجب فى تحرى معناه وسيافها الذى وردت
فيه ، مجاملة أو تورطا .

على هذا المنهج الاسلامى فى اقامة الاسرة ، وبهذا الادب الربانى فى حياتها ، يقوم صرح البناء العائلى متين الدعائم ، قوى الاركان ، شامخ الذرا ، وارف الظلال ، يسكن الرجل اليه ، وتسعد المرأة فيه ، ويقدمان للحياة متعاونين متكافلين مادة الحياة من قرة عين ، وبهجة نفس ، وعماد ظهر ، وامتداد أمل فى بنين وبنات صالحين وصالحات . وبسلامة الاسرة وصلاحها تسلم الامة والجماعة .

فها ان للداعين والداعيات الى مؤتمر الاسرة وحل مشاكلها ان يعلموا ان صلاحها فى الشرق لا فى الغرب ، وأنه فى الدين لا فى المدنية ، وأنه فى شرع الله لا فى قوانين الناس .

٢٠ قيل لرجل من تحب ان تزوج ابتك ؟ قال : ذو الدين ان احبها اكرمها ، وإن كرمها لم يظلمها ، وفى الحديث : ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة ، ان امرها اطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وان أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحتة فى نفسها وماله - رواه ابن ماجه

والقرآن الكريم يقول للرجال : « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ، ويحول فى شأن النساء « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » ،

الرجال قوامون على النساء

وتمضى المرأة ناعمة البال ، هادئة الضمير ، تهنا بذلك الجو العبق الذى تنفست عنه رياض الاسلام من كرامة كاملة وحرية فاضلة ، بل قد تجاوزت بعض

الشيء ما ينبغي أن تقف دونه .

هذه خير امرأة في خير بيئة تعتمد إلى صفحة من الطعام أهديت لرسول الله ﷺ ، فترميا بفهر يحطمها غيرة من أهدتها ، تقول عائشة : « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية ، صنعت لرسول الله ﷺ طعاما وهو في بيتي ، فأخذني أفكل (١) ، فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ، ثم ندمت فقلت : يا رسول الله : ما كفارة ما صنعت قال : إناء بإناء ، وطعام بطعام .

ويقول عمر : صحبت (٢) على امرأتى فراجعتني فأنسكت أن تراجعني ، قالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لنهجره اليوم كله إلى الليل ، فأفزعني ذلك وقلت لها : قد خاب من فعل ذلك منهن ، ثم يذكر بقية الحديث ، ودخوله على حفصة بنته ، وسؤاله إياها عن مراجعتها للرسول ، ويشدد عليها في ذلك .

وهذه امرأة تغضب زوجها ، حتى يرفع يده ويلطمها فتذهب هي وآلها إلى رسول الله ﷺ تشكو ، ويحكم الرسول بالقصاص ، فيزل الوحي من السماء ويتلو الرسول ما أنزل الله « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا ،

وترجع المرأة بغير قصاص ، ويقول الرسول : « أردت أمرا ، وأراد الله غيره ، ويشاء الله أن تكون مثل هذه الواقعة سبيا مباشرا في أن يبلغ الكتاب أجله ، ويخطو التشريع خطوة ، فيحيط بالامر من أقطاره ، فلا نزل الدين

« ١ » بفتح فسكون : رعدة شديدة كرعدة الحمى « ٢ » الصخب : شدة الصوت

لملائكة يمشون في الأرض مطمئنين ، إنما جاء لهذا الإنسان الذي خلق هلوفا
إذا مسَّه الشر جزوعا ، وإذا مسَّه الخير مَنوعا ، ذلك الإنسان الذي هو في
خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

ويقول عمر مرة ثانية : ذُرت النساء على أزواجهن فرخص رسول الله ﷺ
في ضربهن فأطاف بآل النبي ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن ، فقال رسول
الله ﷺ مخاطبا أصحابه : « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين أزواجهن ، ليس
أولئك بخياركم » ، ويقول : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » .

وفي الآية الكريمة توجيه لقوامة الرجل على زوجته ، بينه سبحانه بما أجمل
من سببين رئيسيين : بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم .
فليس التفضيل بين متغايرين ، إعلاء لجنس على جنس ، أو صنف على صنف
إنما هو تفضيل البعض من شيء واحد ، كما تفضل الرأس الجسد ، وشرف البعض
شرف الكل . والرجل وقد كلّف السعي على زوجته وعياله والرعاية لهم
والانفاق عليهم فكان طبعيا أن يشرف على مصرفه كما جهد في مورده .

ثم النساء تجاه ذلك فطر وطباع ، منهن صالحات قاتتات حافظات للغيب
بما حفظ الله قرّة عين لزوجها ، وبهجة نفس لقربنها ، تبادر في رضاه ، وتسعى
في هواه ، وتصون عرضه وتحفظ غيبه . ومنهن دون ذلك ، لا غنى لهن عن
تقويم وتهذيب ، محتاجات لواحد بما ذكر الله في الآية الكريمة ، على تفاوت
المقامات ، ولكل حالة لبوسها .

هذه الحقيقة الواقعة المشاهدة ينكرها أناس يدعون لأنفسهم رفاة الحس
ورقة النفس ، ويغضون أعينهم عن الواقع ودنيا الناس .

يقول واحد من أولئك شارحا مدى النظرف في المعاملة الزوجية

لا أتكلّم عن الضرب ، لأن مثل هذا الزوج كان يجب أن يتزوج حمارة (١) .
ونقول لأولئك ما رويناه سابقا من قول معلّم البشرية « ليس أولئك
بمخياركم ، وخيركم خيركم لأهلهم » .

ولكننا نقدم إليهم مع ذلك ما يعلمه كل من له إلمام بمخلاق النساء ، من أن
الشدة في بعض المواقف خير حل « فليقس أحيانا على من يرحم » ، وأنها بالنسبة
لبعض النساء من أزواجهن ترضى غريزة الخضوع فيهن ، بل قد تدفع البعض
منهن إلى التعلّق بالزوج الشديد إعجابا به — ويشرح لنا عالم نفسى هذه الظاهرة
المعروفة عند علماء النفس ، ويدكر اصطلاحها الخاص بها فيقول (٢) : وتكون
غريزة الخضوع انحرافا في (الماسوشية) « حب التعذيب » ، وهى لذة أن يكون
المرء متسلطا عليه إلى درجة احتمال الألم أحيانا ، وهى شائعة جدا خصوصا
بين النساء وإن لم يعرفنها ، ومن أجلها اشتهرن بالقدرة على احتمال الألم أكثر
من الرجل ، وضارب زوجته (سادى) « محب للتعذيب » ، ولكن الزوجة
المضروبة تكون عادة (ماسوشية) تزيد بها معاملتها الوحشية إعجابا به وحباً
له ، ويستطرد فيقول : ولا شيء يحزن بعض النساء مثل الزوج الذى يكون
رقيق الحاشية دائما ، لا يثور أبدا على الرغم من تحديقهن ، ولا يعرف شقاء هذه
العيشة ولا التوق إلى الزوج الذى يستطيع أن يثور ولو مرة واحدة إلا النسوة
اللاتى جربن الحياة مع زوج من هذا الطراز ، اهـ

وتنظر فى الحادثة التى كانت سبب الآية الكريمة والرجل وزوجته يرجعان
معا إلى بيتهم ، يعيشان حياة راضية ، ويحفظان بيتا قائما وتخيل لو أن هذا

(١) سلامة موسى فى تقديم كتاب مدرسة الزواج لفؤاد باسبيل (٢) من
كتاب علم النفس والأخلاق تأليف ج. هادفيلد ترجمه ابو العزم وراجعه القوصى

الرجل الذي حمّله الغضب فلطم زوجته ، وجاءت هي وأهلها يشتكون ، ونفذ القصاص كما قضى رسول الله قبل أن يأتي الأمر من السماء ، وقامت هي على ملاّ الناس تضربه ، كيف يكون الحال ! أنراه يقبل العيش معها بعد ذلك ؟ ولو قبله فأى عيش هو ؟

وليس شأنه في ذلك شأن المرأة ، فحالها النفسية ، وشعورها بأنها في كنفه وحمايته يجعل ما نالها منه في حال غضبه هنة صغيرة تحتمل .
لقد كان من لطف الله بالرجل والمرأة أن وضع التراحم والتعاطف والود في قلوبهما ، وجعلهما جزئين من كل ، وجعل المرأة بمثابة القلب ، وجعل الرجل بمنزلة العقل ، فكان ذلك خيرا كله ، بل لم يكن الخير إلا به ، وهل لأحد في الوجود حياةٌ بغير قلب ينبض ، أو هدى من دون عقل يقود ؟



تعدد الزوجات

يكثُر الجدل حول تعدد الزوجات ، وبخاصة في هذه الأيام بمناسبة إعداد الدستور الجديد ، وتطالب جل الجمعيات النسائية بمنع التعدد ، وحظر الطلاق إلا بإذن القاضي ، تأمينا في نظرهن للمرأة ، وصيانة للأسرة والأبناء .
والموضوع بحق خطير ، يجب فيه الحيلة والحذر ، فهو مسألة الأسرة والمجتمع .

وترى الداعين والداعيات إلى تقييد الزواج والطلاق يستندون إلى الإسلام كما يستند إليه المعارضون فيه ، الراغبون في ترك الأمر على أصله من الإباحة فأى الفريقين أصح نظراً ، وأقوم قیلاً ؟ وهل من طبيعة الإسلام هذا الخلاف ؟ أو ذاك من تقصيرنا نحن في استيعاب أحكامه ، والتهدى إلى غاياته وأهدافه ، والتمسك بشعائره وآدابه ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ،

وسنرجع بالقضية إلى أول عهدها في الإسلام ، لنستبين وجه الرأي على هده .

يقول الكتاب الكريم في معرض البر باليتامى ورعايتهم ، والنهي عن ظلمهم وأكل أموالهم : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان محبواً كبيراً ، وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ،

ويروى البخارى ومسلم وغيرهما أن عروة بن الزبير سأل عائشة عن هذه

الآية فقالت : يا ابن اختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر ولها ، وتشاركه في ماله فيعجبه ماله وجمالها ، فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطواهن ، وينسلخواهن أعلى سنتهن من الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهن من النساء سواهن . وهذه هي الآية الصريحة التي تبيح تعدد الزوجات على شريطة العدالة المحققة ، فإن خيف الجور فزوجة واحدة .

وتذكر الآية الأخرى مدى العدالة الواجبة ، وما على الرجل منها حيث يقول سبحانه : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » ، ويشرح النبي ﷺ هذه الآية عمليا ، فيسوي بين نسائه في القسم والرعاية ، ثم يقول وقد عرف من نفسه — وعرف عنه حبه لعائشة أكثر من سواها : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » . أي من ميل القلب .

ويقول المرحوم قاسم أمين « لو أن ناظر في الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه بعيداً عن معناهما ، لولا أن السنة والعمل جاءا بالإباحة في الجملة ، (١) نعم إن السنة والعمل جاءا بالإباحة ، والله تعالى يقول : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، ويقول « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والرسول يقول : « أوتيت القرآن ومثله معه » ، أي السنة ، ولم يعد بعد السنة والعمل خفاء في المراد من الآيتين . ولننظر إلى سنة الرسول ﷺ وهديه ، وعمل صحابته .

أما الرسول فكانت له زوجة واحدة مدى الشباب والكهولة ، فقد تزوج بعد أن نيف عن الخمسين كثرات مات عن تسع منهن . وتقرأ في كتاب الله : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ، وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ، إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ،

هذا في جانب الرسول ، أما المسلمون فقد أصبح لهم بالنص السابق أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء إلى أربع ، وكانت الجاهلية تبيح أكثر من ذلك ، فقد أسلم نوفل بن معاوية وعنده خمس نسوة ، وأسلم عميرة الأسدي وعنده ثمان ، وأسلم غيلان الثقفي وعنده عشر ، فأمر النبي كلاً أن يمسك أربعة ، ويفارق غيرهن . (٢)

وقفه المسألة يتطلب الحديث في مواقف : موقف الرسول في الدولة الناشئة وموقف الصحابة كذلك ، والموضوع كشرع خالد .

موقف الصحابة : —

ونبدأ الكلام في موقف الصحابة لقهر الحديث فيه كما يقول المصنفون . فنحن الآن أمام دعوة جديدة يغلي بها صدر الحجاز ، وتهتز لها أرجاء البلاد العربية ، ويسمع صداها خارج الجزيرة ، وترى قوما يفارقون ديارهم وأموالهم

٢ . ذكر الحافظ بن كثير حديث غيلان في تفسيره . وساق رواية الإمام أحمد . قال وهكذ رواه الشافعي والترمذي وابن ماجة والدارقطني والبيهقي وغيرهم وقال في إسناد أحمد رجاله ثقات على شرط الصحيحين وذكر حديث نوفل وعميرة وساق اختلافاً في بعض الروايات قائلاً إنه لا يضر لما له من الشواهد - وأقول فلا عبرة بإنكار بعض المنكرين

وأهلهم بمكة فراراً بدينهم ليحتموا بالحبشة ، أويقيموا بالمدينة داراً جديدة لهم ، والمرأة في ذلك تعمل بوحى ضميرها كما يعمل الرجل ، فمنهن المؤمنات المهاجرات مع الأزواج أو بدونهن ، وتنظر في المسلمين ، فتجد إخوة في الله متحابين متعاونين ، وترى بناء أمة ودعاة دين ، قد علوا عن الماديات ، وتزهوا عن الصغار والأنانية ، ووصل حب الأخ لأخيه — فوق ما أحله بيته ، وأكرم وفادته — أن يعرض عليه مشاطرة ماله ، وأن ينظر لإحدى زوجتيه ليسرحها فإذا اكتملت عدتها تزوجها ، ويشكر له أخوه فضله وكرمه ، ويأبى أن يرزأه (٢) ماله وأهله ، ويقول : دلى على السوق لأناجر ، هذا ما رواه البخارى في شأن عبدالرحمن بن عوف وأخيه سعد بن الربيع ، وذلك الحب الذى توثقت عراه بين المهاجرين والأنصار هو الذى أشاد به القرآن الكريم حيث يقول : «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ،

وتمضى الدولة الناشئة تمسك لدعوتها الجديدة ، وتبسط سلطانها العادل ، وترد عدوان الكافرين ، وتأت كل الحرب الرجال والشباب ، وتترك وراءهن الأرامل والأيتام .

فمن للمهاجرات اللاتى تركن الأهل والأوطان ؟ أيتركن كما تركت مهاجرات فلسطين للتسول والفقر والضياع ، وربك يخاطب المؤمنين بقوله : «يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهم فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لهنّ حلّ لهم ، ولا هم يحلون

لهن وآتوهم ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتوهن
أجورهن ،

ومن لأولئك الآرامل واليتامى يصونهن ويرعاهن وقد فقدن العائل
والنصير ؟ لقد كان بناء الدولة الجديدة يفرض على الجميع تعاوناً وتكافلاً ، وكان
تعدد الزوجات أمراً لا مفر منه ، ولا يحيد عنه ، كظهر من مظاهر هذا التعاون
الوثيق ، إلى ما فيه من مدد من النسل يعوض ماتاً كله الحرب ، ويطحنه الجهاد ،
فلم يكن عجباً حينئذ أن يعرض الرجل ابنته أو مكفولته على صاحبه ، أو تعرض
المرأة غيرها ، بل قد تعرض نفسها كذلك .

فهذا عمر يعرض حفصة على أبي بكر وعلى عثمان ، وتعرض أم سلمة
أختها على رسول الله ، وتعرض الواهبه نفسها عليه أيضاً .
موقف النبي في رعايته للدولة الناشئة :

أما رسول الله ﷺ ، فقد تزوج بعد خديجة بكثيرات هن أمهات المؤمنين ،
مات عن تسع منهن ، وليس المؤمن في حاجة إلى مبررات لجمع هذا العدد
الكثير ، إلا رغبة في العلم ، واستزادة من المعرفة ، أما أعداء الدين فيجدونها
فرصة سانحة للنيل من الإسلام ونبي الإسلام ، ويقول الأستاذ العقاد في عبقرية
محمد من فصل رائع : قال لنا أحد المستشرقين : « إن تسع زوجات لدليل على
فرط الميول الجنسية ، قلنا له : إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية
لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين
تسع نساء ... »

والدارس لهذه الناحية من حياة الرسول الكريم لا يجد في تعدد الزوجات
ما يرى عادة من رغبة النسل ، فقد كان أبناؤه ذكورا وإناثاً من خديجة عدا

ابراهيم فمن مارية سريته ولعل كثيرات منهن لم تكن مستعدة للنسل ، ولم يتزوج
بكرأ سوى عائشة . كما لا يجد في جمع هذا العدد ما يعدّه راحة واستقامة بعد
طول جهاد ، فلقد كان ﷺ في بيته في مهنة أهله فاذا سمع الأذان خرج ،
وعن عائشة وقد سئلت هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته قالت : نعم ،
كان رسول الله ﷺ يخُصِف نعله ويخيط ثوبه ، ويحلب شاته ويخدم نفسه .

بل لقد بلغ من حسن عشرته وتعاضيه أن لم تكن هيبة النبوة حازراً بينه
وبينهن ، فكان يطالبنه بما يطالب النساء بمثله من الزينة والسعة ، ويكثرن
عليه في ذلك إلى حد المشقة حتى أنزل الله عليه آية التخيير تأديباً لهن ، وإعلاماً
لهمتهن عن طلب الدنيا ، وهن قدوة المسلمات ، يأبها النبيُّ قل لازواجك إن
كنن ترذن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا
جميلا ، وإن كنن ترذن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للبعثات
ممكن أجراً عظيماً ، فخيرهن واحدة واحدة ، وبدأ بعائشة فاخترن الله
ورسوله والدار الآخرة .

بل كانت الكثرة عبئاً تحمّله رسول الله ﷺ ولم يكن لغيره به طاقة ،
وكان من تغايرهن حيناً وتحزبن ما يؤلمه ، حتى نزل القرآن مقررّاً لثنتين من زوجاته ،
منذراً جميعهن : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه
فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ، عسى
ربّه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن . . . »

وإذا لم يكن من هذا الزواج طلبُ النسل ، ولا رغبة الحس ، ولا وفرة
الخدمة البيتية ، فليس إلا القصد الصحيح الذي ينبئ عنه النظر في هذه الزيجات
وترى كل واحدة على حدة ، وتستعرضها جميعاً فإذا مقاصدها جليلة جليلة . فاما

قبيلة يتألفها بصره أو كرامة^١ وتشريف الكبار أصحابه ، يزوج بعضهم من بناته ويأخذ من آخرين ، أو مجاهدة يرعاها في اغترابها ، أو ذات بلاء جليل يكافئها على حسن بلائها ، أو قضية دينية يحتمل تجربتها من دون المؤمنين . وكلهن مع ذلك مؤمنات صالحات ، ومبلغات واعيات ، ومعملات للأمة من بعده ، يبتين^٢ ما خفي ، ويحفظن ما ظهر .

أمهات المؤمنين

وهاك طرفا من أمر كل على حدة :

اقرن الرسول الأكرم ﷺ بالسيدة خديجة في سن الخامسة والعشرين ، وظل معها إلى ما بعد الخمسين ، وأنجب منها أبناء وبناته سوى إبراهيم ، وكان لها البرء الوفي في حياتها وبعد وفاتها ، حتى تقول عائشة : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة لما كنت أسمعه يذكرها وقالت له مرة : وهل كانت إلا عجوزا أبدلك الله خيرا منها ، فقال لا والله ، ما أبدلني الله خيرا منها ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقني إذ كذبي الناس وواستني بما لها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء .

سودة ، وعائشة : ويفرغ بيت النبوة من سيدته الأولى ، وتأتى امرأة مسلمة تشير على النبي بأن يتزوج قالت عائشة : لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم للنبي ﷺ : أى رسول الله ألا تزوج ؟ قال : من ؟ قالت إن شئت بكر أو إن شئت ثيبا . قال فمن البكر ؟ قالت : بنت أحب الناس إليك ، عائشة بنت أبي بكر ، قال فمن الثيب ؟ قالت : سودة بنت زمعة ، آمنت بك واتبعك ، قال فاذهبي فاذهبي .

وكانت سودة قرشية من بني عبد شمس ، وأما أنصارية من بني عبد النجار وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو ، ورجع

بها إلى مكة فمات ، وتزوجها ﷺ قبل الهجرة .

أما عائشة فقد دخل بها في السنة الثانية للهجرة ، ولم يتزوج بكرا غيرها ، وروى البخارى غير مرة في صحيحه عن عائشة أن النبي ﷺ قال : « أريتكم في المنام مرتين إذا رجل يحميك في سرقة حرير فيقول هذه امرأتك ، فاكشفها فإذا هي أنت . فأقول إن يكن هذا من عند الله يمضه . » ولقد كان من عند الله فأمضاه ، والخير كل الخير فيما أراد الله . وأى خير أبلغ من مثل ما يقول أبو موسى : ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما ، ويقول عروة : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا خطب ولا شعر من عائشة (١) .

وحفصة بنت عمر : يموت زوجها بعد غزوة بدر ، فلما تنقضى عدتها يعرضها أبوها على أبي بكر فيسكت ، ويعرضها على عثمان بعد موت زوجها رقية بنت رسول الله فيقول ما أريد أن أتزوج اليوم رجاء أن يزوجه النبي أم كلثوم بنته فيسوؤه موقفهما ، ويذكره للنبي ﷺ فيجيبه بقوله : يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة ويرضى صاحبيه معا ، ويعتذر أبو بكر لعمر في صمته بأنه علم أن النبي ذكرها ، ولم يكن لينبيء بأمر رسول الله من قبله ، ويقول : ولو تركها نكحتها .

فكان إصهاره الى عمر كما صهاره الى أبي بكر شرفا كبيرا لها ومعرفة بعظيم بلائهما في الدين ، كما شرف عليا وعثمان بالمصاهرة .
أم حبيبة : بنت أبي سفيان تهاجر إلى الحبشة مصارمة أهلها ، فيتنصر زوجها ويفارقها . ولم تكن لترجع إلى ذويها فتفتن في دينها ، فيصون لها الرسول

(١) طرح التثريب للعراقى . والإصابة لابن حجر

كرامتها ، ويحفظها في غيبتها ، ويرسل الى النجاشي حيث يخطبها على النبي
ويصدقها عنه أربعائة دينار ، وتصير بين المهاجرين أم المؤمنين ، ويعلم أبو سفيان
وهو رأس المناوئين للرسول بمكة فيرضيه ذلك ويقول : « هو الفحل لا
يقدر أنفه » .

كذلك أم سلمة : تزوجها ابن عمها وكان من السابقين الأولين ، وابن عمه
رسول الله ﷺ وأخاه من الرضاعة ، هاجرت مع زوجها الى الحبشة ،
وخرجت الى المدينة معه مهاجرة ، فابتليت بلاء شديدا سبق ذكره ؛ حتى رَقَّ
لها أهلها ، وخلوا سبيلها فالتقت بزوجها بعد عام من هجرته ، ومات عنها
بالمدينة من جرح أصابه في أحد ، وكانت تجله أمما لإجلال . خطبها رسول الله
ﷺ فاعتذرت بأنها مسنة ، وذات غيرة وأم أيتام ، فيقول لها : أما السن فأنا
أسن ، وأما الغيرة فيذهبها الله ، وأما الأيتام فألى الله ورسوله ، وتنال الشرف
الأسنى ، وتكون إحدى أمهات المؤمنين ، وعُرفت بالرأى السديد ، والفكر
الصائب ومشورتها في الحديبية معروفة .

أما جويرة بنت الحارث : فكان أبوها وقومها يعدون لقتال المسلمين
فالتقى الفريقان ، وهزم الله المشركين ، وأخذوا أسرى ، وكانت هي في السبايا
من سهم ثابت بن قيس أو ابن عم له ، فكاتبت على نفسها ، ثم جاءت رسول الله
ﷺ تقول له : يا رسول الله أنا بنت الحارث (١) سيد قومه ، وقد أصابني
من البلاء ما تعلم ، فكاتبت على نفسي وجئتك أستعينك على كتابتي : قال : فهل
لك في خير من ذلك ؟ قالت وما هو ؟ قال . اقضى عنك كتابتك وأنزولك

١ - وكان اسمها بره فسمها الرسول ﷺ جويرة

قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت فتضى عنها ، وخرج الخبر إلى الناس أن النبي تزوج جويرية ابنة الحارث . فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ ، وأرسلوا ما بأيديهم ، قالت عائشة : فلقد أعتق بزويجها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها

وصفية بنت سيد قومها ، أعتقها وتزوجها ووصل صهره بنى اسرائيل وميمونة بنت الحارث الهلالية آخر زوجاته قالت عائشة عنها : أما إنها كانت اتقانا لله ، وأوصلنا للرحم .

أما زينب : ولزواجها شأن . لغط من حوله اللاغطون ، وغلط فيه المتسرعون وهاك آيات (٢) الله ليس بعدها مقال :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلّالاً مبيناً ، وإذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا بها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان امر الله مفعولا ، ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ، ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ، وأكن رسول الله وخاتم النبيين ، .

فزيد بن حارثه مولى رسول الله ﷺ وهبته خديجة له فخدمه طويلا ، ورأى

من عظيم خلق المصطفى قبل مبعثه ما جعله يفضل على عمه وأبيه وقد جاءه
بالفداء ، فلما اختار الرسول ، أشهد على بنوته ، فقررت عين أبيه وعمه . وسمى
بعد يزيد بن محمد .

وكان شأن المتبني في الجاهلية شأن الابن في النسب والميراث حتى إذا
جاء الله بالإسلام ، ونزل قوله تعالى : « أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » ،
قإن لم تعلموا آباءهم فآخوانكم في الدين ومواليكم ، وأراد الإسلام أن يعنى
على آثار هذه العادة حفظا للأنساب : وأن يقتلع من نفوسهم اعتبار الدعي
كالابن الحقيقي : أمر رسوله بتزويج زينب من زيد ، فلما خطبها عليه انفت ،
وقالت : يا رسول الله لست بنا كحته ، قال : بلى ، فانكحيه ، قالت : أنا خير
منه حسبا ، وأنا أئيم قومي ، وبنت عمك ... فنزل قوله تعالى : « وما كان
لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة » من أمرهم ،
فلما علمت الآية قالت « إذا لا أعصى رسول الله ﷺ » ، قد انكحته نفسى .
وبقيت معه سنة أو قريبا منها ، وكانت تتعالى عليه ، وزيد يشكوها ، والرسول
يقول : أمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أن الله مزوجه إياها بعد زيد ،
ويخشى في نفسه قول الجاهلين إن محمدا تزوج حيلة ولده ، فعاتبه الله في ذلك
وما كان له أن يخشى في بلاغ الرسالة شيئا .

ويروى بعض المفسرين هنا عند قوله تعالى . « وتخي في نفسك ما الله مبديه »
قصة مؤداها ان النبي رآها مرة حاسرة عن ذراعيها ، فأعجبه حسننها ، فقال
سبحان مقلب القلوب فأخبرت زيدا بذلك فطلقها ، ويبررون ذلك بإرادة الله
للتشريع .

وكان الأمر الذى قضاه الله ورسوله ولم يجعل لمؤمن ولا مؤمنة خيرة في
أمرهم . وأنذر العاصين بالضلال المبين ، حتى رضخت زينب وأطاعت ، وقبلت

الزواج من زيد ، كل ذلك لأن قلب الرسول لم يمل اليها ، فلما أعجبه حسننها أوحى بالطلاق اليها — سبحانه ربى هذا بهتان عظيم .

فمى كانت زينب غريبة أو بعيدة حتى يكون حسننها مجهولا لديه . ولماذا أكرهها النبي على أمر ترفضه وتأباه ، وهو الذى ينهى المؤمنين ان يكرهوا بناتهم على تزويج من لا يحبون ، وكيف ينزل القرآن قاضيا ما قضى به رسول الله ؟ إن ما لهج به بعض القصاص والمفسرين يرده العقل والنقل ، وقد أبطله المحققون وكذبوه .

وإذا أخذ على بعض المفسرين عدم التحرز فيما ينقلون ، فأولى ان يؤخذ على كبير من علماء المسلمين ان ينقل هذا ويدافع عنه فى محاضرات عامة على جمهرة من البريطانيين .

يقول السيد أمير على الهندى من محاضرات ألقاها فى جامعة لندن : (١)
« وقد حدث أنه عليه السلام وزار زيدا مرة فى داره فلما رأى زينب حاسرة الوجه صاح كما يصيح اليوم المسلم الذى يرى صورة جميلة او تمثالا ويعجب بها » الحمد لله الذى له السلطان على القلوب ، وكانت زينب كثيرا ما تكرر ذلك على مسمع من زوجها لثريه أن النبي يعجب بجمالها ، فكان ذلك يؤدى الى استياء الزوج طبعا ، وأخيرا قرراره على أن يفارقها ، فذهب الى محمد .. فأمره بامساكها . بيد أن زيدا لم ينثن عن عزمه فطلق زينب على الرغم من أمر النبي ، فاستاء محمد من سلوك زيد هذا ، خصوصا لأنه هو الذى جمع بين الزوجين اللذين لم تتفق أخلاقهما وطباعهما ، فلما طلقت زينب من زيد ذهبت متضرعة

١ — من كتاب مركز المرأة فى الاسلام للسيد أمير على الهندى . قاضى الهند سابقا وعضو جلالة الملك ، وعضو وزارة الهند — تعريب على فهمى محمد

إليه أن يتزوج بها ، ولم يرضها الا أن صارت إحدى نساء النبي .
ولسنا في حاجة الى تنفيذ هذا الكلام الشعري ، بعد ما قلناه وقاله الأئمة
السابقون ، وما بك الا أن تنظر الآيات الكريمة مجمعة أو متفرقة فتجدها
واضحة الدلالة في أن الله أمر نبيه بتزويج زينب من زيد ، على كره منها إلا
طاعة لله ورسوله ؛ حتى إذا طلقها زيد ، زوجه الله أياها ، لكي لا يكون على
المؤمنين حرج في أزواج أديائهم اذا قضوا منهم وطرا ، فهدم بذلك عادة
جاهلية ، وأقام سنة اسلامية ، « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » .

وأكرمت زينب بما احتملت من التجربة ، وفخرت على أمهات المؤمنين
قاطبة ، وهي تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات .
هذه هي جملة الأسباب لتعدد زوجات النبي ﷺ لا تخرج عما قلناه سابقا
من صالح الدعوة والدولة في مصاهرة القبائل والاحساب ، ومعركة الفضل
لكبار الاصحاب ، ورعاية الضعيفات من المؤمنات ومكافأة المجاهدات المحسنات
الى بيان احكام التشريع ، فكان ذلك عبئا من اعباء الدعوة يحمل منه اكبر
نصيب ويرشد أصحابه الى ما يطيقون .

وتقرأ في مثل هذا المقام أن الضحاك بن قيس يعرض ابنته على الرسول ،
ويقول : انها لم تصدع قط فيقول لا حاجة لي بها (١) وتجيء امرأة تهب نفسها
للنبي فيزوجها لرجل بما معه من القرآن ، وتجيء ام كلثوم بنت عقبة بن أبي
معيط ، وتهب نفسها للنبي فيزوجها زيدا ، فتقول هي واخوها : انما اردنا رسول
الله فزوجنا عبده ، فيسمعون الآية الكريمة « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة

إذا قضى الله ورسوله (١)

ويرسل رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى بني كلب، ويقول: «فان استجابوا لك فتزوج بنت مملوكهم، فلما قدم عليهم دعاهم إلى الإسلام فأجابوا، وتزوج تناصر بنت الأصبع (٢) مملوكهم وقدم بها المدينة فكان ذلك كله من حسن سياسته في ربط الأواصر، وتألف القبائل بنفسه وبأصحابه، وكان بحكم إمامته ومكانته يحمل العبء الأكبر، كشأنه في كل شيء، لا يكلف أصحابه ما يكلف نفسه من عزائم الأمور ألم تره يصوم فيوالى بين الأيام، ويمنع أصحابه الموالاة؟ فإذا ألحوا راغبين في الوصال اقتداء به قال لهم، لستم مثلي: إني أبيتُ عند ربي يطعمني ويسقيني، ويقوم الليل الا قليلا. وينهى من قال منهم أقوم ولا أرقد وينهض بنفسه إلى الحرب، ويتخلف أحيانا تخفيفا عليهم ويقول، لو لا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية.

هذا موقف النبي والأصحاب في ظروفه وملا بساته.

تشريع خالد : وتنتظر في الأمر كله كتشريع خالد عمساده القرآن والسنة

فترى الإسلام الذي سلكه باتباعه سبل الطهر والعفاف، وأمر بغض الأبصار وحفظ الجوارح، وفرض صيانة الأعراس والأنساب وأوجب على المسلمين أن يكونوا محصنين غير مسافحين ولا متخذين أخذات، هذا الإسلام نظم علاقة الرجل بالمرأة وعلاقة المرأة بالرجل على نحو لم يعهد من قبل، وراعى الضرورات القائمة لصيانة الدولة، وحماية جميع أفرادها ماديًا وروحيًا حينما أباح التعدد، ومع ذلك فقد حد القرآن منه، وكأنه يشير إلى أنه الأصل في علاقة الجنسين ما لم تكن هناك الضرورات القاضية وقلمًا تنقطع.

والبارة القرآنية الكريمة التي أباحت التعدد جزء آية واردة في وجوب القسط لليتامى . « وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، والنظر السليم حريٌّ أن يستبين الضرورة القاضية باباحة التعدد في وضوح ويسر ؛ فقد تكون الضرورة شخصية والرجل فيها غير المرأة ، لان استعداده أوفر وموانعه أقل ، فاذا اعتبرنا الناحية الجنسية بأغراضها العليا من عمارة الكون وحفظ النوع ، كان الرجل قادرا على تقديم مادة الحياة في كل وقت ولاكثر من واحدة ولنسب أعلى ، لايتوده في ذلك مايتود المرأة من حيض ونفاس وحمل ووضع .

ولعل أصدق دليل في هذا الصدد ، صحة الحياة برجل مع نساء وضياعها بامرأة مع رجال ، ذلك أمر معلوم لايسيل الى الشك فيه ، ومتى كان الرجل أقوى من المرأة فقد يشق على كثيرين الاكتفاء بواحدة .

وقد تكون الضرورة اجتماعية لأن المشاهد غالبا زيادة عدد النساء على الرجال في كثير من الدول ، واطراد ذلك اطرادا هائلا في أيام الحروب والثورات ، والإحصاءات الأخيرة - على ما طالعنا الصحف بها - في دول كثيرة تدل على ذلك ، فالنساء في انجلترا تزيد على الرجال بأكثر من مليون ونصف ، وغير المتزوجات بلغن خمسة ملايين امرأة ، وفرنسا شبيهة بها وألمانيا نسبة النساء فيها إلى الرجال كنسبة ٥ : ٤ ، وروسيا قريبة منها .

فهل نجبر أولئك النسوة على حياة الديور والترهب صيانة للأعراض والأخلاق ؟ وهل استطاع ذلك لو أريد ؟

وأيهما أكرم للمرأة والرجل علاقة شريفة تصونهما وتصون ما يحى بينهما من النسل ، أم سفاح ومخادنة تسيغهما دول الغرب ، يكون للرجل الغنم ، وعلى المرأة الغرم ؟

لقد كان تعدد الزوجات أمرا متعارفا لدى الأمم السابقة ، وذكرت التوراة لسليمان وحده سبعائة زوجة وثلاثائة سرية (١) وجاء الإسلام ولا ضابط له عند العرب ، فجعله في حدوده الضيقة ، ولم يجعله مطلوبا لذاته ولا مندوبا فإذا اعترف الإسلام به فقد أوجبته الضرورات الجنسية والاجتماعية لصالح المرأة والرجل على السواء . وقد أوجب الله على الرجل العدالة المحققة وجاء في الحديث : « أيما رجل تزوج امرأتين فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل »

ولن يتوفر عدل في الذواقين والذواقات ، أولئك الذين لا يريدون من الزواج ما أراد الله إذ يقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » ولا يبتغون منه ما جعل الله فيه فيقولون مثل ما يقول عباد الرحمن : « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » الغرب وتعدد الزوجات : ولئن تنازل الغربيون هذا النظام بروح السخبط

له ، والتعصب عليه ، كشأنهم في كل ما هو إسلامي ، وقلدهم في نقدهم المتغربون فلم يعدم الحق نصيرا من المنصفين بين صفوف المعادين ، والفضل ما شهدت به الأعداء . يقول غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب (٢) منتقدا قومه في الحملة على تعدد الزوجات ، ومشيدا به من فصل طويل : إن تعدد الزوجات على مثال

(١) سفر الملوك ف ٢١ ص ٥٤٧

(٢) نقلا من كتاب دولة النساء للاستاذ عبد الرحمن البرقوقي . والمرأة العربية للاستاذ عبد الله عفيفي الجزء الثاني

ما شرعه الإسلام من أفضل الأنظمة ، وأنهضها بأدب الأمة التي تذهب إليه ،
وتعتصم به ، وأوثقها للأسرة عقدا ، وأشدّها لآصرتها أزرا ، وسيله أن تكون
المرأة المسلمة أسعد حالا ، وأوجه شأنا ، وأحق باحترام الرجل من أختها الغربية
أما في الغرب .. فالبقاء على الواحدة نص من نصوص القانون لا أمرا واقعا ،
ولا حكما نافذا — وليس في قدرة أحد أن يعترض ما أقول ، أو ينكر أن
الوقوف دون ذلك السياج — سياج الزوجة الواحدة — أمر لا يستمسك به
إلا الأقلون ، ولست أدري على أية قاعدة يبنى الأوروبيون حكمهم بانحطاط
ذلك النظام — نظام تعدد الزوجات — عن نظام التفرد المشوب بين الأوروبيين
بالكذب والنفاق ، على حين أرى أسبابا تحملني على إثارة نظام التعدد على
ما سواه .

وليس ذلك الفيلسوف وحيدا بين قومه ، وأهل ملته ، فلقد شاركه
الكثيرون والكثيرات فيما ارتآه ، ودعوا قومهم إليه .

خطب اللورد كرومر خطبة انتقديها الشريعة الإسلامية في تعدد الزوجات
وإباحة الطلاق ، فرد عليه السيد رشيد رضا ردا قاطعا ، وجاء في حديثه أن من
كاتبات الانجليز من طالبت في الجرائد بإباحة تعدد الزوجات رحمة بالعاملات
الفقيات ، والبغايا المضطرات ، ونقل بعض مقالات لأولئك الكاتبات وما
جاء فيها : « لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعم البلاء ، وقل الباحثون عن
أسباب ذلك ، وإذ كنت امرأة أراي أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع
شفقة عليهن وحزنا ، وماذا عسى يفيدهن شي وحزني وتوجعي وتفجعي وإن
شاركني الناس فيها جميعا ، لا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرجس ،
ولله در العالم الفاضل (تومس) فإنه رأى الداء الكافل للشفاء (وهو أن يساح

للرجل الزوج بأكثر من واحدة) وبهذه الوساطة يزول البلاء لا محالة ، وتصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء كل البلاء في إجبار الرجل الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهذا التحديد هو الذى جعل بناتنا شوارد ، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال ،

وتحدثت عن الأولاد غير الشرعيين وقالت : د فلو كان تعدد الزوجات مباحا لما حاق بأولئك الأولاد وبأمهاتهم ما هم فيه من العذاب المهن ، ولسلم عرضهن وعرض أولادهن ،

وقالت أخرى بعد وصف الاختلاط ، وتغريب الرجل بالفتاة وتركها بجنيها وذلها : د فكم قاست هذه المرأة من مرارة هذه الحياة ، حتى قدرت على كفالهم ، والذى علقت منه لا ينظر إلى أولئك الأطفال ، ولا يتعهدهم بشيء ، ويلاه من هذه الحالة التعسة !!! ترى من كان معينا لها فى الوحى ودواره ، والحمل وأثقاله . والوضع وآلامه ، والفصال ومرارته ؟ ، (١)

وإذا كان الذى طلعت به صحف إنجلترا على الانجليز فى سنة ١٩٠١ يعد قديما ، وإنه لكذلك ، فماذا جد على صلة المرأة بالرجل فى أوروبا كل هذه السنين ؟ هل حلت القضية حلا عادلا فى مدى نصف قرن من الزمان ؟

لقد رأينا المرأة تشقى بالصلوات الجنسية التى لا يحمل الرجل فيها عبئا ما ، فتراه ينسحب ناعم البال ، هادىء الحس ، بعد أن قضى ما أراد ، ولتحمل المرأة عيشها وعيش وليدها . ولتقاس من ذلك العذاب الأليم .

وتذكر الأيام والسنون ، وتهتدى المرأة إلى حل لمعضلتها بعد تفكير شديد

(١) رد عليه فى المنار ، ونقل ذلك فى تفسيره : ٤ وفى كتابه نداء إلى الجنس اللطيف .

وُجِّعَتْ المؤتمرات وينتظم عقدها من النساء القانونيات للبحث في اتصال المرأة غير المشروع بالرجل ، ويتفقن على وضع قانون يطالبن فيه بترتيب حقوق المرأة ولائها غير الشرعى ، قَبْلَ من يتصل بها من الرجال .

نشرت الأهرام فى سبتمبر عام سنة ١٩٥٣ نبأ مؤتمر تورنتو بايطالية ، الذى عقده اتحاد القانونيات العالميات وسبق عقده من قبل فى باريس وجنيف وستراسبورج وغيرها ، ومثلت فيه مصر لأول مرة ، ويعنى الاتحاد ببحث حقوق العائلة والأحوال الشخصية للمرأة ، والعمل على وضع القوانين التى تكفل حمايتها وقالت الأهرام : وقد بحث المؤتمر فى دورته الحالية مسألتين : حقوق النساء والابن الشرعى ، وما سموه الأم الآنسة ، أى التى أنجبت أطفالا دون أن تزوج - ورأت المجتمعات ترتيب حقوق لكل امرأة قبل أى رجل يتصل بها ، وذكرت رئيسة المؤتمر أن الاتحاد وضع مشروع معاهدة لحماية الابن غير الشرعى ، وعلاقة المرأة بالرجل ،

وقد خطت امرأة انجليزية خطوة إيجابية اعلمها من آثار الدعوة إلى هذه المعاهدة ، ورفعت قضية على طيار أمريكى تطلب النفقة لها ولوليدها منه ، فرفضت المحكمة دعواها بحجة أن على فتيات الانجليز أن يحرصن فى علاقتهن مع الأمريكان وكانت هذه واحدة من سبعين ألفا من الأمهات الأوانس فى الأيام الأخيرة ، شغلن الضمير المتمدن فى نصف العالم الحر ١١١ بالاستماع لحظة إلى أمريكى مسئول ينادى بعقد معاهدة فى شأن أولئك النساء البائسات ، علق عليها رئيس تحرير الأهرام بتاريخ ١٨/٢/٩٥٤ بقوله فى ما قل ودل : « يستعقد بين بريطانيا وأمريكا معاهدة من نوع جديد ، فلا هى سياسية ولا هى عسكرية ، ولا هى مالية ... إنها معاهدة غرامية ... يقول السناتور جرير عضو لجنة

العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي ، إن الضمير الأمريكي يجب أن يتحرك ، وإن معاهدة التصحيح الموقف يجب أن تعقد .. أما الموقف فهو خاص بسبعين ألف ابن حرام ، ولدوا بسبب الجنود الأمريكان .. فلما حاولت إحداهن أن ترفع قضية نفقة حكم القضاء البريطاني ضدها ، وقال القاضي في حكمه إن العبرة تقضى بضرورة أن تحرص هؤلاء الشابات في علاقاتهن مع الجنود الأمريكان حرصاً أكثر من ذلك ... وبذلك سقطت نفقة ... ٧٠ / ألف فتاة وامرأة . ١ هـ

فليت شعري ما عسى أولئك الكاتبات الانجليزيات يقلن ، لو امتد بهن الزمن فرأين ما وصل إليه حال بناتهن ونسائهن ؟ بل ما عساهن قائلات لأولئك المصريات المسلمات اللائي انعقد مؤتمراتهن من ست وعشرين هيئة نسائية في منتصف إبريل (١) لبحث شؤون الأسرة ، وطالبن فيه بمنع تعدد الزوجات . وماذا ستصنع هذه الملايين الخمسة من نساء الانجليز غير المتزوجات ، والملايين سواها من نساء الغرب في نداء الجنس ؟

هل من عجب بعد ذلك إن عضدن القوانين العالمية في المطالبة بترتيب حقوق لكل امرأة قبل أى رجل يتصل بها ، وفي وضع المعاهدة لحماية الابن غير الشرعى — فلو أن ذلك الوالد اللص والزوج الكاذب زوجا والدا شرعيا فضم المرأة والولد قانونا ، كما احتواهما فعلا وقام لهما بواجب الزوج والوالد أكانت تهدر حقوق المرأة ووليدها على هذه الصورة الشوهاء ١٩

ثم هل يكون جهد أولئك المثقفات عندنا بعد ما رأيناه وزراه أن نمضى خلف أولئك الأقوام ، ونقتفى آثارهم ، شبرا بشبر وذراعا بذراع ، ولودخلوا

جحر ضب خرب دخلناه .

على أننا في وضع قانون كهذا مقترح لا نكون سوى مقلدين في نقل
سيئات الآخرين حبا في التقليد ، فموضوع تعدد الزوجات عدا أنه ضرورة
اجتماعية ، لم يعد مشكلة ذات بال ، فقد رغب الناس عنه ، وصار أمرا نادرا لا
يقدم عليه كثيرون وكما قاله رئيس المجلس المختص بالقرية والأسرة : إن تعدد
الزوجات أقل بكثير من الماضي بسبب ثقل الأعباء الزوجية بل تكاد هذه
الظاهرة تلاشي .

التقييد المحدود : وأخيرا فإن هناك فوق ذلك كله من دقائق التشريع
الإسلامي وروائعه ما لو علمته المناديات بالتقييد لطربن له وحسبته حجة لمن ،
وهو بعد آية على عظمة هذا التشريع وقدرته على مواجهة ما يعرض للفرد
والجماعة من حاجات ، ذلك أن التقييد أجاز له الدين إجازة محدودة ، تحقق الخير
الذي يكون فيه ، ولا تعدوه إلى ضرر التعميم ، فللمرأة في نظر الإسلام أن تقدر
ما فيه خيرها ، فتشترط على زوجها إن شاءت ألا يتزوج بغيرها ، وعليه الوفاء
لها ، بل لقد قرر بعض الأئمة أن الأفراد إن كان عادة قوم درجوا عليه ، فليس
للزوج أن يقتن بغيرها ولو لم تشترط عليه ، لأن المعروف كالشرط ، وقد
أخذوه من أصله الأصيل فقد روى البخاري في عدة مواضع من صحيحه عن
المسور بن مخرمة قال : سمعت النبي ﷺ يقول وهو على المنبر : « إن بني هشام
ابن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب ؛ فلا آذن ، ثم
لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فإنا
هي بضعة مني يربيني ما أربأها ويؤذيني ما آذاها ، وفي رواية أخرى : « إن فاطمة
مني وأنا اتخوف أن تفتن في دينها ، ثم ذكر صهرها له من بني عبد شمس فأنى عليه

في مصاهرته اياه قال : حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي ، وأني لست أحرم
حلالا ، ولا أحل حراما ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله (ﷺ)
وبنت عدو الله أبدا .

ولئن نهى الرسول ﷺ أن تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ، ولم
يكن ذلك لاثقا ، فقد علل الحكم أولا بأنه يخشى أن تفتن في دينها ، وأخذ
العلماء ان الشريفة اني يؤذيها أن يتزوج رجلها بمن دونها لايحل إيذاؤها بالتزوج
عليها ، كذلك إن اشترطته على الرجل ، او كانت عادة قوم فعليه الوفاء .

هذا هو عدل الله بين العباد ، وشرعه الحكيم للناس يوجههم الى مافيه خيرهم
وعزهم وسعادتهم لم يهي بصغير من الأمر أو كبير ، ولا بقليل او كثير ، أحاط المرأة
بالرعاية الواجبة ، وضمن صيانة المجتمع ، ونوع الاباحة والتقيد ، ليواجه بكل
منهما ما يناسبه ، ولو أراد التقيد عاما لما أعياه ، ولو علم الخير في تعميمه لما
أهمله او جامل فيه .

هذا هو الاسلام يواجه المجتمع الراقى في كل زمان ومكان بمدد من التشريع
الإلهي العادل ، تنزيل من حكيم حميد .

فماذا لو عنيينا برفع مستوى الأسرة دينيا وثقافيا وماديا ، وعملنا على إنارة
القلوب ، وملئها بالخير والرحمة والحنان ، وبذلنا الجهد لاهياء الضمائر ، وتنوير
البصائر ، وتركنا مباحا ما اباحه الله ؟ ولئن شكونا تجاوز البعض لحدود الله
فليكن لنا من النظم ما يكفل الخير العام ، ويضرب على أيدي المعتدين الطغام ،
على أن يكون من معينه الصافي الذي لا كدر فيه ، على أن يكون دين الله ،
وفي حدود ارشاده وهدايه ، فالتة أرحم بالمؤمنين ، وأحكم الحاكمين ، وليجتمع
المسلمون بدينهم على كلمة سواء ، ولا يتفرقوا بين شرع الله واهواء الناس ، فذلك
اجدى على المجتمع الاسلامي ، وأهدى سبيلا .

مشروعية الطلاق

معنى الاسلام بأمر الزوجية عناية كاملة ، عرفانا منه بأن التزواج مادة الوجود ، وسبيل عمارة الكون ليس في الإنسان وحده ، بل في الحيوان والنبات كذلك ، ومن كل شيء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون ، لهذا تراه يقيم البيت المسلم على أساس وطيء من البصيرة والتثبت والرضا ، يتجلى في تخير الزوجة ، وتقديم رضاها ، وتفضيل ذات الدين والخلق الجميل ، وفي إرشاده إلى رؤية كل من الزوجين لصاحبه قبل عقد الزوجية ، لأن الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر اختلف .

فإذا قام البيت وتم بناؤه ، دعا الزوجين إلى حفظه وصيافته ، وأرشدتهما إلى ما يقويه ويدعم أركانه ، ويشد أواصره ، فعظم حرمة كل على صاحبه ، وجعل الحقوق والواجبات كفاء ، وأعلمهم أن خير الرجال خيرهم لأهله ، ودعاهم إلى الرفق والمياسرة ، واللفظ والبشاشة وإلى كل ما يثبت الحب في القلوب حتى إن النبي ليغري الزوج بملاعبة زوجته ، ويقول لجابر : « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك » ، بل إنه ليجعل اللقمة يضعها الرجل في فم زوجته قربة عند الله تعالى درجته ، ويدفعه إلى نشدان السعادة والبهجة وقرة العين في زوجته ، مقدما لها على ذريته ، سالكا إلى ذلك ألطف السبل ، حينما يذكر من صفات الصالحين عباد الرحمن الذين يبيتون لرَبِّهم سجدا وقياماً ، أنهم « يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما » كما يأمر المرأة بطاعة زوجها واحترامه ، ويجعل رضاه سببا لرضا الله سبحانه .

وهو في ذلك لا يجعل الزواج قصورا سعيدة من الخيال والالوهام ، أو

يخفى ما فيه من تبعات وأعباء جسام ، بل تسمع الى الرسول في معرض التذكير والتبصرة بحقائق الأمور يقول « إن المرأة خلقت من ضلع ، فان ذهبت تقيمه كسرتة ، وكسرها طاقها ، تلك طبيعتها فطرت عليها ، فيجب اكرامها ورعايتها والاحسان إليها ، لا في الرضا فحسب ، بل ولو تغير القلب عليها أو فتر حبه لها ، حيث لا رية ولا نشوز » وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فحسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، .. « لا يفرك » (١) مؤمن مؤمنة ، إن أبغض منها خلقا أحب منها خلقا آخر ، وقد اخبر الله تعالى عن الصالحات بأنهن « قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » هذه حياطة الإسلام للبيت ، حتى تمضي ربحه رخاء لينة . يستمتع الزوجان فيها بحياة سعيدة هائلة وينشئان اسرة كريمة صالحة .

علاج كل من الزوجين لصاحبه

ولكن الحياة ليست كلها ورودا وأزهارا ، بل إن أشواكها من حول الورد ، وسماؤها لا تأمن السحب أو الاعاصير ، فواجب الزوجين في نظر الإسلام الحكمة والتريث والبصيرة والعلاج .

فان بدا من الزوجة نشوز أو تمرد بعد كل ما قدمنا من رعاية الرجل واحسانه ومداراته فلا مجناح عليه أن يقف منها موقف المربي الحكيم بلين القول ، وصواب التوجيه والارشاد ، أو بالهجر في الفراش حتى يظامن من كبريائها عليه — فان لم تفد نصيحة ، ولم يغنه إعصاء وهجر ، فقد رخص له في ضرب خفيف ، فان إطاعت المرأة واستقامت على الجادة عاد الرجل اليها على خير ما كان ، وليس له عليها من سبيل . — هذا ما يرشد إليه اللطيف الخبير اذ يقول :

واللّاق تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ،
فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا .

كذلك إن خافت المرأة من زوجها نشوزا أو فتورا في مودتها ، فلا بأس
أن تحاول ترضيته وإصلاحه بما أوتيت من لطف وكياسه وتخفّض له جناحها
وترفق به في بعض رغباتها وحقوقها . قال تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها
نشوزا أو إعراضا ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ،
وأحضرت الأنفس الشح . وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان عفورا رحيمًا ،
وكثيرا ما ترى ذلك العلاج اليسير دافعا لشر كبير ، وخطر جسيم يهدد
العلاقة الزوجية فيداوى أمرها ويطب لدائها .

التحكيم

أما إن تفاقم الخلاف بين الزوجين حتى خيف الشقاق فليس للرجل أن
يغالى في إيذاء ، أو يعتمد إهانة وقسرا ، بل هناك الحكمان ينظران في أمرهما ،
ليصلحا ذات بينهما ، وذلك قول الله سبحانه : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا
حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان
علما خبيرا ،

ومن لطف القرآن ، وحسن تهديده إلى غايته ، ورغبته في دوام عشتها
أن يذكر الإصلاح واعداد منحها التوفيق من عند الله ، ويضرب صفحا عن
ذكر ما يقابله . عن ابن عباس قال : أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلا صالحا
من أهل الرجل ، ورجلا مثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسيء فإن كان
الرجل هو المسيء حجبا عنه امرأته ، وقصرموه على النفقة وإن كانت المرأة
هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة ، فإن اجتمع رأيهما على أن

يُفَرِّقَا أو يَجْمَعَا فأمْرهما جائز ، فإن رأيا أن يَجْمَعَا فرضى أحد الزوجين وكره الآخر ثم مات أحدهما فالراضي يرث الكاره ، ولا يرث الكاره الراضى .. رواه ابن كثير فى تفسيره للآية المذكورة من سورة النساء

وبعث عثمان رضى الله عنه ابن عباس ومعه اوية حكيم بين عقيل بن أبى طالب وزوجته فاطمة بنت عتبة بن ربيعة (١) وقال : ان رأيتما ان يَجْمَعَا فَيَجْمَعَا وان رأيتما ان يَفْرَقَا فَيَفْرَقَا ، فقال ابن عباس : لأفرقن بينهما ، فقال معاوية ما كنت لأفرق بين شخصين من بنى عبد مناف ، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما فرجعا من حيث جاءا .

هذه هى الخطوات الاسلاميه فى رعاية الحياة الزوجية وتقويمها ، واصلاح ما يطرأ عليها ، فان تباعدت مسافة الخلف ، ولم يجد كل ذلك فى عودة المياه إلى مجاريها ، وعجز الحكمان عن التوفيق فليس الا التسريح باحسان ، وإن يتفرقا 'يغن الله كلاً من سعته ،

الطلاق عملية إنقاذ :

فقد شرع الله الطلاق حال ضرورة لا معدى منها ، ولا يحيد عنها ، شرعه علاجاً من خطر محقق لا يقاس الطلاق اليه شيئاً - خطر انهيار الحياة الزوجية انهياراً يجعلها جميعاً لا يطاق ذلك الخطر الذى نشاهد بعض آثاره لدى قوم لا يباح لهم الطلاق وناهيك بخطر يحمل صاحبه على الفرار من دينه واعتناى سواه ، أو يدفعه الى الخروج من انسانية يقتل النفس وازهاق الروح ، أو يُدْخِلُه الى الكفر

« ١ » وكانت تكثر عليه فى السؤال عن ابها واخيها قتيل بدر ، وتقول له أين عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، فلما ألحت عليه قال لها : على يسارك فى النار اذا دخلت ، فشدت ثيابها فجاءت عثمان فذكرت له ذلك فضحك وأرسل الحكيم

برجولته فيغرى آخر بالوصول الى حليلته لتضبط متلبسة بجريمة الزنا فيتاح له فراقها
ليس من شك في أن الطلاق علاج ، والعلاج لا يحتاجه الصحيح ، ومن
العلاج ما يكون بترا ، ولن يغض من فكرة التداوى أن يخطيء مريض أو مرضى
في تعاطى الدواء ، أو يسرفوا فيه فيشقوا به . والطلاق بعد ذلك في نظر الاسلام
مُضيق فيه كل التضيق ، مبغض الى الله ورسوله . وقد رأيت كيف تصان الحياة
الزوجية ويصبر على شدائدھا ، ويعالج الزوج زوجته ، والزوجة زوجها ثم
الحكمان يعمدان الى الإصلاح .

فان استقر امرهما على الفراق ، وعزما على الطلاق ، فقد جعل الاسلام
حينئذ لمن بيده العصمة عادة وهو الرجل ان يوقع الطلاق في حال لا يتعداه
إلا ظالما ، وهو ما أمر الله به في قوله : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ،
أى مستقبلات لعدتهن ، وذلك في طهر لم يمسه فيها ، أما إن كانت حائضا او
طاهرا مسها فلا يجوز له طلاقها .

روى البخارى ومسلم أن ابن عمر طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر ذلك
عمرُ للنبي ﷺ ، فتغيظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ثم يمسه »
حتى تطهر ثم تحيض ، فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسه ،
فتلك العدة التى امر الله أن يطلق لها النساء .

وفى الحديث على هذا النحو من التقدير لأحاسيس النفوس ودخائلها ، وفيه
من دقائق التشريع وروائعه ما يراه الدارس الفاحص لأى ناحية من
نواحي الاسلام .

فالنبي لم يُقر الطلاق زمن الحيض ، وأمره بإعادتها كما كانت وإمسكها ،
لامدة الحيض فحسب ولكن طهرا كاملا بعده ، ثم تحيض مرة أخرى ثم تطهر

فإن شاء أمسك ، وإن شاء طلق ، وتعم النظر في الهدى النبوى فتراه إصلاح ذات
البين إن كان إليه سبيل ، فالمرأة غير مرغوب فيها زمن الحيض ، يسألونك عن
الحيض قل هو اذى ، فاعتزلوا النساء فى الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ،
وقد يكون الرجل نائرا الأعصاب ، ضيق الصدر من حيث لا يشعر ، فلا
يباح له الاقدام على أمر يهدم به بيتا عامرا فى ثورة نفسية عارضة قد يندم
عليها اشد الندم ، فحظر عليه الطلاق اثناءها ، حتى إذا جاء الطهر الاول امره
كذلك بالامساك عسى ان يكون فيه ما يكون بين الرجل وزوجته فيزول
ما بنفسه وتسكن فأثرته ، ويعود اليهما الصفاء ، وقد تحمل المرأة فيدعوه
حملها الى امساكها .

أما إن أصر بعدد على الفراق فلن يكون ذلك غالبا إلا لحاجة ظاهرة ، أو
ضرورة قاهرة ، فله أن يطلقها مستقبلة لعدتها فى طهر لم يمسه فيها ، ومثل ذلك
ما لو طلقها حاملا قد استبان حملها ، ولم يعطفه ذلك عليها ، دل صنيعه
على تمكن الخلاف والشقاق ، فلا طلاقا تطليقه ، وليتق الله فى معاملتها ، لا يخرجها
من بيتها التى هى فيه ، ولا ينبغى لها ان تخرج ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ،
اى فلعلة يندم على تطليق زوجته ، وتندم هى على فراق زوجها ، فيفينا الى باحة
الرضا قبل حلول الاجل .

فاذا أشرف الاجل على الانتهاء وآذنت العدة بالانقضاء ، فقد وجب البت
فى شأن العلاقة المعقدة ، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، وليشهد الأمر عدلان
صالحان ، عسى أن يكون حضور الأخيار داعية الخير والرضا قال تعالى :
« يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ،
لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك

حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذاكم يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، وهذا الطلاق الأول هو المعروف بالرجعي - واحدة من ثلاث - لحق الرجل في ارتجاع زوجته قبل نهاية العدة . ومن طرائف المقروء في هذا الصدد ما نشرته صحيفة المصري بعدد الصادر في ٥ / ١ / ١٩٥٤ ونصه : « وضع قانوني انجائزي كبير مشروع قانون يقضى بإيجاد نوع من الطلاق تحت التجربة ، وذلك لكي يتيح للزوجين غير المتفقين فرصة مراجعة أفكارهما ، وتحديد الأسباب التي تدفعها للطلاق حينما يكونان في حالة انفصال بتي ، وقد أيدت الكنيسة الانجليكانية هذا المشروع . »

في النصف الثاني من القرن العشرين أي بعد نزول القرآن الكريم بقرابة أربعة عشر قرنا من الزمان يهتدى أحد المفكرين القانونيين إلى نوع من الطلاق يكون تحت الاختبار ، ليراجع الزوجان فيه أنفسهما ، ويحدد في هدوء موقفهما النهائي ، فهاذا نقول في هذا الذي « ابتكره للانجليز » أحد المفكرين ، وباركته كنيسته إن صح ذلك وأخذ به ؟

أنقول إنه الرجعية إلى أكثر من ألف عام ، أم نقول إن هذا التشريع الذي كانت صخور الصحراء وربما لها مهبط وحيه ومشرق صبحه قد أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض والذي وضع في النفوس فطرها وغرز غرائزها ، والذي يحيط بمكنونها ، « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، بلى وربى إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون . »

ولنمض في الموضوع نتملى آياته ، ونستجلى بيناته ، وتنظر في القرآن الكريم
فتراه لم يقطع الزوجية بمجرد الطلاق ، بل أمر المرأة بالنزول والانتظار ثلاثة
قروء ، فإن كانت حاملا وجب إعلانها للحمل عسى أن يتعاطفا ، ورجلها أحق
بها إن أرادا صلحا ، وذلك قول الله سبحانه « والمطلقات يتربصن بأنفسهن
ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكنتن ما خلق الله في أرحامهن إن كن
يؤمنن بالله واليوم الآخر ، وبعلتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ،
وليس له أن يراجعها لمضارها » ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل
ذلك فقد ظلم نفسه ، وكان الرجل في الجاهلية يطلق ماشاء ، ويراجع ما شاء
فكانت العلاقة الزوجية العوبة في يد السفهاء ، حتى بلغ من أمر رجل أن يقول
لزوجه : والله لا آويك . ولا أفارقك ، قالت : وكيف ؟ قال : أطلقك فاذا دنا
أجلك راجعتك ثم أطلقك فاذا دنا أجلك راجعتك ... فشكت المرأة لرسول
الله ﷺ فنزل قول الله تعالى « الطلاق مرتان (١) » وبهذا كان للزوجين فرصتان
للتراجع ، وكان الزوج في فُسحة من أمره مرة ومرة ، فاذا جاوزهما الى الثالثة
فقد أفلت الزمام من يده ، وضيق من أمره ما كان واسعا ، وليس له حق
ارتجاع مطلقة بعد أن ظهر جليا ألا خير في حياة مضطربة مليئة بأسباب
الشحناء والبغضاء .

فاذا قضت المرأة عدتها فقد حل لها النكاح بمن شاءت من الأزواج .
فإن سعدت بحياتها الجديدة في ظل الزوج الجديد فذاك ، وكثيرا ما يداعب
خيال المرأة حياتها السابقة ، فتود لو رجعت لسابق عهدها ، وقد تستبد بها الرغبة

١ رواه ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير ، والترمذي والحاكم

وبخاصة إن لم توفق في زواجها ، بل لعل ذكرى الزوج الأول تكون هي السبب
لاخفافها وقديما قال الشاعر :

نَقَلْ فِرَادَكَ مَا اسْتَطَعْتُ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ .
فلو طلقها الثاني ، وشاءت الرجوع الى الأول فلا عليها ، إن ظنا استقامة
أمرهما . عن عائشة قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظي ، وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ
فقالت : إن رفاعة طلقني ألبتة وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني ، وإنما معه مثل
الهدبة ، وأخذت هدبة من جلبابها ، قالت وخالد بن سعيد بن العاص
بالباب لم يؤذن له فقال : يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول
الله ﷺ فما زاد رسول الله ﷺ عن التبسم فقال رسول الله ﷺ كأنك
تريدن أن ترجعي إلى رفاعة ؟ لا ، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك (١)
النهى عن التحليل :

ومن شروط الزواج الثاني ألا يكون بقصد التحليل فقد نهى النبي عنه أشد
النهى ، ولعن فاعله وسماه التيس المستعار ، وبذلك لا تكون الصلوات الزوجية
ألعوبة في يد اللاهين . روى الترمذي وابن ماجة والإمام أحمد والحاكم أن رسول
الله ﷺ لعن المحلل والمحلل له ، وعن ابن عباس قال : مثل رسول الله ﷺ
عن نكاح المحلل : قال لا ، إلا نكاح رغبة ، لا نكاح دلسة . ولا استهزاء
بكتاب الله ، ثم يذوق عسيلتها ،

فإن طلقها الزوج الثاني فلا بأس بزواجها من الأول كما تقدم ، وذلك قوله
تعالى : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »
فإن طلقها فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن

يتراجعا إن ظنا أن يقيا حدود الله ... ، وعسى أن يكون في هذه التجربة الميرة على الرجل والمرأة معا ما يردهما الى الصواب والاعتدال ، والمحافظة على الواجبات ورعاية الحقوق المتبادلة ، ولعل ذلك يطامن من كبرياء الرجل اذ رأى امرأته وقد صارت حلية رجل آخر ، يملك من أمرها ما أضاعه هو بحمقه وجهله ؛ فلا يعود في معاملتها الى شطط وإسراف .

وقد يناسب هنا أن نورد ما تذكر التوراة في هذا المقام . جاء في سفر تثنية الاشتراع : (١) اذا اتخذ رجل امرأة وصار لها بعلا ، ولم تحظ عنده لعبب أنكره عليها ، فليكتب لها كتاب طلاق ويدفعه الى يدها ويصرفها من بيته (٢) فإذا خرجت من بيته ومضت وصارت لرجل آخر (٣) فأبغضها الرجل الآخر وكتب لها كتاب طلاق فدفعه الى يدها وصرفها من بيته أو مات الرجل الآخر الذى اتخذها له زوجة (٤) فليس لبعولها الأول الذى طلقها أن يعود ويأخذها لتكون له زوجة بعد ما تدنس ، فإن ذلك رجس لدى الرب ، فلا تجلب خطيئة على الأرض التى يعطيكمها الرب إلهك ميراثا ،

ولئن كان هنا يبيح الطلاق لعب في المرأة ، أو لبغضه إياها ، ثم يراها بالزواج الثانى دنتست فلا ترجع إلى الأول ، فقد اعتبر الانجيل الطلاق الالعة الزنا محظورا ، وجعل الزوج بالمطلقة زنا قد قيل من طلق امرأته فليدفع لها كتاب طلاق — أما أنا فأقول لكم ، من طلق امرأته الالعة زنا فقد جعلها زانية ، ومن تزوج مطلقة فقد زنا (٣) ولم أوردته مقارنة فقد جل الأمر عن المقارنة ، وانما لتأمل واقعية الاسلام ورحمته واعترافه بالضرورات ، وحرصه على رابطة الزوجية وقداستها الى أكبر الحدود ، ورعايتها فى الحب والبغض

وإعطائه الفرص للزوجين كي لا يفترقا إن استطاعا ذلك. ولم لا؟ وقد ورد ما
« أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق ،
حق المرأة في حل الزوجية :

وكما جعل الإسلام العصمة بيد الرجل حفاظا على هذا الميثاق المؤكد ،
وأباح له أن يحل عقدها على النهج الذي رسمه ، متحملا تبعات عمله ، وما يترتب
عليه من أعباء النفقة والمتعة والسكنى ، كذلك أجاز للمرأة أن تطلب التحلل من
هذا العقد إن لم تجد فيه ما تنشده من مودة ورحمة وهناء ، وللرجل استرداد
ما منحها من الصداق أو بعضه ، إن لم يكن هو الحامل لها بطلبه على طلب
الطلاق ، فتفتدى منه بما تراضيا عليه يقول الله تعالى : « ولا يحل لكم أن
تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما
حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها .
وجاءت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله ﷺ فقالت : « يا رسول الله
إنى ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام —
تعنى التقصير فى واجب الزوجية — ما أطيقه بغضا ، فقال رسول الله ﷺ
أتردين عليه حديقته ؟ قالت نعم ، فقال رسول الله : أقبل الحديقة وطلقها
تطليقة ، (١)

وشرع الفداء تُقدِّمه المرأة نظير ما طلبته من الفراق ، حتى لا يكون
عقد الزواج وسيلة لاقتناص مال الرجل ، والاستمتاع بخيراته وهباته ، وما يسوق
من صداق ، فإذا استنفد أغراضه لم تعد المرأة للعوب اختلاق الأسباب
للتحلل منه .

(١) رواه البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه والدارقطنى باختلاف يسير
بين الروايات .

أما إن دفعها الرجل بظلمه لها إلى طلب الطلاق ، فلا يحل له ما أخذ منها ، جاء في الموطأ في باب الخُلع : قال مالك في المفتدية من زوجها إنه إذا علم أن زوجها أضربها وضيق عليها ، وعلم أنه ظالم لها مضى الطلاق ، وردَّ عليها ما لها وقد حذر الإسلام المرأة من طلب الطلاق في غير ضرورة فقال صلى الله عليه وسلم : «أيا امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة» ، هذا هو الطلاق في الإسلام بين الرجل والمرأة ، ما أحله الله إلا رحمة ، وما ضيق فيه إلا رحمة ، وهو سبحانه أرحم الراحمين .

بعد الفراق :

لم تقف حقوق المرأة عند حد قيام العلاقة الزوجية وتبادل المنافع والرضا بين الجانبين ، بل امتدت إلى ما بعد ذلك ، فلها زيادة على صداقها النفقة والسكنى ما دامت في عدته ، وذلك قوله تعالى في سورة الطلاق : «وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن . . . » وسكنها في منزل الزوجية مدة العدة مستتبع نفقتها حتما كما هو مبين في السنة .

ولها فوق ذلك حق غير محدود القدر ، وإن كان محدود الوصف ، تطيبا لخاطرها وهي المتعة التي قال الله فيها : «ومتعوهن على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره . . . » ، وقال : «ولللطلقات متاعٌ بالمعروف حقا على المتقين ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون» .

وفي الإحسان إلى المرأة في حالة الفراق زيادة على المسمى لها ما يشعر بكرامتها على الرجل ، وكأنه تكفير عن خطيئته في حقها ، وقطع لقالة السوء في شأنها ، وتحقيق للروح العام الذي يأمر به الإسلام بين الزوجين حتى في مواطن المشاحة والشقاق إذ يقول سبحانه «ولا تنسوا الفضل بينكم ، والله بما

تعملون بصير .

المسرفون على أنفسهم : وإن قوما أسرفوا على أنفسهم ، فلم يعبأوا بهذه الروابط المقدسة ، ولم يرعوها حق رعايتها ، وتنبكوا سبيل الدين ، فشقوا وأشقوا ، وعشوا بجرمة الزوجية حينما اتخذوا الطلاق توثيقاً لأيمانهم ، وتأكيذاً لأقوالهم وترويجاً لباطلهم ولعل بما ساعد على ذلك وأغرى به ما قرره بعض الفقهاء السابقين من اعتبار الطلاق من الأيمان الشرعية ، حتى بلغ الأمر في ذلك أن يعرفوه بقولهم : اليمين حلف بالله ، أو بحل عصمة . ولم يشرع الطلاق لليمين ، ولا هو من صيغته ، والحديث الشريف يقول ، « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » رواه البخاري وغيره . كما جر المتاعب الكثيرة والمفاسد الخطيرة ما عليه الجمهور من القول باعتبار الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاث طلقات .

وقد كانت القوانين الأخيرة التي صدرت في النصف الأول من هذا القرن لتنظيم الأحوال الشخصية خطوة جيدة في سبيل القضاء على فوضى الطلاق وما يتبعه من مفاسد التحليل .

وقد تكلم الناس قديماً وحديثاً في تطليق الرجل زوجته ثلاثاً بلفظ واحد مع إجماعهم على أنه مخالف لما شرعه الله سبحانه من جعل الطلاق مرة مرة فقالوا : هل يلزم في ذلك ما ألزم به نفسه فيمضي الطلاق ثلاثاً ؟ أو يلزمه واحدة لأنه لا يملك في المرة أكثر من ذلك ؟ أو أن طلاقه على هذا النحو لغو من القول فلا يلزمه شيء لأنه ليس بشرعي ؟ أقوال ثلاثة ولكل منها أدلته ، ولها اعتبارها .

ومضى العمل أخيراً على التوسط واعتباره واحدة ، كما اعتبر اليمين بالطلاق لغوا لأن اليمين لا يكون إلا بالله .

ويقول المرحوم الشيخ المراغي في تعليل ذلك بعد بحوث قيمة حول مواد القانون (١) والمصير إلى التفرقة بين قسمي المعلق ، وإلى إلغاء اليمين بالطلاق ، والمعلق الذي في معنى اليمين ، سيرد الناس إلى الشريعة المطهرة ، وسيكون سببا في انقراض هذه الآيمان ، وهذه التعليقات لعدم الفائدة منها ، إذا قيل بعدم الوقوع لأنها لا تكون أداة توثق بل تكون من لغو الكلام .

وقد عرف القول بوقوع الثلاثة في لفظ واحد عن الأئمة الأربعة ، ومعظم أتباعهم ، كما عرف القول بوقوعها واحدة فقط واعتبار الزائد لغوا عن أئمة آخرين متقدمين وشهر بذلك من المتأخرين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، والشوكاني ، فقد دافعوا عنه ، وأيدوه أتم تأييد . ويدكر ابن رشد وهو سابق على ابن تيمية بقرب أو يزيد في كتابه بداية المجتهد خلاف العلماء في ذلك ويروي مذهب الجمهور وغيرهم ويقول : وسبب الخلاف هل الحكم الذي جعله الشرع من البيونة للطلقة الثالثة يقع بإلزام المكلف نفسه هذا الحكم في طلبة واحدة ؟ أو ليس يقع ولا يلزم من ذلك إلا ما ألزم الشرع ؟ ثم قال بعد التوجيه لسلك منهما : وكان الجمهور (١) غلبوا حكم التغليب في الطلاق سدا للذريعة وعلق عليه بقوله . ولكن تبطل الرخصة الشرعية والرفق المقصود في ذلك أعني في قوله تعالى : « لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ،

وقد أصاب بن رشد الحز فيما أخذه على الجمهور من الاحتياط الذي جاوز الرفق المقصود . وفي الحق أن القول بوجوب تفريق الطلاق ، وأنه لا يمضي من ذلك إلا ما شرعه الله لا ما تجاوزته الناس بطغيانهم هو ما يناسب صريح القرآن

« ١ » من كتاب بحوث في التشريع الإسلامي وأسانيد قانون الزواج والطلاق

« ١ » أي في قولهم بوقوع الثلاثة في طلبة واحدة

الكريم والسنة المطهرة ، ويتفق وروح التشريع وبالله التوفيق .

كلمة خاتمة

وقد بقيت هنا كلمة لا بد منها بشأن ما دأب فريق من الناس وبخاصة الهيئات النسائية على المناداة به من تقييد الطلاق وجعله بيد القاضى ، ومنع تعدد الزوجات ، وعينت الصحافة ببحث هذه الموضوعات التى تجلى اهتمام الرأى العام بها ، وخصصت جريدة المصرى زمنا طويلا صفحة السبت لعلاجها ، وتلقى آراء المواطنين فيها من مؤيد ومفند

ولو رجع هؤلاء المولعون والمولعات بتقليد الغرب إلى حمى الإسلام يستمدون منه صيانة الأسرة وحفظها لكان لهم فوق ما يطلبون .

لقد كان معقولا أن يعذروا فى التقليد إذ عجزوا عن الاجتهاد يوم كان الغربيون راضين بحالهم ، محافظين على تقاليدهم ، مراعين لأسرهم ، سعداء فى حياتهم لم يصيروا إلى الطلاق ، ولم يكثروا منه ويسرفوا فيه برغم ما يحوطه من تعقيد شديد .

نعم لقد كانوا أحرىء بالمعذرة يوم لم يثر الغربيون على قيود الطلاق تلافيا للآثار الخطيرة الناجمة عن انفصال الزوجين واقعا ، وإن أنكر القانون حدث كاتب معروف (١) عن مشاهداته فى بريطانيا أثناء إقامته بها زمنا طويلا ، أن من النساء من ينفصلن عن أزواجهن سنين عددا ، حيث لا أمل فى المعاودة ويحسد كل من الزوج والزوجة عوضا عن صاحبه من منفصلين ومنفصلات يتعاشران بدون وجه قانونى ، وما ذلك إلا لحظر الطلاق فى الانفصال قبل مضى أربع سنوات ، وكثيرا ما يعجز طالب الطلاق منهما عن دفع رسومه الباهظة

١ ، الأستاذ عبد المنعم الصاوى فى كلمات قطر الندى من جريدة المصرى

فيفضل الطلاق وروى فيما روى حادثة لوزير بريطاني تعمد ستر اسمه هجرته زوجته إلى رجل أمريكي يشتغل بالسينما حيث رحلت معه إلى أمريكا ، بعد أن أنجبت من هذا الوزير ولدا ، هو الآن وزير على سنن أبيه ؛ في دراسة أحوال المستعمرات ، وانتظر الوزير سنوات حتى حكمت له المحكمة بالطلاق ، وساعتها أحس أنه رجل استعاد كبرياءه الجريح وصحح موقفه من سيدة هجرته إلى سواه .

بل لقد ثار مجلس العموم مرات ، وهب النواب في وجوه الوزراء مطالبين باسم مواجهة الواقع أن تصدر الحكومة من التشريعات ما يخفف من قيود الطلاق علاجا للساوى الاجتماعية التي ستخلق حياة الأسرة وتهدد مصائر الأطفال .

إن منع تعدد الزوجات المقترح ، وتقييد الطلاق إلا بإذن القاضي على أحسن الفروض بما يلوح فيهما لبعض الناس من بريق النفع وظاهر العلاج أشبه ما يكون بأمرين قال الله فيهما : « ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما »

فلئن كان فيهما نفع فهما ضاران ، والضرر فيهما بالغ الرجحان ، وخير من ذلك أن نعالج الأسرة بما عالجها الاسلام ، فنعلّمهم أحكامه وآدابه ، وما فرض الله لرعاية الأهل والأبناء حتى يقيم كل رجل من نفسه رقبيا على نفسه ، وتجعل كل أنثى لنفسها هاديا وزاجرا من نفسها فتمضى سفينة البيت في بحر الحياة هادئة مطمئنة مليئة الجوانب بالرحمة والسكينة والمحبة ، بريئة من الأدواء ، وفي ذلك الشفاء وأى شفاء .

المهارة في الميراث والشهادة

لعل من نافلة القول ومعاد الحديث ما يقال من أن المرأة في الإسلام شقيقة الرجل وصنوه ، خلقت منه وخلق منها ، فهي بنت وأخت وأم ، وهو ابن وأخ وأب ، خاطبها الإسلام كما خاطب الرجل ، وشرع الفرائض والعبادات ، ورتب الحساب والجزاء ، للرجال والنساء جميعا ، وهل بعد هذه الآيات الكريمة التي يفيض بها القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ من مقال لقائل فيما كرم به الإسلام المرأة ، وصانها ورفع شأنها ، وحفظ منزلتها .

وأجمع العلماء على أن كل ما كان من أوامر الدين ونواهيه وآدابه وتشريعه للناس فهو عام للرجال والنساء ، سوى ما تقتضيه التفرقة الضرورية بين الرجل والمرأة في الطبيعة والفطرة وما يتبع ذلك من آثار .

للبنت على أبيها حق الرعاية والتربية والتعليم كما هو حق أخيها ، والمرأة حقوقها المدنية ، ولها من الحقوق السياسية ما تملك به التوجيه والإرشاد ، وتسهم به في صلاح الحياة العامة .

لها تملك المال ، والتصرف فيه ، وحرية اختيار زوجها وشريك حياتها ، ولها الحقوق الخاصة بكونها زوجة وأما كفاء ما عليها من تبعات جسام ، كذلك لها حق الولاية كما للرجل ، تأمر بالخير وتنهى عن الشر ، وتدلى برأيها ، وتنصح للمؤمنين ، فإذا قال الرسول ﷺ « الدين النصيحة ... » فالقرآن الكريم يقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، ويقولون في مقابل ذلك والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون

بالمسكر ، ويتهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم نسوا الله فَنَسِيَهُمْ ،

ونعتقد أن ذلك واضح لا يحتمل مزيدا من البيان .

وقد يبدو أن التفرقة بين الرجل والمرأة في الحقوق المدنية واضحة في الميراث والشهادة ، فقد جعلت المرأة على النصف من الرجل في أكثر صور الميراث كما اعتبرت شهادتها على النصف في الأموال . ومن فهم هذه التفرقة على أنها تفضيل للرجل على المرأة فقد غبن عقله كما غبن الحق على السواء .

والحق الذي لا ريب فيه أن الإسلام أعطى المرأة من المال أكثر مما أعطى الرجل ، وجعل لها من الحق فيه ما لعله يوازي ضعف ماله أو يزيد ، وذلك لأن المرأة في طبيعتها أضعف منه جسدا ، وأقل كسبا ، فوق ما تشغل به من الحمل والإرضاع .

فالمرأة وهي بنت لها النفقة على أبيها كاملة ، فإذا تزوجت فنفقها على زوجها ثم ابنها من بعد ، فإن احتاجت ولا عائل لها فعلى بيت مال المسلمين .

أما أخوها فله الرعاية والنفقة إلى البلوغ قادرا على الكسب ، فإذا تم له ذلك احتمل من واجبات الأسرة الشيء الكثير ، فعليه نفقة أبيه وأمه إن احتاجا إليه ، وعند تكوينه أسرته الخاصة يقدم الصداق لزوجته ملكا خالصا ، ونحلة طيبة ثم عليه نفقة زوجته وأبنائه ، يعولهم ويقوم بأمرهم .

فإذا كانت المرأة لا تكلف نفقة في صغرها ، ولا ما لا في قرانها ، أو بيت زوجها ، فما أخذته ميراثا من أبيها أو صداقا من زوجها فهو فوق حاجتها ، ولعلها تدخره لبعض أيامها ، أو تزيد به في استمتاعها ، أو تضيفه طائفة مختارة لمال زوجها بعد أن جعلت المودة والرحمة منهما غاية واحدة وهدفا واحدا . فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ،

ولعل إنسانا يرى في ذلك غضاضة على المرأة حيث تكون عالة على غيرها بل لعل المرأة نفسها ترى فيه ما يخفض من أمرها ، وعندى أن ذلك شعور المرأة التي نشزت على طبيعتها ، وتمردت على فطرتها ، فالمرأة إذ يغذوها أبوها صغيرة تشارك في أعباء البيت وواجباته بما يوفر الخير والراحة لآلها وذويها وهي مع زوجها تنجب له وللحياة قرة أعين ، وعماد ظهر ، تغدق عليهم من دمها ولبنها وعافيتها ما يمنحهم الحياة والقوة والشباب ، فوق ما ترى له من بيته وماله .

عرضت سيدة من النساء القانونيات في مؤتمر تورنتو بإيطاليا مندوبة مصر وكانت تشرح ما تتمتع به المرأة المسلمة من حقوق ، وتذكر فيما تذكر الصداق يدفعه الرجل للمرأة عند رغبته الزواج بها ، وقاطعتها قائلة : إن معنى ذلك أن الرجل يشتري المرأة بما يدفعه لها من صداق ، فأجابتها مندوبة مصر : (١)

إن ذلك على كل حال خير من أن تشتري المرأة الرجل عندما تدفع له «الدوطة» ، فإن وجدت امرأة تحس غضاضة في أن يدفع لها الرجل صداقا من ماله يتودد إليها ويشعرها بحبه لها ، وتوطئنه النفس على البذل في سبيلها كي تقبل مشاركتة الحياة وانتقالها إلى بيته ، فكم تحس هذه المرأة وسواها من أضعاف تلك الغضاضة وهي تسعى إلى الرجل بنفسها ، وتبذل له من ماله ، وتخريه على قبولها ، لتشاركه بيته وتنسج من لقبها لتفنى فيه ، وتحمل بدلا من لقبها لقبه .

ثم إن المال الموروث ليس هو كل ما يتمول ، فكم من وارث أضعاف ، ومعدم ملك القصور والضياع ، وهي لا تمنع التجارة ، ولا استثمار المال إن شاءت .

هذا : ولو تخيلنا نظاما آخر ، ولم نلتزم مبادئ الله في كتابه الحكيم إذ يقول : «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين» ، أو كنا من مذهب

(١) الأستاذة عطيات الخربوطلي المحامية والبقية في فصل المرأة والحياة السياسية

أولئك الأولى والثلاثى درسوا ودرسنا : الاسلام فى ارقى جامعات أوربا ، (١) ومومنا الامور ، ولبسنا الحق بالباطل فقلنا : ان الاسلام أعطى المرأة النصف فى بيئة لا ترى لها شيئا على سبيل التدرج ، وهو بهذا لا يمنع المساواة الكاملة ، لأن الانصاف غاية ، لو تخيلنا ذلك القيل ، أو تجاوز المتجاوزون تعاليم الاسلام فى هذا الأمر فكيف نحدد العلاقة بين الرجل والمرأة ، أنكلهما تكليفا واحدا ، وانفاقا مساويا ، وكسبا معادلا ؟ وهل تطيق المرأة ذلك وهى مشغولة الجسم والعقل بالبيت والأبناء ، وهل يكون ذلك فى صالح المرأة والرجل على السواء ؟

ألا إنها القشور تصرف عن اللباب ، والتغرب يبعد عن الصواب ، وقد كان فى هدى الله الحكمة وفصل الخطاب ، والآيات البينات لقوم يبصرون .

الشهادة :

اما الشهادة فقد جاء فى القرآن الكريم فى شأن المعاملات المالية والمداينات بين الناس من سورة البقرة « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل احدهما فتذكر احدهما الاخرى »

وعلى ذلك بعض المفسرين ، بأن النساء ناقصات عقل ودين ، فلم تعتبر شهادتهن الا لضرورة من عدم توافر شاهدين من الرجال وقبلت مكملة لا مستقلة ويرد ذلك التعليل عالم جليل من المتأخرين ويقول : والسبب الصحيح ان المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوزات ، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة . ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى

« ١ » من كلام دكتور صحفية كانت ترد على من جهلها بالاسلام

شغلها ، فانها فيها أقوى ذاكرة من الرجل . يعنى أن من طبع البشر ذكرانا
واناثا أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويكثر اشتغالهم بها — ولا
ينافى ذلك اشتغال بعض نساء الاجانب فى هذا العصر بالأعمال المالية ، فانه
قليل لا يعول عليه ، والاحكام العامة انما تناط بالاكثر فى الاشياء ،
وبالأصل فيها . (١)

فهل ما رآه الشيخ محمد عبده وقرره فى تفسيره رأى مجاملة على ما يزعم بعض الناس ؟
وقبل أن أسوق الدليل على صحة ما ارتآه ، وخطأ ما يخالفه أحب أن ألفت
النظر الى أن شهادة الرجل فى نظر الاسلام لا تقبل اذا شابها ما يضعف الثقة بها
من قرابة قريبة ، أو منفعة ، أو عداوة ، أو من نقص فى خلق الشاهد ومروءته
أو من غفلة تجوز عليه فيشتبه بها وجه الحق وان كان الشاهد فى نفسه صالحا
حتى إن قاضيا يقول : إن من أصحابي من أرجو بركته ولا أجيز شهادته . بل
لقد بلغ من التحوط فى أمر الشهادة واقامتها على وجهها ان يرفض بعض القضاة
شهادة الخليفة لأن احدا لا يستطيع ان يطعن عليه إن كان ثمت مطعن .

وحيث كانت المرأة فى المالىات غالبا ضعيفة الذكرة فلا بأس أن يطلب
لشهادة سواها من يرضى عنه من الرجال . توثيقا لهذه المعاملات ، وصيانة
للرأة عن ميادين المنازعات والخصومات ، فان اضطر الحال الى استشهادها
فلتكن شهادتها على النصف تعويضا لما يشوبها من ضعف ، وإتيان صيغة
المبالغة فى التعبير القرآنى « واستشهدوا شهيدين .. » إحياء بوجوب التوثيق
والاحتياط الذى يحتم اختيار الاكمل من الشهداء . اما هى فيما تحسنه فشهادتها كاملة

نافذة على الرجال والنساء ، وشهادة الرجل فيما يخص النساء ليست بذات موضوع
ولعل أعجب من ذلك ان تقبل شهادة المرأة الواحدة في القضية الهامة مما
يتعلق بأعمالها ، ولا نعلم شاهدا واحدا من الرجال يكفي الا ان يكون معه شيء
آخر يقويه كيمين صاحب الدعوى ، والمرأة اعتبر النبي ﷺ شهادتها وحدها
وقضى بها ، ولم يكن حكمه خاصا ، ولا تحوطا كما فهم البعض ، بل كان عاما
وجازما ، ولذا استدل به فريق من الأئمة ، وان قالوا : بان شهادة الشئتين أحوط
روى البخارى في صحيحه تحت ترجمة : باب شهادة المرضعة بسنده عن عقبة
بن الحارث قال : تزوجت امرأة فجاءتني امرأة سوداء فقالت : أَرْضَعْتَكُمَا
فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ تَزَوَّجْتُ فُلَانَةَ بِنْتَ فُلَانٍ فَجَاءَتْنَا امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ فَقَالَتْ
لِي أَرْضَعْتَكُمَا وَهِيَ كَاذِبَةٌ فَأَعْرَضَ (عَنْهُ) فَأَتَيْتُ مِنْ قَبْلِ وَجْهِهِ فَقُلْتُ إِنَّهَا كَاذِبَةٌ
قَالَ : كَيْفَ بِهَا وَقَدْ زَعَمْتَ أَنَّهَا أَرْضَعْتَكُمَا — ففارقها عقبة ونكحت زوجها غيره
وترجم عليه الشوكاني في نيل الأوطار : باب شهادة المرأة الواحدة بالرضاع
قال : وروى الحديث أحمد والبخارى ، وذكر رواية أخرى وقال رواه الجماعة
الا مسلمان وابن ماجه ، وناقش آراء العلماء وصحح العمل بشهادة الواحدة (١)
وفي حاشية ابن عابدين في نصاب الشهادة قال : والبراءة وعيوب النساء
وما يطالع عليه الرجال امرأة حرة مسلمة والثنتان أحوط . (٢)

فاين هو نقص العقل والدين في ذلك كله ؟ أليس من حقنا اذا أن نرفض
التعليل الذي ساقه بعض المفسرين غير آسفين ، وهل هو الا التحوط البالغ في
قبول الشهادات لما يترتب عليها من قضاء نافذ الأحكام بليغ الآثار ؟ ومن هذا

القبيل رد شهادة البادى على المقيم ، لضعف خبرته في شئون الحاضرة ، فقد نهى النبي ﷺ ان يشهد بدوى على حضرى وفي رواية أبى هريرة انه سمع رسول الله ﷺ يقول : لا تجوز شهادة بدوى على صاحب قرية . رواه ابو داود وابن ماجه . (١) قال في نيل الأوطار قال الخطابي يشبه أن يكون انما كره شهادة اهل البدوي لما فيهم من عدم العلم باتيان الشهادة على وجهها ولا يقيمونها على حقها لقصور علمهم عما غيرها عن وجهها ، وكذلك قال أحمد . وبه قال مالك وابو عبيد . (٢)

بقيت كلمة لعلها تحوكم في صدر بعض الباحثين ذلك أن القول بنقص عقل المرأة والاستدلال عليه بأن شهادتها على النصف ، ونقصان دينها لانها تترك الصلاة والصيام ايام حيضها مروي عن النبي ﷺ فليس ذلك من عند المفسرين حتى نرده عليهم .

والجواب يسير ، نعم قد ورد ذلك في الصحاح ، وله شواهد تؤيده وتقويه فلا يجوز الطعن عليه ولا انكاره مسaire لاسراف المسرفين ، بيد انه استعمل هنا كما يستعمل قوله تعالى : ولا تقربوا الصلاة .. « أو ويل للصليين » جاء مقتطعا من مكانه ، مستعملا في غير وجهه ، فضعف المرأة في غير اختصاصها واقع لاشك فيه ، وشهادتها اذا على النصف بنص القرآن الكريم ، فهي قد نقصت في غير ميدانها ، واكتملت في شئونها بأكثر مما اكتملت شهادة الرجل في ميدانه الذي تقبل شهادته فيه ، فكان ذلك نقضا يعوضه كمال آخر ، وكان تركها الصلاة والصيام في الحيض والنفاس نقصا في أعمال الدين لانلام عليه ولا تؤاخذ فيه . قالت عائشة : خرجت عام حجة الوداع حتى كنت قريبا من مكة فحضت

(١) ابن رشد في مقدمة - الشهادة ص ٤٥٣ (٢) ج ٨ ص ٢٩١

قالت : فدخل على النبي ﷺ وأنا أبكي فقال : أنفست ؟ يعني الحيضة قلت
 نعم : قال : إن هذا شيء كتبته الله على بنات حواء ، فاقضى ما يقضى الحاج غير
 ألا تطوفى بالبيت حتى تطهري . فإذا جاء بعد ذلك نصيحة رسول الله ﷺ
 للنساء وأمره لهن بالصدقة والاستغفار ، ونهيهن عن الشطط والاسراف ،
 وتحذيرهن من فطرتهن ، وما جبات عليه النفوس من نزغات وأهواء ، وما طبع
 المرأة خاصة عليه من عاطفة غالبية جموح ، فليس في النصيحة والتحذير انتقاص
 أو تحقير ، بل ما هو إلا أن يسمعه النساء فيسألن عن سر ما خفي ، ويستزرن
 من المعرفة ، ويسترحن إلى النوجيه الكريم ، ويبادرن إلى الصدقة والاستغفار .
 روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : خرج رسول الله ﷺ في
 أضحي أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال : يا معشر النساء تصدقن وأكثرن
 الاستغفار ، فإني أريتكن أكره أهل النار فقلن : وبم يا رسول الله ؟ قال :
 تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب
 لب الرجل الخازم من إحداكن ؛ قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟
 قال : أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ؟ قلن بلى قال : فذلك من نقصان
 عقلها أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ قلن بلى قال : فذلك من نقصان
 دينها - وفي رواية ابن عباس عنده . فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم ، وبلال
 يأخذ في طرف ثوبه . ذاك نقص فيما لا تحسنه ، وهذا نقص في العمل ، ولو
 كان نقصا في حقيقة الدين ونور اليقين لكان المريض والمسافر بترك الصيام
 ناقصين في الدين ، وكان الفقير يعجز عن الزكاة والمريض عن الجهاد كل منهما
 ناقص الدين ، ولم يقل بذلك أحد من المسلمين .

وهل يعقل أن النبي ﷺ يفرق بين رجل وزوجته ويهدم بيتا قائما بشاهد
 ناقص العقل ناقص الدين ؟

وقد جاء قول النبي ﷺ في وصيته للنساء وتحذيره لهن كقوله لرجلين من الأنصار . . إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم ، وإنى خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا فنهلكا ، وكقوله : الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة وكقوله تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى - إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين - والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا . . . وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا - إن الإنسان لظالم كفار ، كل ذلك وأشباهه بيان لبعض الطبائع السوء ، وتحذير من غوائلها ، ولا يمنع ذلك من أن يكتب الله التكريم لأبناء آدم ويقول : « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ، ويقرن الطيبات والمؤمنات بأخوانهن من الطيبين والمؤمنين ، ويركم الخبيثات والمنافقات بأشباههن من الخبيثين والمنافقين فيقول سبحانه : « الطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ، والخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات » ، ويقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض - والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، فمن الغبن إذاً أن يسوق الرجل أمثال هذه التحذيرات والتنبهات والوصايا في شأن المرأة مساق التهوين والتحقير ، مقتطعة عن روحها ومساقها ، ولو أنصف لأغناه ما يعلمه من نقص نفسه ، عن الإساءة لصنوه وبنات جنسه .

المرأة والحجاب

جاء في شأن الحجاب من سورة الأحزاب بصدد الحديث عما يجب على المسلمين لبيوت النبي ﷺ ونسائه من التعظيم والتوقير والاحلال قوله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِ بْنِ إِنَاهٍ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا، وَلَا مَسْتَأْنِسِينَ لحديث، إن ذلكم كان يؤذى النبي ﷺ فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق شيئا، وإذا سألتهم من متاعا فاسألوهن من وراء حجاب، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا، إن ذلكم كان عند الله عظيما،

وقد نزلت هذه الآية الكريمة في السنة الخامسة للهجرة بعد بناء النبي بزينة بنت جحش رضي الله عنها، وقد دعا إلى طعام فأكل القوم وانصرفوا عدا ثلاثة جلسوا يتحدثون وطال بهم المقام، وفي بعض طرق الحديث يقول أنس: دو تخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، وزوج رسول الله ﷺ التي دخل بها معهم مولية وجهها إلى الحائط، فأطالوا الحديث، فشعقوا على رسول الله ﷺ، وكان أشد الناس حياء، ولو علموا كان ذلك عليهم عريزا، فقام رسول الله ﷺ فسلم على حجرة وعلى نسائه فلما رآوه قد جاءظنوا أنهم قد ثقلوا عليه فابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر.

ولم تسكن زوجات النبي ﷺ قبل محجابهن كما هو الشأن حينذاك، بل اشتركن فيما يشترك فيه سواهن من المؤمنات، فقد حضرت عائشة غزوة أحد، وحملت الماء وسقت الجرحي، وشمرت عن ساقها مع نسوة آخر، وكان بيت

النبي مقصودا من الجميع يدخل المؤمن والمنافق عليه فيه ، ولا بد من صيانة خاصة
لحرمة هذا البيت المطهر تجاه قالة السوء من مرضى القلوب والمرجفين ، قطعاً لسيل
الأذى من السنة المنافقين .

وكان عمر يشير بالحجاب ويلح فيه ، أكل مرة طعاما مع النبي وأكلت
معهما عائشة ، فأصابته أصبعه أصبح عائشة ، فحذبه متأوها وقال : لو أطاع فيمكن ما
رأتكن عين ، فلما نزل الحجاب قرت عينه وأعين المؤمنين ، ويقول متحدثا بنعمة
الله وافقت ربي في ثلاث ويذكر منهن الحجاب .

وحجاب زوجات النبي إنما هو بالنسبة للأجانب من الرجال أما من عدا
هو لا فقد رفع سبحانه عن أمهات المؤمنين الجناح فيه فقال إثر الآية السابقة
: لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ، ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا
أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن ، واثقين الله إن الله كان على
كل شيء شهيدا ،

ومن تمام الحجاب لأمهات المؤمنين قوله تعالى مخاطبا نساء النبي : وقرن في
في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقن الصلاة وآتين الزكاة
وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم
تطهيرا ، واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ... ،

فكن لبيوتهن ملازمات ، لا يخرجن لغير ضرورة ، روى مسلم عن عائشة
قالت : خرجت مودة بعد ما ضرب عليها الحجاب لتقضي حاجتها ، وكانت
امرأة جسيمة تفرع النساء جسما ، لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر بن الخطاب
رضي الله عنه فقال : يا سودة والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين قالت :
فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي ، وإنه ليتعشى وفي يده عرق .

فدخلت فقالت : يا رسول الله إني خرجت فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت :
فأوحى إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال : إنه قد أذن لكن
أن تخرجن في حاجتكن (١)

كذلك نزل في اكتمال الصيانة لجميع النساء عند خروجهن لحاجتهن قوله
تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من
جلايبهن ، ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما ، وأنذر
الباغين الذين يعرضون للمؤمنات بالأذى أن يسלט عليهم رسوله فيخرجهم أذلة
فقال : « لأن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة
لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ،

والحجاب على النحو السابق من وجوب القرار في البيوت ، وإرخاء الستار
بينهن وبين الآخرين خاص بأمهات المؤمنين ، فقد حرم عليهن الاختلاط
بالأجانب ، ومكالمتهن أو معاملتهن لهم إلا من وراء حجاب ، ومن خرجت
منهن للغزو حملت في هودجها .

نقل النووي في شرحه لمسلم عن القاضي عياض قوله : فرض الحجاب بما
اختص به أزواج النبي ﷺ ، فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين
فلا يجوز لهن كشف ذلك لشهادة ، ولا غيرها ولا يجوز لهن إظهار شخوصهن
وإن كن مستترات إلا ما دعت إليه الضرورة من الخروج للبراز (٢)
وبالنسبة لغيرهن فالواجب المفروض على المرأة الستر والتصون والاحتشام
فلا تظهر محاسنها وزينتها للأجانب ، ولا تبدى من ذلك غير ما اعتيد كشفه
من الوجه والكفين .

روى أبو داود في سننه عن عائشة أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصح أن يرى منها إلا هذا — وأشار إلى وجهه وكفيه .

واللهيات أسوة حسنة بأمهات المؤمنين ، ولكن لم يفرض عليهن الحجاب أو القرار في البيوت ، كما فرض على زوجات الرسول ، فكان يشاركن في الجمع والجماعات ، والأعياد والغزو ، محتشمات غير متبرجات .

وقد ظن قوم الحجاب عاما وأوجبوا القرار في البيوت على النساء وقالوا :
لئن أمر بذلك أمهات المؤمنين وهن في الذروة من الطهارة والصيانة والعفاف ،
فغيرهن أولى ، ولا مشاحة في أن مملكة المرأة بيتها ، وأنه أصون لها وأليق بها ،
ولكن الله سبحانه لم يوجب على سائر النساء ما أوجب على أمهات المؤمنين ،
ولم يجعل لغيرهن من الكرامة والمنزلة ما جعله لهن ، ولم يحرم نكاح امرأة بعد
زوجها كما حرم نكاحهن بعد النبي ، فحرمة الرسول فوق كل حرمة ، ولهن من
ذلك شرف لا يعدله شرف ، وتبعان كفاء ذلك مضاعفة ، فمن أساءت ضوعف
لها العذاب ، ومن أحسنت أوتيت مرتين من الثواب « يا نساء النبي من يأت منكن
بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا ، ومن
يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ، وأعتدنا لها رزقا
كريما ، وتزيد الآيات معنى الخصوصية وضوحا ، وتبرزه تصريرا في قوله تعالى :
« يا نساء النبي لستن كأحد من النساء . . . »

فالحجاب كما هو ظاهر من الآيات خاص بأمهات المؤمنين .

روى أن أخت الأشعث بن قيس أو بنته تزوجها رسول الله ﷺ ومات
قبل أن يدخل بها فقبل طلقها ، وقيل أوصى بتخييرها — فتزوجت بعده عكرمة

ابن أبي جهل بحضر موت ، فشق ذلك على أبي بكر وأراد أن يرجمه ، فقال له
عمر : ما هي من أمهات المؤمنين ، ولا دخل بها ولا ضرب عليها الحجاب ، وقد
برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها ، فاطمأن أبو بكر وسكن (١) .

وكان النبي إذا خرج لغزو أو سفر أقرع بين نسائه ، فمن خرج سهمها
خرجت معه ، وكانت بعد الحجاب تحمل في هودج لا يراها أحد ، وغيرها من
نساء المؤمنين يسقين ويداوين ، وربما دعت الحال فباشرن القتال .

أما الآيات العامة في شأن المؤمنين والمؤمنات فهي آيات النور ، وليس فيها
على المؤمنات حجابٌ أو قرار في البيوت ، إنما فيها العفة في القلوب والأبصار ،
والتصون والستر والاحتشام قال الله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم
ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات
يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن ، أو
آبائهن ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله
جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

والخمار ثوب تغطي به رأسها ، وتجمل بعضه على صدرها ونحرها .
عن صفية بنت شيبة قالت بينا نحن عند عائشة فذكرن نساء قريش وفضلهن
فقالت عائشة رضي الله عنها : إن لنساء قريش فضلاً ، وإني والله ما رأيت أفضل
من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل ، لقد أنزلت
سورة النور « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » انقلب رجالهن إليهن يتلون
عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل

(١) رواه ابن الأثير في أسد الغابة من ترجمتها . وابن كثير في تفسيره عن ابن
جرير باختلاف يسير

ذی قرأته فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل (١) فاعتجرت به تصديقا وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبح وراء رسول الله ﷺ متعجرات كأن على رؤوسهن الغربان (٢) .

وهذه الآداب العالية التي شرعها الإسلام إنما هي صيانة للمرأة من العيون الشرهة ، والقلوب المريضة ، وحفظ لحياتها الحى أن يمس أو ينال ، وليس ظن سوء بها ، أو إهدار الحريتها ، بل قد صانها الإسلام أبلى الصيانة عن أذى الآلسنة ، وحى شرفها وعرضها من أفواه السفهاء والماجنين ، فعد قذف المحصنات من الموبقات ، وسلكه الرسول ﷺ مسلك الشك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، والتولى يوم الزحف . وسجل القرآن الكريم اللعنة في الدنيا والآخرة على قاذفي المحصنات ، وأمر بجلدهم ثمانين ، ورد شهادتهم ، وإسقاط كرامتهم ، لأنهم الفاسقون ، وعند الله هم الكاذبون فقال في مواضع من سورة النور والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم وقال : « فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » ، وقال : « إن الذين يرمون المحصنات المؤمنات الغافلات اعنوا في الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم ، وعلى منهج الصيانة والرعاية لكرامة المرأة جاء النهى عن خلوة الأجنبي بها ولو كان من أحمائها ، كذلك النهى عن سفرها سفراً طويلاً بدون محرم أو رفقة مأمونة ، حتى ولو كان ذلك للعبادة المفروضة . اكتب رجل في الجهاد

« ٢ » المرط المرحل : كساء من صوف أو خز فيه تصاویر — واعتجرت به لفته حول رأسها « ٣ » أورده ابن كثير في تفسيره من سورة النور ، ورواه عن البخاري — وعن أبي داود .

وكانت امرأته حاجة فأمره النبي ﷺ أن يذهب فيحج مع امرأته .

وإذا كان الدين يرشد إلى ذلك في حق المرأة صيانة ورعاية وحفظا .
فقد أرشد إلى مثله في حق الرجل ، فأمره بغض بصره ، فلا يتبع النظرة النظرة ،
ويحفظ فرجه ، كذلك نهاه عن السفر الطويل وحده وحذرته منه ، فقال رسول
الله ﷺ « الراكب شيطان والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب » رواه
الحاكم وغيره .

هذا هو هدى الدين يأمر المرأة بما يحفظ عليها دينها وشرفها وكرامتها ،
ويأمر الرجل بما يحفظ عليه دينه وشرفه وكرامته ، لا تفريط في شيء من ذلك
ولا إفراط ، لا تهاون يجر الضياع ، ولا تضيق يؤذي أو يغري بالتمرد والانطلاق ،
الحجاب عند المسلمين :

تلك حقيقة الحجاب في الإسلام ، أما الحجاب عند المسلمين فهو غيره في
الإسلام ، لقد كانت المعركة العلنية الدينية مشبوبة الأوار أوائل هذا القرن
حول كشف المرأة وجهها وكفيها ، وجواز ذلك أو حرمة ، وكان المسلمون
يتشددون في ذلك ولا يترخصون ، حتى ليقول كاتب ديني كالسيد رشيد رضا
« وكل ما استحدثه المسلمون في المدن والقرى الكبيرة من المبالغة في حجب النساء
فهو من باب سد الذريعة ، لا من أصول الشريعة » ويقول قاسم أمين بعد
ذكره مغالاة الفرنج في التكشف إلى درجة يصعب معها الصيانة : « وقد تغالينا
نحن في طلب التحجب ، والتخرج من ظهور النساء لأعين الرجال ، حتى صيرنا
المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات ... » ثم تبدل الحال غير الحال ،

« ١ » في كتابه ندام إلى الجنس اللطيف في الحجاب ص ١١١ « ٢ » في كتابه

تحرير المرأة عند الكلام على الحجاب

فاحتجب الحجاب تماماً أو كاد ، واحتجب معه الحياء وفاض ، وغدت الشوارع
مسارح لعرض الأزياء والألوان ، وأضحت الشواطئ سوقاً للأجساد والأبدان ،
وهصار ما كان يدعو إليه قاسم أمين من الحجاب الشرعى ، وما كان يدافع عنه
ويراه أصلاً من أصول الآداب ، تحلاً وإباحية وشهوات ، فلو امتد به زمن ليرى
الآن ما نحن فيه لتقطع قلبه أسى وحسرة بل لا تنفض استفاضة المحموم ،
وهب ثانية - وكان مدرها لقضية المرأة فى مستهل هذا القرن العشرين ، ليكون
مدرها لهاكرة أخرى ، فينادى قومه مخلصاً نداء النذير العريان (١) . أن
صَبَّحكم مَسَاكُم .

لقد كان الأمر أولاً أمر حجب المرأة وحرمانها الحق الطبيعى الذى جعله الله
لها من العلم والنور لتحسن فى نفسها ، وتُحسن تربية الأبناء ، فصار الآن أمر
الأمّة كلها ، بدت لها الهاوية فاغرة فاهما بما انحدرت إليه الأخلاق والآداب ،
وحُداة الصلال يهتفون : إلى الأمام ، ضاعفوا الجهد ، وأوسعوا الخطأ فشهوات
الغرب سبيل محاذاته فى العلياء ، وأفانين أهوائهم ومُتبعه عنوان التقدم والارتقاء
وإذا حرم قوم الحياء فقل عليهم العفاء (٢)

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً
ولا عاصم اليوم إلا من رحم الله ، ولا حياة للأمة إلا بهذا الروح الذى أنزل
الله رحمة وعصمة ، ونوراً وهدى ، وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ،
ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء
من عبادنا ، وإنا أنهدى إلى صراط مستقيم ،

« ١ » هو من يرى الأعداء فيتخفف من ثيابه مسرعاً إلى قومه ينذرهم الغارة
على عادة بعض العرب « ٢ » سيجىء هذا فى موضعه من فصلى : المرأة والشواطئ
والمرأة والأقلام المسمومة .

وإذا كان حقاً - وإنه لحق - « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فأحق الناس من يكون وازعاً إلى الهدى ، وحاجزاً عن الردى ، من آتاهم الله سلطانه وممكن لهم في الأرض ، واستخلفهم فيها ، فينظر كيف يصنعون ، من قادة الثورة الأبطال ، وشبابها المغاوير ، أولئك الذين حملوا الأمانة كاملة ، وأخذوا على عاتقهم بناء الأمة من جديد ، وإصلاح ما أفسدت يد الزمان على أيدي الفاسدين المفسدين ، وتطهير الحياة العامة من رواسب الماضي وأوضاره وأقذاره .

إن الأمل كبير في أولئك الشباب الوثاب الذي يعتز بدينه ووطنه وعروبته ، والذي يسعى جاهدا لرفع راية الإسلام والمسلمين ، والذي يرفض الأحلاف الغربية شامخ الأنف على الرأس ، لا يبالى من الشرق والغرب إلا ما فيه خير تلك الأمة ، وعزة هذه الأوطان - إن الأمل كبير في أن يعيدوا لهذا الدين مجده وعزه ، وأن يقضوا على كل دخيل في العقائد والأخلاق والآداب ، قضاء مبرما يمحو كل أثر سيء من آثار الاستعمار والمستعمرين ، وأن يصونوا الأمة والأسرة بصيانة الدين والخلق المتين ، وأن يضربوا على أيدي المستهترين والعابثين « ولينتصرن الله من ينصره » « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .



المرأة والمسجد

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمتنعوا إمام الله مساجد الله، وعنه» إذا استأذنكم نساؤكم إلى المسجد فأذنوا لهم، وعن عائشة رضي الله عنها: «أعظم رسول الله ﷺ بالعتمة حتى ناداه عمر نام النساء والصبيان، فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما ينتظرها أحدٌ غيركم من أهل الأرض ولا يُصلي يومئذ إلا بالمدينة».

وعن أبي قتادة الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأقوم إلى الصلاة وأنا أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي مخافة أن أشق على أمه».

خرج الحديثين الأولين الإمام مسلم في صحيحه في باب خروج النساء إلى المساجد في جملة روايات فوق العشرة.

وخرج الأخيرين الإمام البخاري في باب خروج النساء إلى المساجد بالليل والغسل، كما خرج عشرات من الأحاديث في هذا المعنى متفرقة في صحيحه سنشير إلى بعضها في ثنايا البحث.

وروى مثل ذلك الإمام مالك في موطئه، وغير أولئك من الأئمة الأثبات رواة الحديث.

والدارس للسنة المطهرة في منابعها الأصلية يرى المرأة على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد خلفائه الراشدين لم تحرم نصيبها من المسجد. ولم تمنع من شهود الجماعة، والاستماع إلى المواعظ والتذكير والإرشاد.

بل لقد كان النبي ﷺ يعطين من عنايته، فر بما وجهه إليهن موعظة

خاصة بعد انتهائه من الموعدة العامة ، نظرا لأنهن في آخر الصفوف

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه السلام خرج ومعه بلال فظن أنه لم يسمع النساء ، فوعظهن وأمرهن بالصدقة . فجعلت المرأة تلقى القرط والخاتم ، وبلال يأخذ في طرف ثوبه ، وإنهن ليزددن رغبة في هذه المواعظ . ويكرهن التخلف عن الرجال في هذا المضمار ، فيطالبن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخصهن بيوم يتحدث إليهن فيه ، نظرا لقلة اجتماعهن به ، فيروى البخاري عن أبي سعيد قال : عليه السلام قال للنساء للنبي صلى الله عليه وسلم : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن يوما لقيهن فيه ، فوعظهن ، وأمرهن ،

وفي شهودها الجمعة خرج الامام مسلم بسنده عن عمرة بنت عبد الرحمن عن أخت لعمره قالت : دلقد أخذت دقّ القرآن المجيد ، من في رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ، وهو يقرأ بها على المنبر . ومثله عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان وهكذا كانت المرأة على عهد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه تحضر الجمعة والجماعة ومشاهد الخير ، وترجع الى بيتها قريرة العين راضية النفس ؛ عامرة القلب بالايان والتمقى ، فتحسن القيام بأمر بيتها والتبعل لزوجها ، وتربية أبنائها ، وقد علمت من أمر دينها ما علم الرجل ، فكانت عون له وساعده بيد أن ذلك لم يفرض عليها لزاما :

نظرا لما يستغرق المرأة أحيانا من عمل بيتها ، ورعاية أبنائها ، حتى لا تجدد متسعا من وقتها للتردد على المسجد في كل الصلوات ، ولما يناها كذلك من الحيض والنفاس ، وهي لا تبأشر الصلاة اثناءهما ولا تمسك في المسجد ، فيسر الله لهن الأمر ، ووكله الى مشيئتهن ، غدير أنه طلب ذلك طلبا أكيدا في صلاة العيدين وأمر النساء أن يخرجن قاطبة يشهدن الخير ودعوة المسلمين ، حتى من لم تبأشر

الصلاة منهم لما منع شرعى تشترك فى التهليل والتكبير ، وتسمع الوعظ والتذكير
وتتفقه فى الدين .

فقد روى البخارى ومسلم عن طاووس عن ابن عباس قال : شهدت صلاة
الفطر مع نبى الله ﷺ ، وأبى بكر وعمر وعثمان ، فكلهم يصلونها قبل الخطبة
ثم يخضب قال : فنزل نبي الله ﷺ كأنى أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده ،
ثم أقبل يشقهم حتى جاء النساء ومعه بلال ، فقال : « يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات
يبايعنك على الا يشركن بالله شيئا » . فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم قال :
أنتن على ذلك ؟ فقالت امرأة واحدة لم يحبه غيرها منهن : نعم يا نبى الله —
لا يُدرى حينئذ من هى — قال : فتصدقن ، فبسط بلال ثوبه ثم قال : هلم
فدى لكن أبى وأمى ، فجعلن يلقين الفتح (١) والخواتم فى ثوب بلال ،

ومن طريق عطاء قال : سمعت ابن عباس يقول : « أشهد على رسول الله
ﷺ صلى قبل الخطبة ، قال ثم خطب فرأى أنه لم يُسمع النساء ، فأتاها
فذكرهن ووعظهن وأمرهن بالصدقة ، وبلال قائل بثوبه ، فجعلت المرأة تلقى
الخاتم والخرص والشيء . »

ويجىء فى ختام رواية أخرى عن ابن جريج قلت لعطاء : « أحقا على الامام
الآن أن يأتى النساء حين يفرع فيذكرهن ؟ قال : أى لعمرى ، إن ذلك لحق
عليهم ، وما لهم لا يفعلون ذلك » ، ومثله عند البخارى من رواية جابر .

وعنوان صحيح البخارى « باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ،
ويعتزلن المصلى ، وفيه روايات عن أم عطية ، وعن ابن عباس ، وعن جابر

١ الفتح : الخواتم العظام .

ورواية أم عطية : « أمرنا أن نخرج الحيض يوم العيد وذوات الخدود فيشهدن جماعة المسلمين ودعوتهم ويعتزلن الحيض عن مصلاتهم - قالت امرأة يارسول الله إحدانا ليس لها جلباب قال لتلبسها صاحبها من جلبابها ، وفي رواية أخرى تسأل امرأة أعلى إحدانا بأس إذا لم يكن لها ثوب ألا تخرج ؟ فقال : « لتلبسها صاحبها من جلبابها ، ولتشهد الخير ودعوة المسلمين » ، والروايات كثيرة جدا لا يسيل هنا إلى احصائها .

فهذا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى الناس كافة رجالا ونساء بل انساوجنا لم يقبل أن تتخلف المرأة عن هذا اليوم المشهود ، وتجلس في بيتها ، ولو لم يكن لها ثوب يناسب الجماعة ، أو كانت لا تباشر الصلاة ، بل عليها الحضور تجدد إيمانها ، وتقوى يقينها ، وتفقه دينها ، وتعرف دينها ، وتعرف واجباتها ، وتبتهج كذلك بهذا العيد كما يتهج الرجال ، بما يعود بالخير عليها في روحها ودينها وجسمها كذلك شهدت المرأة المشاهد الأخرى الجامعة . كصلاتي الاستسقاء وكسوف الشمس ، وروايات عائشة وجابر واسماء في صلاة الكسوف نصت على وجود النساء ، تقول أسماء : « وكان يتولاني الغشى من طول القيام والر كوع حتى أخذ القربة من الماء فأصب على رأسي ، وأنظر الى المرأة أَسَنَّ مني ، وإلى المرأة أضعف مني ،

هذا : وقد ظن بعض الباحثين أن حضور المرأة إلى المسجد كان في أول الاسلام أيام كان المسلمون قلة ، وكانوا بحاجة إلى تكثير سوادهم ، وقد رده المحققون ، وقليل من النظر في أحاديث رسول ﷺ وعمل أصحابه يرده ويبطله ، فعن ابن عباس انه قال : « إن أم الفضل سمعته وهو يقرأ والمرسلات عرفا فقالت : يا بني والله لقد أذكرتني بقرائك هذه السورة . إنها الآخر ما سمعت

من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب . رواه البخاري — وفي رواية لها :
خرج علينا رسول الله ﷺ وهو عاصب رأسه في مرضه ، فصلى المغرب
بالرسولات ، فما صلاها بعد ، حتى لقي الله عز وجل ، وقول عائشة الآتي لو أدرك
رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني إسرائيل
شاهد ببقاء الحكم وشهود النساء المسجد الى ما بعد رسول الله ﷺ .

واعترضت امرأة عمر بن الخطاب وهو يخطب على المنبر ، وكان يحث
الناس على الاقتصاد في المهور ، فقالت له : ليس ذلك إليك يا عمر ، ان الله
تعالى يقول : « وآتيتكم إحداهن قنطارا .. » فأعلن على منبره صواب رأى المرأة .
وكان رضى الله عنه وقفا عند حدود الله (١) .

فهذا وغيره كثير قاطع بان المرأة كانت تشهد المسجد للصلاة في عهد رسول الله
ﷺ وبعده ، وان الإذن كان عاما .

ومع ذلك فترى بعضا من الأئمة رحمهم الله يعقدون الفصول والأبواب في
ترغيب النساء في الصلاة في البيوت ولزومها ، وترهيبهن من الخروج منها .
ويعتمدون في ذلك على أحاديث شريفة هي عند التدقيق لا ترد هذا الحكم العام
الذي استفاضت به احاديث الصحاح ، هذا ونحن نعلم أن البحث في الاحاديث
النبوية في حاجة الى تدبر وروية ، ومعرفة ، بظروفها ومن يخاطب بها ، واسانيدها
وتعميمها وتخصيصها .

عقد الامام المنذرى المتوفى سنة ٦٠٦ في كتابه الترغيب والترهيب فصلا
بعنوان : (٢)

١ رواه ابن كثير في تفسيره عن الامام احمد ، ومن طرق أخرى

« ترغيب النساء في الصلاة في بيوتهن ولزومها ، وترهيبهن من الخروج ،
ويسوق ثمانية أحاديث :

١ - عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أنها جاءت الى
النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله إني أحب الصلاة معك قال : قد علمت أنك
تحبين الصلاة معي ، وصلاؤك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك (١) وصلاتك
في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير من
صلاتك في مسجد قومك ، وصلاؤك في مسجد قومك خير من صلاتك في
مسجدي هذا - قال : فأمرت فبنى لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه
وكانت تصلي فيه ، حتى لقيت الله عز وجل . رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في
صحيحهما .

٢ - وعن أم سلمة عن رسول الله ﷺ « خير مساجد النساء قعر بيوتهن »
رواه أحمد والطبراني في الكبير ، وفي أسناده ابن أبي طيبة ، ورواه غيرهما .

٣ - وعنها قالت قال رسول الله ﷺ « صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها
في حجرتها .. الى آخره » رواه الطبراني في الاوسط باسناد جيد .

٤ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « لا تمنعوا نساءكم
المساجد ، وبيوتهن خير لهن » - والاربعة الباقية اثنان منها بمعنى ماسبق ، وآخران
في التحذير من الخروج خشية الفتنة .

وليس في ذلك ما يدفع الاحاديث الجامعة العامة الكثيرة ، وهذه فوق
نزولها عن تلك في درجتها فالتخصيص في الحديث الاول وهو أهمها ظاهر ،
والنبي ﷺ طبيب يداوى كل مريض بدوائه اللائق به
والخيرية في البيوت المذكورة في بعض الطرق لا تمنع الاباحة في المساجد .

١ ، المراد بالبيت : المكان الخاص من المنزل وهو اعظم ستر من الحجرة
العامة ، ومن رجة الدار

والامام المنذرى نفسه يعقد فصلاً آخر من نفس الجزء بعنوان :
 « الترهيب من تأخر الرجال لآخر صفوفهم ، وتقدم النساء إلى أوائل صفوفهن (١) » ،
 ذلك أن السنة أن يتقدم الإمام ، ويليه الرجال صفوفاً ثم الصبيان ثم صفوف
 النساء خلف ذلك ، ويروى عن أبي هريرة قوله قال رسول الله ﷺ :
 « خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها
 وشرها أولها » ، رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي . وعلق النووي عليه
 في شرح مسلم بقوله : والمراد بشر الصفوف في الرجال والنساء أقلها ثواباً وفضلاً ،
 وأبعدُها من مطلوب الشرع ، وخيرها بعكسه ، وإنما فضّل آخر صفوف
 النساء الحاضرات مع الرجال لبعدهن من مخالطة الرجال ورؤيتهم وتعلق القلب
 بهم عند رؤية حركاتهم ، وسماع كلامهم — ويقول أما إذا صلين متميزات
 لا مع الرجال فهن كالرجال ، خير صفوفهن أولها ، وشرها آخرها .

وأما الفتنة :

في خروج النساء فلم يكن النبي ﷺ ليُخَفِّفَها ، وهو يقرأ فيما أنزل
 عليه « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين . . . » ويقول في حديثه
 ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء (٢) .

لقد نهى النبي ﷺ المرأة إذا أرادت المسجد عن الزينة والطيب ،
 وأمرها بضرب خمارها على صدرها ونحرها .

روى مسلم بسنده عن زينب امرأة عبد الله قالت قال لنا رسول الله ﷺ :
 « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » ، وروى عن أبي هريرة « أيما امرأة

أصابته بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة ، ونحو ذلك رواه الإمام مالك في موطنه في باب خروج النساء إلى المساجد .

وفي حديث عائشة المتقدم (١) وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل ، لقد أنزلت سورة النور ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان ، وهكذا كان النسوة من أصحاب رسول الله ﷺ يبالغن في الستر تأديبا بآداب الدين وتباعدا عن دسائس الشر من خطرات قلوب المنافقين ، فإذا خرجن خرجن محتشمات ، وإذا صلين في المسجد صلين خلف الرجال معتزلات ، فإذا قضين الفريضة انصرفن تَوّاً إلى بيوتهن .

وتقول عائشة فيما يروى البخاري : لقد كان رسول الله ﷺ يصلي الفجر فيشهد معه نساءٌ من المؤمنات متلفعات في مروطن ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفن أحد .

والنبي ﷺ يعتمد إلى التيسير على النساء في الانصراف ، وحياطتهن من زحمة بعض الرجال ، فيتعمد المكث قليلاً ريثما ينصرفن . خرج البخاري عن أم سلمة أن النساء كنّ إذا سلمن من المكتوبة قن وتبت رسول الله ﷺ ومن صلى من الرجال ما شاء الله ، فإذا قام رسول الله ﷺ قام الرجال . هذا هو هدى الله الذي أنزله فبلغه وعمل به وحمل المؤمنون عليه . وبه كفأت الشريعة الغراء للامة أن يسير أبناؤها رجالاً ونساء على نور من الله ، وفقه في الدين ،

ومعرفة بالحياة والاسلام ، يعلم كل فرد ما عليه من واجبات وماله من حقوق
ويقوم بها كاملة غير منقوصة ، فتحيا الامة حياة عزيزة قوية سعيدة .
هذا هو هدى الدين في صلاح هذه الامة . تحضر المرأة الجمعة والجماعة
ومشاهد الخير ، في عفة وأدب واحتشام ، لتتدى بنور الله ، وتفقده دين الله ، درج
عليه المسلمون زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين .

ومع هذا : فقد غلبت الحيلة قوما صالحين ، فرغبوا في منع المرأة
المسجد ، وأملى عليهم ذلك تغير الحال عما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ
ورأينا الامام البخاري رحمه الله يروي سنة النبي الامين في خروج المرأة الى
المسجد ثم يعقب بقول السيدة عائشة رضی الله عنها :

«لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء
بنی اسرائیل، ومثل هذا الصنيع عمل الامام مسلم رحمه الله بعد ذكر أبواب ثلاثة
عرضت لصلاة النساء بالمسجد ، وتسوية صفوفهن ، وعدم رفع رؤوسهن حتى
يرفع الرجال ، والإذن لهن وعدم التطيب ...

وروى عن عمرة بنت عبد الرحمن انها سمعت عائشة تقول : لو أن رسول
الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بنی اسرائیل (١)
ويقول النووي في شرحه ما أحدث النساء يعنى من الزينة والطيب وحسن الثياب
وهاك حفيد عمر بن الخطاب بلالا يسمع أباه عبد الله يقول : سمعت
رسول الله ﷺ يقول : لا تمنعوا نساءكم المساجد اذا استأذننكم اليها فيقول
والله لنمنعن ، فيسببهن مباحدا ، ويقول أحدثك عن رسول الله ﷺ ويقول
والله لنمنعن ، وفي رواية يقول :

«١» كل ذلك بالجزء الرابع شرح النووي

إذا يتخذنه دغلا فضر به أبوه في صدره وقال بمثل ما سبق .

هذه هي الغيرة ، دفعت الرجل حتى خرج عن حد الاعتدال . والغيرة وإن كانت محمودة مرغوبة شرعا إلا أن ضبطها بحدود الدين هو ما أمر به النبي ﷺ ولقد كان عمر لشدة غيـرته يكره أحيانا أن تخرج امرأته . روى الامام مالك في موطئه عن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل امـرأة عمر أنها كانت تستأذنه الى المسجد فيسكت فتقول والله لأخرجن إلا أن تمنعني فلا يمنعها . وذكر الحافظ بن حجر في ترجمتها من كتابه الاصابة جدها أنها تزوجت عمر بعد أن شرطت عليه ألا يضربها . . . ولا يمنعها من الصلاة في المسجد النبوي ثم تزوجت الزبير بعد عمر ، وشرطت عليه ذلك ، فتحيل الزبير عليها بان كمن لها لما خرجت الى صلاة العشاء فلما مرت به ضرب على عجزيتها ، فلما رجعت قالت : انا لله فسد الناس فلم تخرج بعد .

هذه هي الغيرة تدفعهم الى منع النساء من المساجد ، وكنّ على جانب كبير من الفقه يشاركن به الرجال ، ويسألن عن الدين ما يمنعن الحياء ان يتفقهن فيه ، ولقد بلغ من غيرة رجل كعمر أن عرفها له رسول الله ﷺ أكبر المعرفة . حدث البخاري بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر ، فقلت لمن هذا القصر ؟ فقالوا لعمر بن الخطاب فذكرت غيرته فوليت مدبرا ، وفي رواية اخرى فاردت ان ادخله فلم يمنعني الا على بغيرتك . قال عمر : يا رسول الله باني انت وأمي يا بني الله أو عليك أغار ؟ وفي بعضها فبكى عمر وقال ما قال .

فإذا كان قد بدا من جانب فريق من الصحابة رضوان الله عليهم **كرامة** لخروج النساء الى المساجد كما كن على عهد رسول الله ﷺ ، ورجعوا منعن ، فذلك

اجتهاد خاص لا يغير من شرع الله ودينه الحكيم

قال الشوكاني في نيل الاوطار (١) وقد تمسك بعضهم في منع النساء من المساجد مطلقا بقول عائشة . وفيه نظر لأنها علقته على شرط لم يوجد في زمانه صلوات الله وسلامه ، بل قالت ذلك بناء على ظن ظنته فقالت : لو رأى لمنع ، فيقال عليه لم ير ولم يمنع ، وظنها ليس بحجة ١ هـ وأقول : ما حذرته عائشة رضي الله عنها مما تعالى النساء فيه عاجله الرسول صلوات الله وسلامه ومنعه فقال : «إذا شهدت احدا كن المسجد فلا تمس طيبا» ونهى عن الزينة والتعطر وكل ما يثير شهوة أو رية ، وبقي الحكم نفسه وحق المرأة في المسجد قائما ، فالوحي لم ينزل لمن فينقض بانقضائه ، والنبي صلوات الله وسلامه لا ينطق بأمر نفسه ولا عن مجرد رؤيته وعلمه ، إنما هو مبلغ لهدى ربه علام الغيوب ، ولو شاء ربك منعهم المسجد لفعل ، ولم يترك الحكم لشرعه بعد النبي انسان .

اصلاح الأمة بالرجوع الى الهدى النبوى :

والى هنا وقد أسفروا وجه الحق عن صبح أبلج لاظلمة فيه ، فلا مناصر لنا من الرجوع الى السنة المطهرة ، والهدى النبوى الأول فى شأن النساء وشهودهن المسجد ، اذا أردنا لهذه الأمة صلاحا واستقامة ، وتربية دينية سليمة تكون روحها ، وعماد نهوضها فى العهد الجديد .

ومن رأى مهما حاولنا النهوض بالمرأة وترقية شئوننا ، وتهذيبها وتثقيفها وتعليمها الدين من غير أن يكون لها حظها من المسجد والجمعة والجماعة ومشاهد الخير فسيظل مكان هذه التربية الدينية العملية من قلب المرأة شاغرا لا يغنى عنه غيره بحال .

لابد للمرأة من المسجد ، تنال حفظها الكامل من طهارته و قدسيته و روحانيته
تؤدي الشعائر فيه ان شاءت بالليل او بالنهار ، و تعمّر قلبها بنور الله ، و تسمع
الوعظ و الارشاد و تحفظ من ذلك ما يحفظ الرجل - ولسنا بحاجة فيما أظن الى
الاطناب في اثر التدين في حياة المرأة ، و قوة استعدادها له ، و ما يكون له من
بليغ الآثار في سلوكها و حياتها و واجباتها ، و القيام بشئون بيتها ، و صيانة نفسها
و مال زوجها ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ،
و لعل قارئنا عجلان يقول :

أتريد لهذا المكان المقدس الذي تنزه عن الشهوات و النزوات ، و صين
من المفاسد و المنكرات ، و حفظت له قدسيته على مر القرون و الأجيال ، أن
يشاب بشوب الاختلاط ، و ان يصيب روحانيته ما اصاب غيره من كل مكان
سواه ؟ لقد اقتحمت المرأة كل ميدان ، و ولجت كل ميدان ، و لم يبق الا هذا
الحصن الممكّن مؤنثا للرجل و ملاذا ، و كعبة و معازدا ، فها شك ان تسيحه
للرأة فتحرّم الرجل حصنه الوحيد .

هذا كلام يقال ، و لكني سائل سؤالا ، أبهذا الذي كان من منع المرأة المسجد
و حرمانها منه صلح أمر الرجل ، و حسن حاله ، و رضع لبان الاستقامة ؟
هل أقبل على المسجد يزكي روحه ، و يطهر قلبه ، و يتفقه في دينه ، و يأخذ
نفسه بآدابه و تعاليمه و ارشاداته ، و يلقي آله و ذويه فضائله ، و ينشئ بنيه عليه
فضايلت بذلك الأسرة و من ورائها المجتمع ؟ ثم سؤال آخر : أهذا
اقتراح أقدمه أناقش فيه ، أم هو دين الله الذي أنزله لعباده هدى و رحمة ؟
إن الاسلام لم يخص الرجل بعنائه و اهتمامه ، أو بره و اكرامه ، بل انه
راعى المرأة كما راعاه ، و أولاهما من العناية ما أولاه ، و ربما أضفى عليها مزيدا

من حمايته وبره فأجاب المسترشد عن أولى الناس بحسن صحابته (١) وأوصاه مرة بأبيه بعد أن أوصاه ثلاثاً بوالدته .

وشرع لها من العبادات ما شرع للرجل طهارة وتزكية ، وجعل لها نصيباً من المسجد تجدد روحها ، وتزكى وجدانها ، وتقوى يقينها .

ومهما تمكن الأسباب التي حدثت بالمسلمين إلى حرمان نساءهم من بيوت الله ، فضرورة الإصلاح قاضية بوجوب الرجوع إلى سنة الدين وهدى النبي الكريم . المرأة الآن سافرة لا تحتجب ، تخرج للعلم والتعليم ، وللتجارة والصناعة والمهن العامة ، وتخرج لقضاء حاجاتها ، ولزيارة جاراتها وصديقاتها ، وللرياضة والنزهة ، بل (للسينمات) ، والحفلات والشواطىء (والبلاجات) ، ولم يعد هناك من مكان لا ترد عليه سوى بيت الله ، وهي في كل ذلك قلما تجد من حولها ما يعينها على إصلاح أمرها ، وتقويم أودها ، ويصرها بواجبها ، ويرسم أمامها المثل الأعلى لتكمل نفسها وتربية ابنائها .

تعلمت الفتاة تعلماً مدنياً بعيداً عن دينها فلم يصلح ذلك كثير من حالها ، حتى رأينا زميلها الفتى أحياناً يؤثر الجاهلة عليها ، لما يعلمه من أمر نفسه وأمرها ، وتكشفت في الشوارع والأسواق والمستديات والشواطىء ، ولم تستقبح ذلك لنفسها ، لأنها لا تجد من يستقبحه ، بل هي في كل يوم تستزيد منه وتفتن فيه ، لأنها ترى أثر ذلك امتحاناً ووظماً في العيون الشرهة الطامحة ، وقلما تسمع كلمة واحدة تقبح ذلك لأنها لا تردأ ما كن الفضيلة ، ولا مواطن الزينة والتهديب .

كم نسمع الوعاظ والخطباء يتحدثون إلى الناس بالبلغ من القول والقارص من الوم في شأن السفور والعري الحاصل من النساء ، ولكننا لا نرى لذلك أثراً ، اللهم إلا تزايداً ومغالة في ذلك العري وهذا السفور ، فلو جاءت المرأة المسجد وسمعت

الوعظ والارشاد ، وقتعت دينها وعلمت الحلال والحرام ، وتربى ذوقها تربية دينية ، وأسأغت ما أسأغ الدين ، واستقبحت ما استقبح الدين لكان لنا من نماذج صالحات ، وقدوة حسنة يقاومن بسيرتهن وسلوكهن وحشمتن ما يجرى إليه المجتمع سريعا من التقليد المسرف في التبذل والامتتار .

وإذا كنا نعلم الرجل واجبه نحو أسرته وزوجته فكيف نعلم الزوجة واجبها نحو زوجها وبيتها؟ هل ويعلمها الزوج؟ وإذا كان الزوج جاهلا فمن يعلمها؟ يعلمها المذيع؟ وهل عند الجميع مذياع ، وهل يغنى المذيع في كل ما نه القصار ، وجوه المعروف عن الإشراق الروحي العظيم في بيت الله؟ ألا فليتجه المصلحون هذه الوجهة الصحيحة التي تؤتي ثمراتها الطيبة بأقل جهد ، واقوم سبيل ، وليذكروا كم بين الإصلاح عن طريق الجمعيات النسوية التي تضم من الأفراد العشرات ، وان تتابع نجاحها ضمت المئات والآلاف مع باهظ النفقات وشاق الجهود ، وبين الإصلاح عن طريق المسجد الذي ينتظم (الملايين) ، ولا يكاف من النفقات (الملايين) او مادون (الملايين) .

ان هذا الدرس الاسبوعي درس الجماعة الذي وضعه الله ذلك الوضع العجيب ، وفرض فيه الجماعة ، وأوجب ان يكون بالمسجد ، وشرع له الطهارة والخطبة ، لو أحسن المسلمون الانتفاع به والقيام عليه ، وأدوه خير الأداء ، واختير له أقدر الناس عليه واكفؤهم له من كبار علماء الازهر ، وأفاضل المشتغلين بقضايا الدين ، لكان للمسلمين المدد الروحي الذي لا ينفد ، والنور الذي يضيء لهم سبل الحياة . ولأمكن محو الأمية العقلية والروحية من المسلمين رجالهم ونسائهم بأقوم طريق ، وأوضح منهج ، وأهدى سبيل .

وإذا كنا ننادى بوجوب الرجوع الى هدى الدين ، وأخذ المرأة حظها من المسجد

والوعظ والارشاد ، فليس معنى ذلك أننا نطلب بأن تزحمه وتأخذ مكان الرجل فيه ، وكثير من المساجد يضيق بالمصلين ، ولكن على المسلمين — حقا واجبا — أن ينشئوا من المساجد ما يكفي لإقامه شعائر الدين ، وبعض المساجد الحاضرة فيه سعة ، وبعضها فيه جوانب يمكن حجزها للنساء ، وكلها تستوعب لدروس الوعظ والارشاد في غير أوقات الصلاة ، وعلى المسلمين أن يراعوا ذلك فيما يجدون من مساجد ، وأن يتوسعوا في دروس الدين للسيدات تلقى من الوعاظ والواعظات

بهذا لاغيره نكون قد أدينا واجبا هاما في سبيل المرأة المسلمة ، والاسرة المسلمة ، والأمة المسلمة ، ويكون ذلك أول الطريق في عهدنا الحديث لنهضة حقيقية شاملة . وهذا نفسه هو منهج الدين في سماحته ورجاحته وتعليمه وتهذيبه حينما أخذ — ويأخذ — بيد الرجل والمرأة على السواء ، فأقام منهما مجتمعهم الأول سليما قويا فاضلا ، شاده على العلم والعمل ، وبناء على العفاف والطهر ، وأسس على تقوى من الله ورضوان ، فانطلقت قواه من عَقْلِهَا ، ماضية في طريقها المقدور ، موفقة الى غاياتها البعيدة ، ومُثْلِهَا العليا ، وكان من ذلك خير امة اخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويطيعون الله ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرهم الله ، ان الله عزيز حكيم ، صدق الله العظيم .

المرأة والأخيرة

رأينا في الفصل السابق أن حق المرأة في المسجد ثابت لا شك فيه ، وأنه شرع الله وهداه ، وأنه السبيل الذي لن يغني غناه سواه في تقويم المرأة وتهذيبها ، وصالح دينها وخلقها ، وأعدادها لتكون أما فاضلة ، تؤدي واجبها خير أداء وأكمل ، وتنشئ جيلا سليما قويا ، يعرف للوطن حقه ، ويعيد مجده ، ويبني لأمته فيشيد البناء .

ومهما كانت الأسباب التي دعت المسلمين إلى حرمان النساء من روحانية المسجد وتقائه ، فقد وجب الآن العودة إلى الهدى النبوي الذي تربى عليه الصحابة جميعا ، رجالهم ونسائهم وأبناءؤهم حتى تخرجوا من مدرسة النبوة وفي بيت الله رسل العناية الإلهية ، ينشرون العلم والنور حيثما ساروا ، ويقيمون الخير والهدى أينما حلوا .

لقد علمت المرأة في إبان الدعوة الإسلامية من أمر دينها ما يعلم الرجل ، وحضرت منهن من شاءت الجمعة والجماعة ، وخرجن كلهن في العيد ، وطلبن المزيد تعويضا مما يتلقاه الرجال بدوام سماعهن من الرسول ، حيث قلن ، لقد غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن يوما يلقاها في التعليم والإرشاد ، وقد أصبن من العلم والفقه والرواية الشيء الكثير ، وحملن السنة النبوية والأحكام الدينية كاحملها الرجال ، وتلقاها الرجال عنهن ، كما تلقين عن الرجال ، وكتب السنة زاخرة بمروياتهن ، لم يُفرّق في ذلك بين رجل وامرأة — بل لم تكن ثقافة المرأة مقصورة على رواية الحديث ، والتفقه في الدين ، فقد علمت الشعر والأدب والتاريخ ، وما استطاعت علمه آنذاك — وعاشة وهي

من أعلم الصحابة بالدين كانت في رواية الشعر والأدب إحدى الإعاجيب وكان
منهن المحدثات والمفتيات والخطيبات ، وتعلمن عليهن كثير من الأئمة .
والآن بلغت المرأة المستنيرة في العلوم المدنية المدى البعيد ، وتلقت ثقافة
واسعة غير مكثفة بما يتصل برسالتها ، ويتعلق باعبائها وأمومتها ، وشاركت في
ميادين العلم وفروعه المختلفة ، غير نوع واحد من التعليم حرمته ، وكانت له أوفق
وكان بها أليق ، ذلك هو العلم الديني في الأزهر ، والتزينة الروحية في المسجد ،
ولم يكن عجباً حينئذ أن نتقدم في ميادين العلم والمعرفة ، ونفلس في مجال
الأخلاق والتزينة ، وتزخر مشكلاتنا في الأسرة وتكثر في المجتمع كثرة
تزلزل كيانه ، وتوهن بنيانه ، وتفت في أعضاده ، وما ذلك إلا الغلبة الأمية الدينية ،
والفقر الروحي في الرجل والمرأة على السواء .

إننا نطلب في صدق وإخلاص فتح أبواب الأزهر للفتاة ، تأخذ حظها من
العلم الديني ، ويستنير قلبها بالهدى النبوي ، ويشرق عقلها بنور الإسلام ،
فتعيد لنا مجد المسلمات في العصر الأول . وتصل من تاريخنا ما انقطع ، وترفع
من حاضرنا ما اتضع .

وإنه ليسرنا حقاً أن يرى هذا الرأي كثيرون . ويدعو إليه داعون عن
إيمان واقتناع — بل لقد أخذ المسؤولون بالأزهر يبحثونه حيناً ، واقتنعوا به
ووعدوا بالعمل على تنفيذه (١) ، وكان شأنه شأن غيره من نواحي الإصلاح
الأزهرية ، فكثيراً ما تنام في المكاتب إلى أجل غير محدود ، حتى يبعث الله من
يبعثها من رقادها ، ويوقظها من سباتها لتأخذ طريقها إلى عالم الأحياء .

ألا إنه لا سبيل إلى خلق البيت الصالح ، وتكوين المجتمع الصالح ، بدون
المرأة الصالحة . ولا سبيل إلى إصلاحها إصلاحاً حقيقياً شاملاً ما لم يكن لها

«١» وكان ذلك في عهد مشيخة المرحوم الشيخ مأمون الشناوي للأزهر - على ما أذكر

حظها من المسجد ، ونصبها من الأزهري .
 إن صلاح فتاة واحدة صلاح لأسرة كاملة ، ولما يتفرع عنها من أسر ،
 عدا ما تشعه من أضواء الصلاح على المخالطين والمقاربين من الأهل والجيران .
 إن عشرات من السيدات الفضليات يترين تربية دينية ، ويدرسن دراسة
 إسلامية ، وينفقن في الدين ، وتسمو به أرواحهن ، وتطهر قلوبهن ، أفعل
 في نفوس النساء بالقدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ، والنموذج الحى ، من
 ألوف الدعاة من الرجال — وليس من شك في أن المرأة أخبر بنفسها ،
 وأعلم ببنات جنسها ، وأهدى إلى عقولهن ، وأصرح في مخاطبتهن ، لقد كانت
 المرأة المسلمة تسأل رسول الله ﷺ عن الدقائق من خصائص المرأة ثم
 لا تقنع منه بالجواب المجمل فيعرض عنها حياء ، وتجذبها عائشة وتشرح لها
 ما أراد الرسول بأصرح مما يقول — فقد روى مسلم وغيره عن عائشة أن
 امرأة من الأنصار سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض ، فأمرها
 كيف تغتسل ثم تأخذ فرصة من مسك — أى قطعة من قطن ونحوه مطيبة
 بالمسك — فتطهر بها ، قالت : كيف أنظف ؟ قال سبحان الله تطهرى
 بها وأعرض عنها حياء — قالت عائشة واجتذبتها إلى — وعرفت ما أراد — فقلت
 تتبعى بها أثر الدم .

بل لعل من اليسير أن تلج المرشدة البيت على أخواتها المؤمنات لتعظن ،
 وترشدهن إلى ما فيه خيرهن وسعادتهن ، وتنهاهن عن تجاوز حدود الدين ،
 حيث لا يستطيع ذلك واحد من الرجال — ولئن كانت الأخلاق تقبس من
 الأخلاق فإن صلاح المرأة رهن بوجود هذه المثل العليا من المرشدات ، فتحنو
 المرأة حذوها ، وتسمع لها ، وتأخذ عنها ، ولن تقتدى المرأة برجل الأزهري ،

ولن تأخذ عنه ، بل أين ومتى تسمع منه ؟ أفى المذيع وهل يتوفر للجميع ، أو يتوفر لسماعه الجميع ؟ أم فى بيوتهم ؟ والبيوت غالبا بين جهل فادح ، أو علم لا يتصل بالدين ، وقل من أتاحت لها بيئة دينية ، وأقل منها من انتفعت بتلك البيئة ، وتلقت التوجيه الصحيح .

إن المجتمع الآن تصهره عوامل شديدة الخطر ، بعيدة الأثر ، من التقليد الغربى ودور الخيالة ، والصحف الرخيصة ، والمجلات المبتذلة الخليعة ، والحفلات الماجنة ، والأغاني الإذاعية التى لا تمل الحب والحبيب أبدا ، والعزى الفاضح فى الشواطئ مما يدفع المجتمع فى قفاه دفعا إلى مهوى سحيق من التحلل والإباحية ، وطبعى أن تنهج المرأة الشرقية نهج الغربية ما دام علمها وقودتها وافدة عليها من الغرب وما دام قد ضرب بينها وبين الأزهر بسور له باب .

إن على المثائبين طويلا من دعاة الإصلاح . وعلى أولئك الذين اعتادوا أن يقنعوا أنفسهم بانهم من دعاة الإصلاح ، أن يفتحوا عيونهم فى هذا المجال ليروا إلى أى مصير نحن صائرون .

إن هذه الموجة العاتية الآن تدفع أمامها الكثير من تقاليد الصيانة والاحتشام وتكتسح فى طريقها الآثار الباقية من آداب الإسلام ، فى بيئات ما زالت تعد من المحافظين ، وما ذلك إلا بوقوفنا الموقف السلبى من الإصلاح ، فنكتفى بالقول والبيان ، حيث يأخذ سبيله إلى عالم النسيان ، وقد ينتابنا التأثر والجماس الشديد إلى حد الصراخ والبكاء ، ثم يكون بكاؤنا صرخة فى واد ، ونفخة فى رماد ، لآتنا لم نحاول الإصلاح جادين ، ولم نساك من طرقه ما يقطع السبيل على إخوان الشياطين .

إن السيدة المحافظة التى حبست فى البيت فلا تنال من الأزهر علما ، ولا من

المسجد زادا، ستظل تحسب نفسها دون جارتها المترددة على (السينما) والخارجة إلى الحديقة، والمزينة في الشارع ، والمصيفة على الشاطئ . إلا أن تكون فوق أهواء البشر ، ونزعات النفوس . فلو خرجت الخارجة إلى (السينما) وذهبت المحافظة إلى المسجد، وبرزت المتكشفة إلى الشواطئ وسعت المحتشمة إلى الدرس، وجالت المتغربة في الطرقات ، وحضرت المؤمنة الصلاة ، فستشعر من عزة الدين ، وترفع الاحتشام وعظمة الأدب ، بما يزدري التبرج والتكشف والانحلال

إن في المجتمع قلة من السيدات المجاهدات الداعيات إلى الله ، يقاومن التيارات الغربية ، والسموم الأجنبية ، والمخازي المجلوبة ، فهل من الإخلاص لديننا ووطننا وقوميتنا أن ندعهن في الميدان بوسائلهن الضعيفة المحدودة، ونقف من جهودهن المشكورة متفرجين، مغتبطين أولا هين ؟ أليس واجبنا رعاية هذه الروح العالية بتربية جيل من الفتيات تربية إسلامية ، يتفقهن في الدين ، وتختلط علومه وآدابه بقلوبهن ودمائهن ، فيعدن لنا سيرة المؤمنات الصالحات في أسلافنا الصالحين ؟ أليس واجب الأزهر إنشاء عدد من المعاهد الدينية للفتيات يشرف عليهن منذ نعومة أظفارهن ، ويلقهن من علوم الدين ، ومعارف الحياة الكاملة ما يجعلهن أمثلة عليا للمرأة المسلمة التي تنشئ البيت المسلم ، وتكون خير قدوة لآلها وذويها . ذلك الذي نرجو أن يكون، وبأسرع ما يكون .

هذا ولعل من دواعي الارتياح ، أن نختم هذا الفصل بكلمة لعضو بارز من جماعة كبار العلماء (١) تحت عنوان « فتياتنا في الأزهر » ، تصلح أن تكون منهج الدراسة في معاهد البنات الأزهرية إذ يقول :

(١) فضيلة الشيخ محمد عرفة — والمقال منشور بهلال يناير سنة ١٩٥٥

« علموهن الدين في بساطته وسهولته ويسره ، كما كان في الصدر الأول ،
وأعفوهن من التفريعات الكثيرة والقواعد الاصطلاحية ، وجنبوهن التعقيد
الفلسفي والآراء الجدلية . . فإن ذلك لا يلائم طبيعتهن ، ولا يساير شيمتهن .
افرضوا ما شئتم على الفتيات من الصيانة ، وحوطن بما ترون من الرعاية ،
واجعلوا هذا التعليم خاصا بهن لا يختلطن فيه بالفتيان ، ولكن لا تحرموهن
الدين ، وتقوية اليقين » .

قرأنا بعد ذلك رسالة لطيفة للأستاذة زينب الحكيم بعنوان رسالة
الآزهر في القرن العشرين من وجهة نظر المرأة ، أعيد طبعها أخيرا ، وكانت من
بين رسائل المسابقة في سنة ١٩٣٦ ، وتطلب فيها للمرأة « أن يفسح لها مجال
في الأزهر ، لتعرف شئون دينها ، وتدرس أعظم شريعة سمحاء — اختصت
المرأة بمالم تختصها به شريعة أخرى . وتقول : وهذا الإصلاح الذي لم يسبق
الاسلام به دين ولم يبلغ شأوه تشريع ، يقوى من عزيمة المرأة على نصرته ،
ويدينها بنشر رسالته ، وهذه لعمر الحق درجة من الإصلاح البشري العام
عظيمة ، وخطوة للإصلاح النسوى خاصة . ص ٩ — ١٠ .



المرأة والحياة العامة

التعليم :

قطعت المصرية الحديثة شوطا بعيدا في الحياة المدنية ، فافتحمت الميادين الكثيرة التي لم تلجئها من قبل ، وفتحت الأبواب التي كانت إلى عهد قريب مغلقة ، وزاملت الرجل في عديد من الأعمال وسابقتها ، وطلبت من العلم ماطلب ، ورحلت في سبيله كما رحل ، وأخذت من أسباب الرقي والنشاط بمثل ما يأخذ أو قريب منه .

فالفتاة الآن تنال حظها من العلم كما ينال الفتى ، ومدارس البنات من ابتدائية وثانوية تنتشر في المدن صغيرها وكبيرها من الشمال إلى الجنوب ، وكليات الجامعات والمعاهد العليا تستقبل الأفواج وتخرج الأفواج من الفتيات . والمرأة الآن مدرسة وطبيبة وكاتبة وصحفية وموظفة في شتى الوظائف فوق مزاولتها الأعمال الحرة كالجارة ونحوها .

وقد ألّفت الجمعيات الكثيرة ساعة جهدها لترقية بنات جنسها ، وإعلاء شأنها ، والقيام بنصيبها من الأعباء الوطنية ، حيث تقوم بعض هذه الجمعيات بالخدمات الاجتماعية الهامة ، كالتمريض والتطبيب في المستشفيات والمبرات ، ورعاية الأطفال والفتيات ، وبعضها ينشر الثقافة الدينية والتربية الإسلامية ما أسعفتهن الوسائل المحدودة ، ومنها من يعمل للأغراض السياسية ، ويطلب المساواة بين الرجل والمرأة في هذا السبيل .

وبدأت المرأة تجرب نفسها في الأعمال العنيفة ، وتطلب المزيد منها فرحة مبهجة بتلك الحياة الجديدة ، فاشتركت الفتاة في الحرس الوطني ، وتلقت

التدريب العسكرى ، ولم يبق أمامها لتاج النصر ، واكليل الظفر سوى المساواة السياسية ليتاح لها أن تكون نائبة فى البرلمان ، ومن ثم تأخذ طريقها إلى كرسى الوزارة أو إلى أكثر منه ، كما أخذته قرينات لها فى بلاد أخرى .
والأمم - قوى فى مستقبل المرأة وأنه سيكون خيرا من حاضرها وأروع .
والناظر إلى الجيل الجديد الناشئ لا يملك نفسه من الإعجاب بالتطور الكبير الذى وصلت إليه البلاد فى تعليم أبنائها وبناتها ، فإذا تجاوزت العاصمتين الكبيرتين - القاهرة والاسكندرية - وحظهما من العلم جليل ، وشاهدت مدينة كطنطا أيام الدراسة ، ورأيت شوارعها الرئيسية فى الصباح وبعد الظهر وكيف تموج بعشرات الألوف من تلاميذ المدارس وتلميذاتها ، من قاطنى المدينة والوافدين عليها ، حتى ليخيل إليك أن الجمهور كله ذاهب الى المدارس وخارج منها ، إذا رأيت ذلك أيقنت أن المجتمع المصرى فى تطور سريع ، وأن أولئك الفتيات ممن يطلبن العلم وينشدن المعرفة لا بد وأن يزداد أثرهن فى حياتنا العامة .

بلغت المرأة ما بلغت من الثقافة والعلم ، وانه ليزداد حظ هذا القدر من الإعجاب إذا علمنا أن عهد المرأة بالتعليم العام قريب .
بدء تعليم الفتيات :

فأول (١) مدرسة أسست لتعليم البنات فى مصر كانت فى عهد اسماعيل سنة ١٨٧٣ أنشأتها إحدى زوجاته بحى السوفية من القاهرة وعرفت بعد بالمدرسة السنية .
ويذكر الأيوبى فى كتابه عصر اسماعيل (٢) : أن الأقباط سبغوا بإنشاء مدرستين إحداهما فى حارة السقاين تضم خمسا واربعين بنتا يتعلمن اللغة العربية ،

١ - الثورة العرابية للرافعى ص ٢١٠ . الاهرام فى ٧٥ عاما ص ٧ ، (٢) .

والأشغال اليدوية على يد معلمات سوريات ، والأخرى بجانب الأزبكية وكان فيها ثمانون بنتا . غير أن الدعوة إلى تعلم الفتاة كانت أسبق من ذلك ، فقد نادى رفاة الطهطاوى بوجوب تعليم البنات وتنقيتها أسوة بشقيقتها الفقى ووضع فى ذلك كتابه القيم وسماه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، وحث فيه على صرف الهممة لتعليم الفتيات والفتيان لترتقى المرأة ويزداد أدبها وعقلها ، ويعظم فى قلوب الرجال مقامها ، ويمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها... وهذا من شأنه أن يصرف النساء عن البطالة^(١) « وكان يستهدى فى بحوثه آداب الدين .

وقد لاقت الدعوة من ذلك الحين تقديرا من الطبقات العالية ، فأخذت العائلات الكبيرة تعلم بناتها فى البيوت على يد اساتذة من معلمين ومعلمات ، فظهرت طبقة نالت حظا وافرا من العلم والثقافة ، ومن هذه الطبقة « عائشة التيمورية » ، وقد نبغت فى الشعر والأدب ، وأتقنت النحر والعروض على يد معلمتين من أهل العلم فى هذا العصر ، وهما فاطمة الأزهرية ، وستيته الطبلالوية^(٢) وجاء بعد رفاة الطهطاوى قاسم أمين ، فألف كتابيه تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، ووسع نطاق الدعوة ، وعرف بها ونسبت إليه .

هذا البدء المتواضع للتعليم النسوى فى عهده القريب لم يلبث أن قفز بالمرأة سريعا إلى مرتقى عال من الثقافة والعلم ، سارت به الرجل وشاركته فى كثير من الميادين العامة .

والنتيجة المعقولة لهذه الخطوات النفسية المدى فى رقى المرأة وتقدمها ، واستزادتها من العلم ، ومعرفتها بما لها وما عليها من حقوق وواجبات ، ووضعها

خبرتها وجهودها وعدلها لخدمة وطنها أن تكون الأسرة المصرية أحسن حالا ، وأهنأ بالآ ، وأكثر تماسكا ، وأقوى روابط ، وأن يحظى النشء برعاية كاملة ، فى ظل أمهات مستنيرات ، عرفن من أسرار التربية ، وواجب الطفولة وحسن التوجيه ما لم يتيسر للأمهات السابقات .
المصرية تؤثر العمل الخارجى :

ولكن المصرية المتعلمة التى رُجى أن تكون أما نموذجية ، وربة بيت مثالية ، تقوم بأعداد الشببة إعدادا صالحا ، وتشرف على بناء الوطن فى بنيه ، كى ينهض الجيل الجديد مزودا بالقوى النفسية ، والمسلكات الخلقية بما ينتظره من تبعات وأعباء جسام ، هذه المصرية المرجوة لإقامة أركان الوطن على أساس متين آثرت الكثيرات منهن ميدان الحياة العامة ، ورأته أليق بها وآنق لها ، وأرضى لطموحها ورغباتها فرفضت الحياة الزوجية ، أو جمعت بينها وبين العمل الخارجى .

ونحن مع إيماننا بوجوب العلم للرجل والمرأة جميعا ، وأن طلبه فى الاسلام فريضة دينية ، وترحبنا بتعميمه للصغار والكبار من الرجال والنساء نتساءل : هل من الخير للفتاة أن تتعلم من العلم ما يتعلم الفتى لتزاحمه فى المكتب والمتجر والمصنع ، وتقاسمه الوظائف العامة ، وتحمل من الأعباء ما يحمل الرجل ؟ وهل من الخير للامة أن تعلم بناتها لتتنفع بها انتفاعها بأبنائها ، وترفع بالجهود المشتركة المستوى الاقتصادى للامة استجابة لظروف التطور الاجتماعى التى جعلت من اشتراك الجنسين ضرورة وطنية ؟

وهل من الصالح العام انتزاعُ الأم المتعلمة من أحضان بניה ، وحرمانهم من رعايتها الكاملة لئلهى جهودها الخارجية الى المجتمع بالاضافة الى جهود الرجل كى يزيد الانتاج الى المدى الذى يراه الداعون اليه ؟

وربما كان هذا الأخير ممكناً لو استغنى الصغار عن يتعاهدكم ويرعاهم ويقوم بأمهم مدة غياب الأبوين عنهم ، أما ولا بد لهم من شخص يحل محل الأبوين مدة خروجهما فلم توفر للأمة شيئاً ولم نصنع سوى استبدالنا الدخيل بالأصيل في تربية الأبناء ورعايتهم ، فرضينا الخادمة أو الخادم للإشراف عليهم مدة خروج الآباء .

وقد يقال : إن بروز الأم المحامية أو المعلبة أو الصحفية أو النائبة .. لعملها الخارجى أجدى على المجتمع وأوفر له من خادم أو خادمة جاهلين نكل اليهما الأبناء حتى تعود الأم بعد حين ، ولكن هل هو أجدى على الطفل من حنان يدفئه ، وعطف يهجه ، وتوجيه سديد يسعده ويسعد به المجتمع ؟ . إن المجتمع هو ذلك الطفل الصغير من هذه الأسرة ومن تلك ، ينشأ سليم الجسم والعقل والعاطفة فيسلم المجتمع بسلامته ، أو تمرض نفسه وتبیس عواطفه وينحرف احساسه فيصيب المجتمع منه اذى كبير .

إن بُعد الأبناء من عطف الأمومة الزمن الطويل ، والقذف بهم الى أحضان الخدم وأكتافهم يكرعون من مواردهم ويُطبعون على غرار خلائقهم حرمان لفلذات الأكباد من حقوقهم الطبيعية في صلاح التربية وحسن التنشئة ، بل في عواطف الخير والمحبة تعمر قلوبهم وأفئدتهم نحو ذويهم ، وتمتد منهم إلى المجتمع الخارجى ، إنه اليتيم الفعلى لهذه الزهرات اليانعة من مهج القلوب ، وثمار الحياة ، تلك التى لاتنال حقها الفطرى من الرعاية والعناية والحنان والتوجيه ، وما أصدق شوقى في تعبيره عن اليتامى ذوى الأبوين إذ يقول :

ليس اليتيم من انتهى ابواه من هم الحياة وخلفاه ذليلاً
فأصاب بالدنيا الحكمة منها وبحسن تربية الزمان بديلاً

إن اليتيم هو الذى تلقى له أمّا تخلت أو أبا مشغولا
قد يكون مفهوما أن تعمل المرأة التى تضطرها ظروف حياتها إلى كسب
عيشها ، وواجب الدولة معونتها وحمايتها ، ولكن أى شئ - غير الزف -
يحمل المرأة المتزوجة المنجبة على ترك أبنائها إلى حيث تقضى الساعات الطوال
فى مقر عملها موزعة القلب ملهوفة الفؤاد .

إن للمرأة ميدانا لا يجاريها الرجل فيه ، فهل سيُصر على أن تكون ربة
فى الوقت الذى تشاطر الرجل عمله الخارجى ، أو أنها ستشاطر الرجل فى الخارج
ليشاطرها العمل الداخلى ، ومن ذلك تجيء المساواة الكاملة ؟ . ولو كان ذاك
فإلى أى مدى يكون التوافق والانسجام والسعادة البيتية فى أسرة يعمل الرجل
والمرأة كل منهما فى طريقه ليجتمعا آخر النهار متعبين مكدودين ؟ . أينفس
عنها أم تنفس عنه ؟ أيعدُّ لها طعامها أم تعدُّ له طعامه ؟ أم يتعاونان ؟
ولو أفلح الرجل فى مشاركة امرأته المنزل أترأه يشارك فى حمل الولد تسعة أشهر
وفى إرضاعه حولين كاملين أو قريبا منهما ؟ أم ستضطر المرأة ويضطر معها
الرجل إلى أن تنفرد هى بذلك على أن ينفرد هو بالعمل من أجلهما وأجل
وليدهما ؟

نشرت الأهرام (١) لكاتبة فاضلة مقالة ضافية بعنوان الى الآباء تنعى عليهم
تقصيرهم فى تربية أبنائهم وعدم تخصيصهم القدر الكافى من أوقاتهم لرعايتهم ،
وأخذت على الآباء انشغالهم على الأبناء - وصدقت - ولكن ماعساها قائلة
فى الأم المشغولة عن ولدها بعملها الخارجى وليست فى حاجة إليه ، إلا إرضاء
لكبرياء زائفة ، أو استعباداً لزف قاهر .

إن اشتغال المرأة بالأعمال العامة من غير ضرورة ترفه لاخير فيه ،
واعمالها بنيتها ، ودفعهم لمن لايعنى بهم ارضاء لمظاهر براق ، وتفضيلاً للعمل
الخارجي على تربيتهم جرمٌ كبير ، يرى أثره في الأم نفسها وفي الأبناء ،
حتى صار من المؤلف انعقاد المؤتمرات لبحث مشاكل الأسرة ومعالجة
انحراف الاحداث . ولئن قيل بأن بعض هذه العيوب موجود من قبل
فلقد كان الظن بتقديم المرأة أن يصاحبه على الأقل تخفيف آثار هذه الويلات
لاتفاقمها وتزايدها يوماً بعد يوم .

أزمة الزواج :

بل لم يقتصر الأمر على مشكلة انحلال الأسرة وانحراف ابنائها فحسب —
وإنه لخطب جسيم — وإنما جدت مشكلة بناء الأسرة وإقامتها ، فقد كان
من جراء اشتراك المرأة في الأعمال مع الرجل أن استعذبت الحرية
والانطلاق وآثرتهما على المنزل وابعائه وواجباته ، وشعر الرجل بابتدال
انوثتها فلم يسرع إليها ، وساورته الشكوك في سلوكها فعزف عنها ، وعرف
منها ماوراء حريتها فساء ظنه فيها ، وصار من المؤلف المشاهد كثيراً أن
تتقدم السن بالفتاة العاملة أو الموظفة فتقضى أيامها عانساً يُقضى مضجعها ،
ألم الوحدة ، أو تنزل راغمة بعد فوات الأوان على زواج لم يكن ليرضيها
وكانت القوانين قبل — وما تزال قائمة — موضوعة لمنع التبكير الشديد في
زواج الأبناء وهم صغار .

إن اندفاع المرأة في الحياة العامة ومشاركتها الرجل في أعماله إن هو
إلا تقليد لنظم الغرب وسير في ركابه ، وإذا كنا نحاول اقتفاء آثاره
واحتذاء مثاله ، فهل تيقننا أن كل ما يصلح لأوربا وأمريكا مثلاً يصلح لنا

وكل ما يفيدهم يفيدنا؟ وهل علمنا حقاً أنهم في مدينتهم الباهرة وحضارتهم الزاهرة، وقوتهم المادية القاهرة سعداء بحالهم هائثون في أوطانهم راضون عن أمورهم، قويت لديهم روابط الأسرة وحسنت تنشئة الأبناء عندهم بما حسنت به اقتصادياتهم.

إن عقلاءهم يتلمسون المخرج مما وصلت إليه حال بلادهم. وإن نفراً قليلاً من فلاسفتهم ومفكرهم كانوا يحذرونهم نتائج التغالي في النواحي المادية وعواقب التفريط في المثل الروحية، والمبادئ السامية، وقد صارت الأفراد القليلة الشتيئة الآن جماعة كثيرة العدد جبهة الصوت، وحشد بينها في الأمم المتفرقة شعورها بالخطر المحدق على مدينتها المادية، فولت وجهها نحو الشرق تجوب أقطاره وتلقى رجاله، وتلتمس من آدابه، وتستمد من دينه وعقيدته ما ترجو به انقاذ الغرب مما تردى فيه (١).

لقد ازدادت مشاكل الطفولة وانحراف الأحداث عندهم كأثر من آثار تفكك الأسرة نتيجة لعمل الأم خارجها وتكسبها كالرجل وتركها الأبناء للخدم ودور الحضانة وسواها.

١ - تذكر الصحف بين الحين والحين اخبار جماعة التسليح الخلقى واشترك مصر بممثليها في بعض نشاطها - وأوردت الجمهورية أنباء رحلاتهم في الشرق، وفي أثناء عودتهم من الحجاز الى مصر وجه مندوبها اليهم جملة أسئلة وكان مما قاله المستر جولدنج الانجليزى : « إن الغرب بدأ يتجه إلى الشرق التماساً لمساعدته والأخذ بيده في علاج مآلاته التي شطرنه الى شطرين ». وأجاب الهر جارايس الألماني عن سؤال : لماذا وقع اختياركم على الدول الاسلامية والبدء بياراتها، بقوله : « ان الاسلام دين متين عامر بالقيم الروحية والمعنوية، وقد صمد في وجه القوى التي تألبت عليه في شتى العصور، ونحن نعتمد على روحانية الاسلام، فاذا ساعدنا المسلمين أمكن أن يعم الخير العالم ».

جاء في الأهرام (١) تحت عنوان : الطفولة المشردة في أمريكا ، بخط عريض - ما قاله المدعى العام هربرت براونل في خطبة له : إن هناك أكثر من مليون من الأطفال المشردين في هذا العام سيقعون في قبضة البوليس وقال : إن مستقبل هؤلاء مخيف ما لم يدرس أمرهم في دقة ، واقترح علاجاً للوقوف لإنشاء فرع للأحداث في كل قوة من قوات البوليس . . . في كلام آخر طويل . وهذه هي المؤتمرات العالمية تعقد لمكافحة الجريمة بين الأحداث ، ودراسة أسباب انحرافهم ، ومحاولة إصلاحهم والأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل ، كما عقدت مؤتمرات عربية لمثل هذا الغرض بإشراف هيئة الأمم (٢) فهل تريد الأممات عندنا وقد بدت مظاهر الأزمات الخلقية بين الصغار والكبار من جراء ضعف التربية المنزلية ، وترك المرأة شئون بيتها ، وبروزها للعمل الخارجي ، هل تريد أن تصل إلى آخر الشوط فيزداد عدد الأطفال المضطربين عندنا ويتضاعف عديد المنحرفين منهم ، وتنكب البلاد في أعظم ثروة لديها ، وأعز شيء عليها ، وهم بنوها وناشئتها ، وشباب المستقبل وعدة الوطن ١١١٩

أما القول بأن اشتراك المرأة في الإنتاج القومي ضرورة وطنية فليس إلا تعلات خيالية يبررون بها ما يريدون ، فنحن لا نشكو قلة اليد العاملة حتى نستعين بيد المرأة الصانع ، ولن نذكر هنا ألوف العمال أو عشرات الألوف ممن يبتغون العمل فذاك شيء تعلمه وزارة الشئون وسواها من المشتغلين بقضايا العمال . ولكننا نعلم عن خبرة ويقين في محيطنا الريفي أن الفلاح المصري يتعطل شهورا كثيرة في العام وهم على الأقل بضعة ملايين . إن بلادنا سبقتنا بالعلم والصناعة والزراعة ورزقت الأرض الفسيحة ومع ذلك فزاحمة النساء للرجال فوق ما

أحدثته في محيط الأسرة والطفولة كانت سببا في تعطل عدد هائل من العمال يزداد يوما بعد يوم ، ويهدد الدولة بالشر المستطير .

نشرت الأهرام في ٣١ / ١ / ١٩٥٤ تحت عنوان : إزدياد البطالة في أمريكا ما يأتي :

أصدر مكتب الإحصاء الأمريكي بيانا أشار فيه إلى أن عدد العمال المتعطلين بلغ مليونين و ٣٦٠ ألفا في الولايات المتحدة هذا الشهر ، أي بزيادة نصف مليون عن عددهم في شهر ديسمبر .

ولعل من المفارقات الواضحة أن يكون في نفس العدد من الأهرام بعنوان « ديموقراطية التوظيف — الفتاة ووظائف الدولة » مقال ذكر فيه كاتبه نجاح المرأة فيما تولته من أعمال ، وجاء فيه : وقد شرط المشرع الفرنسي على المرأة التي تلتحق بخدمة الجيش أن تستمر بالخدمة من ثلاث إلى خمس سنين وأن تكون غير متزوجة أو أرمل أو مطلقة ، أو منفصلة عن زوجها ، وأن تتعهد بالعمل في جميع أنحاء الجمهورية الفرنسية — وقد جذب رؤيته للفتاة المصرية وقد شغلت مناصب القضاء والمناصب الرئيسية الكبرى في الوزارات ، واتخذ من فرنسا دليلا على مايقول .

هذه هي الحياة الناعمة المدللة يريد بها الرجل لنفسه ، كيما يلطف جو العمل من حوله ، بالمرأة تشاركه في أعبائه ، فيدعوها إلى التشبث بما تحسن وما لا تحسن ، وإن جر عليها العناء والشقاء .

قد تضطر المرأة بحكم ظروف الحياة إلى العمل الخارجى فلا بأس أن تتولى منه ما تحسن ، وقد تحسن المرأة التدريس أو تربية الطفولة في دور الحضانة ورياض الأطفال ، أو معالجة المرضى ومساعدة المنكوبين وهذه نواح تستغرق

جهاد المرأة المستعدة لها وهي بها أليق وأوفق - ولكن تطلع المرأة لمشاركة الرجل في كل عمل وإن كان شاقا ، ومزاملته في المهمات وإن كانت مرهقة أمر تنوء به طاقة المرأة ويعجز عنه أحملها ، وليس ينقض ذلك أن تخرج امرأة على القاعدة فتحسن ما يحسن الرجال من أعمال العنف والقوة ، فالأحكام العامة إنما تبني على الأعم الأغلب لا على الندرة والشذوذ .

كذلك من الأحوال الاستثنائية نشوب الحرب وقد شهدنا المرأة في القديم اشتركت في حروب الإسلام (١) وكان دور المرأة فيها رعاية الجرحى وخدمة المحاربين ، وربما تحرّج الموقف حتى رأت المرأة نفسها في حال دفاع فحملت المهند ساعه من نهار . وما تزال المرأة كذلك تدفعها المواقف الحرجة ، والأخطار المحدقة ، فتندفع اندفاع الأم اللهي رُوعت أشبالها ، والأمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي والعالمي والتاريخ المصري الحديث ، وما أبْلته المرأة المحجبة في دفاع الفرنسيين منذ لاحت سفنهم على شاطئ الاسكندرية ، وفي كل مكان وظمؤه ، إلى أن جلوا عنها مدحورين وكان الشعور بالخطر هو دافع المرأة إلى القتال والاستبسال . هذا الأمر مسلم به في القديم والحديث . تعارفه الناس في كل الأمم والأزمان ، وساروا عليه حتى في هذا الزمن الذي تطرفت فيه المرأة مبالغة في دعوى المساواة ومالآها كثير من الدعاة استملاحا لوجودهن ومشاركتهن ، ما تزال المرأة تقوم بدورها الطبيعي المناسب بما ليس شاقا ولا عنيفا ، وإن تطلّب حكمة وإخلاصا وصبرا .

وفي مثل هذا المجال يقول شباب من قادة الثورة بلسان القائد المحنك مقالة الخبير : (٢)

١ - انظر فصل المرأة والدعوة . ٢ - قائد الجناح حسن ابراهيم في ١٩/١١/٩٥٢ يجب مندوبة المصور عن دور المرأة .

« اننا لانمنع المرأة من الكفاح ولكننا كجنود نحب أن يُحدد لها اختصاصها وميادينها ، فالقائد لابد أن يحدد لكل جيش ميدانه ، ولكل سلاح اختصاصه ، ولا بد من أن ينظم قوات تموينه وإسعافه وقوات الصيانة الخاصة ولا يمكن أن ينتصر جيش إلا اذا كانت صفوفه المجهولة تعرف واجبتها تماما ، وتؤدي هذه الواجبات ، أما إذا تركت لتحمل السلاح مع الصفوف الأولى فلن يكون نصيب الجيش كله غير الهزيمة ، ولهذا وجب أن يؤدي كل سلاح مهامه صغر الواجب الملقى عليه سواء في خط النار ، أو بعيدا عن خط النار ، وعندما تعمل الأسلحة متحدة نحو هدف واحد ، فالنصر مكفول وفخر النصر للجميع ... ثم قال .. لقد حددنا أهداف الثورة ، وتطهير الوطن من كل غاصب . ثم خلق المواطن الصالح . ورفع مستوى المعيشة ، ولا شك أن على المرأة عبئا كبيرا في تحقيق هذا ، وهو خلق البيت الصالح لانشاء المواطن الصالح ، إنها هي التي تربي الطفل وتلقنه حب وطنه ، وترضعه الإباء والشهم والكرامة ، فهل هناك بعد هذا الكفاح كفاح ؟

وتكلم على نجاح المرأة في ميادين أخرى اجتماعية ، ورغب أن يكون النساء جميعا مؤمنات بحق هذا الوطن وتبعاته ، غير راغبات في التباهي والظهور .

وبعد :

فلعل المرأة تتقنع بهذا الدور الخطير في الحياة ، لعله يكفيها أن تكون صانعة الحياة فتوفر جهودها لكل مايرقيها ويزكيها ويحفظها ، فذلك أجدى عليها من تبديد قواها بين عمل خارجي ، وواجب منزلي لن يغني أحد غناءها فيه ، وإذا كان الله سبحانه لم يجعل « لرجل من قلوبين في جوفه » كما أنزل في كتابه ، فما أراه عزت قدرته أثر المرأة بذينك القلبين . (٢) - ٦٥٢١ - (١)

إن المرأة وقد خلقت من الرجل ، إنما تكمله في رسالته ، لا تزاحمه في مهمته وأعبائه وهما بالاتحاد في الغاية والتوزيع في العمل سعيدان ، فإذا خاضا لجة الحياة متسابقين فقلما يصلان .

عقدت جريدة المصري مسابقة النيل^(١)، ورصدت لها الجوائز المغرية واشترك فيها سباحون عالميون وزانت أكاليل النصر هامة شاب فرنسي، لم يكن باتفاق الجميع أقدر السباحين ، ولا أقواهم يداً ، ولا أرحبهم ذراعاً ، ولكن القدر حباه زوجة موالية ، نزلت القارب إلى جانبه في غسق الليل وزمهرير البرد ، تحوطه بحنانها ، وتنفخ فيه من روحها ، وتسقيه الشراب الدافئ بيدها ، وتشد من عزمه ، وتهديه أيسر السبل ، وكان ما يشبه الاجماع على أن زوجته أكبر أسباب نصره . ولقد وقفت عند هذا الحادث العارض وتأملت ملياً ، ثم تخيلت هذه الزوجة سباحة مع زوجها في الماء تصارع الأمواج وتكافح البرد ، ساعية الى الهدف ، طامعة في مضاعفة الجائزة ، وزوجها يفكر فيها مرة وفي نفسه أخرى . وللقرارى الحكم آتئذ فيما إذا كانا سيقبضان كلاهما على غير الماء .

✕ إن رسالة المرأة في حقيقتها ايثار وإخلاص ونكران ذات ، وعملها في اختصاصها يعدل ما يقوم به الرجل من جلائل الأعمال ، وجسام الأمور . تطلعت النساء على عهد النبي ﷺ إلى مزاحمة الرجال في بعض ما يخصهم ، فنزل قول الحكيم العليم : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليماً » ✕

وأوفدت النسوة اسماء^(١) بنت يزيد الانصارية . . إلى رسول الله ﷺ فجاءت وهو بين أصحابه فقالت : بأني أنت وأمي يا رسول الله ، أنا وافدة

(١) ديسمبر ١٩٥٣ - (٢) ابن الاثير في أسد الغابة من ترجمتها .

النساء إليك : إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فأمننا بك ويأهلك
وإننا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، ومقضى شهواتكم
وحاملات أولادكم ، وإنكم معشر الرجال فضلتُم علينا بالجمع والجماعات وعبادة
المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله
عز وجل ، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم
أموالكم ، وغزلنا لكم أثوابكم ، ورينا لكم أولادكم ، أما نشارككم
في هذا الأجر والخير ؟ . فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجه كله وقال :
هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن في مساءلتها في أمر دينها من هذه ؟ . قالوا
يا رسول الله : ما ظنننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا . فالتفت النبي ﷺ إليها
فقال : أفهمي أيتها المرأة وأعلى من خلفك أن حسن تبعث المرأة لزوجها
وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ، فانصرفت المرأة وهي تهلل .
رواه ابن الاثير في أسد الغابة من ترجمتها . وفي الاصابة لابن حجر : انها شهدت
اليرموك وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها وعاشت بعد ذلك دهرا .
ألا فلتعلم الأم المثقفة أن أعظم رسالة تؤديها في الحياة هي هذه الحياة الناضرة
القوية السليمة ، المليئة بالتفاؤل والسعادة والاتزان ، من بنين وبنات منحهم حنانها هذه
الخصال وامدهم توجيها بتلك الحلال ، ونشأتهم رعايتها أفضل التنشئة يملئون جوها بهجة
وغبطة ، ويحملون عبء الحياة مقدمين ، غير هيايين ولا وجلين ، وهي بحكم
الحياة شريكهم فيما يصلون إليه من عز وما ينالون من مجد وفخر ، وهي بحكم
الدين شريكهم في المثوبة والأجر ، لها مثل ثوابهم من غير أن ينقص شيء من
أجورهم ، يصل ذلك إليها في حياتها وبعد مماتها . وفي الحديث اذا مات ابن آدم
انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح
يدعوله والمرأة والرجل في الثواب سواء .

المرأة والحياة السياسية

تدور الآن رحي معركة شديدة حول المطالب السياسية للمرأة وهل هي حقوق لها ، ومن الخير أن تمارسها ، أو أن المرأة برسالتها العليا في الأسرة التي هي الأمة مصغرة يجب أن تكون بمنأى عن السياسة وشروورها ؟ وقد بلغت هذه المعركة مرحلة تكاد تكون حاسمة بتقرير اللجنة الفرعية في لجنة الدستور لمطالب المرأة السياسية بأغلبية ثمانية اصوات الى ستة .

وكان من مظاهرها المشيرة أخيرا ذلك الاعتصام الذي قام به فريق من السيدات في نادى نقابة الصحفيين ، وعلانهن الاضراب عن الطعام حتى تجاب مطالبهن السياسية ، أو يمتن دونها وما صحب ذلك من تشجيع كثير من الهيئات النسائية المصرية ، وبعض الهيئات أو الشخصيات الأجنبية النسوية كذلك بعض افراد وجماعات من المصريين .

وقد سبق ذلك رأى ديني عام أو شبه عام ضد المطالب السياسية ، توج بفتوى رسمية من لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، وأيد ذلك المفتى الرسمي ، وشيخ الأزهر ، وهيئات دينية كثيرة وبعض الجمعيات النسوية .

وقد كان من اليسير أن أعفى نفسى وأعفى القارئ من علاج موضوع كهذا كثر الكلام فيه ، مكثفين بما بذله أسياننا من جهد مشكور ، وما ابتغوا الله فيه من قصد كريم ، وما قدموه للأمة من نصيح وتوجيه .

ولكن ولى على ما ارتأته لجنة الفتوى ملاحظات لم أربدا من أن أدلى بدلوى المتواضع ، على النهج الذى التزمته في البحث من تحرى الحق لا آلوه

جهدا ، ولعل القارئ الذى سار معى الى هذا الحد رأى فيما سبق - وسيرى
بعون الله فيما سياتى - أن البحث لا يخالف أحدا رغبة فى خلاف ، ولا يوافق
إثارا للسلامة من الألسنة ، أو تخففا من عناء الدراسة ، إنما هدفه وغايته الحق
خالصا لله وللوطن ؛ والحق أحق أن يتبع .

وعندى أن المرأة المصرية التى تطلب ما نراه حقوقا سياسية ، إنما تريد ما يشبه
أن يكون رد اعتبار أدبى ؛ فالمرأة وقد بلغت ما بلغت من الثقافة والعلم ، وخاضت
لمجّة الحياة العامة ، ونجحت فى ميادين كثيرة فوق ما قدر لها ، لا يرضيها الآن
أن تكون الحياة النيابية وقفا على الرجال سواء فى ذلك عالمهم وجاهلهم أغنيهم
وفقيرهم ، من دون النساء عامة ، وفيهن صفوة ممتازة . ومنهن من تزايل الرجل
مدرّسة فى الجامعة ، ومحامية فى المحكمة ، وصحفية فى الجريدة ، وناظرة فى
المدرسة ، ومفتشة فى الوزارة ، وطبيبة فى المستشفى ، وتاجرة فى المتجر الى غير
ذلك من الميادين العامة ، فكيف يُضنّ عليها باعطاء صوتها فى الانتخاب ، أو
قبول توجيهها فى السياسة بحجة أنها امرأة ؟ فهل لا تزال ناقصة العقل والدين (١)
مع كل هذا الذى تقوم به من أعمال ؟

ويلحق بما سبق أن المرأة فى كثير من البلاد الغربية والشرقية اعترفت لها
بالحقوق السياسية وفيها بلاد أقل مدنية وحضارة ورقيا من بلادنا - إلى أن
بعض البلاد التى أشركت المرأة فى سياستها بلاد إسلامية ، بذت دستورها المدنى
على القرآن ، فهى أكثر منا فى السياسة محافظة ، ولو منع الإسلام المرأة
من البرلمان لكانت تلك البلاد أولى بمنع نساها .

١ - انظر فصل المرأة .. فى الشهادة .

وتؤيد المرأة مطلبها وتزكيه بأن الواجب يقتضى من المرأة وهى نصف
الامة أو تزيد ، أن تشارك فى السياسة انى تؤسس بها ، والقوانين التى تسرى
عليها ، وبخاصة مايتعلق بنظام الاسرة ، وعندها أن الرجل يحاى نفسه فى بعض
ما يضع من قوانين .

هذه خلاصة لفكرة من يرى منح المرأة مطالبا السياسية .

ويقابله الرأى القائل بأن للمرأة مهمة أصيلة وقفا عليها لا ينهض بها الرجال
فهى بانية الوطن حين تبنى الاسرة ، ولا ينبغى أن تنصرف عنها بيريح المظاهر
الخادعة من الشؤون السياسية ، إلى جانب أن السياسة معتزك شديد ينوء به
كثير من كفايات الرجال ، ويحتف به حسبما يؤيده الواقع الملموس مالا
يليق بالمرأة الكريمة أن تتعرض له ، فمن الخير للدولة وللمرأة نفسها أن تنصرف
إلى ميدانها الطبيعى فتخصصه بجهودها وجهادها ، وإنه لجهاد وأى جهاد ، وكل
ميسر لما خلق له .

ويزاد فوق ذلك الفتوى بأن الدين الاسلامى يمنع المرأة من البرلمان .

وسنعرض أولا للفتوى بدرس ما هو من موضوعنا بسبيل :

استجابت لجنة الفتوى (١) مشكورة لتساؤل الكثيرين ، ورغبتهم فى بيان

شاف من علماء الدين ، بعد أن كثر القال والقيل .

وترى اللجنة كتمهيد للموضوع : أن اختلاف الأفكار من طبيعة

الاجتماع ، ولكن البحث يجب ألا يتجاوز دائرته الى النيل من مقام السلف

أو الغض من اقدار العلماء ...

١ - نشرت كاملة بالاهرام فى ١١ من يونية سنة ١٩٥٢ .

وترى في الموضوع أن المسألة ذات شقين :

١ — أن تكون المرأة عضوا في البرلمان

٢ — أن تشترك في انتخاب من يكون عضوا فيه .

ثم تمضي تبين كلا منهما فترى في الأول أن الإسلام الذي أعطى المرأة حرية التصرف في شؤونها المتعلقة بها ، أعطاه كذلك حق الولاية الخاصة بالنسبة لغيرها كالولاية على الصغار ، والولاية على المال ، والنظارة على الأوقاف ، فهي تملك من ذلك ما يملك الرجل ، وأرشدتها الشريعة إلى ما يحفظ كرامتها ويصون شرفها ومكانتها .

أما الولاية العامة ومن أهمها عضوية البرلمان ، وهي ولاية سن القوانين والهيمنة على تنفيذها فقد قصرتها الشريعة على الرجال إذا توافرت فيهم شروط معينة ، وقد جرى العمل على هذا فلم يسند إلى المرأة شيء من هذه الولاية مستقلة أو مع غيرها من الرجال ، وكم من اجتماعات شوريه لم تشترك المرأة فيها ولم تدع إليها ، وبيعة الخليفة الأول تمت بدون اشتراك المرأة أو دعوتها كذلك . والدليل الشرعي : ما رواه البخاري وأحمد والترمذي والنسائي من قول

النبي ﷺ وقد وردت الأخبار بأن الفرس ملكوا عليهم امرأة د لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ،

وبينته قائلة : والحديث نهى أ كيد عن تولية المرأة الشؤون العامة بأسلوب من شأنه أن يبعث القوم الحريصين على فلاحهم ، وانتظام شملهم على الامتثال هذا ما فهمه أصحاب الرسول ، وجميع أئمة السلف . . . فهم جميعا يستدلون بهذا الحديث على حرمة تولي المرأة الإمامة الكبرى والقضاء وقيادة الجيوش ، وما إليها من سائر الولايات العامة .

ثم مضت اللجنة في بيان رائع تشرح أسباب هذا الحكم من طبيعة المرأة،
وتفند ما يستدل به دعاة حق الانتخاب من حضور السيدة عائشة واقعة الجمل
وأنها قد اعترفت بخطئها . وان مبايعة النبي للنساء بيعة خاصة بهن ، وعلى غير ما
بايع عليه الرجال من الجهاد والنصرة ، أما تولى شجرة الدر فليس في ذلك حجة
دينية ولا شبه حجة .

وحيث مُنعت المرأة البرلمان ، فما يؤدي إليه من حق التصويت ممنوع .
وهذا هو الشق الثاني للمسألة . ثم أكدت ذلك بما يصاحب عملية الانتخاب من
سلسلة اجتماعات واختلاطات تتعرض المرأة فيها لأنواع من الشر والأذى
ينبغي أن تكون بمنأى عنها حفظا لشرفها وكرامتها .
هذه خلاصة فتوى اللجنة في المسألة .

وجوه الموضوع :

- ١ — أن البرلمان ولاية عامة
- ٢ — وأن المرأة ممنوعة منها بالحديث الصحيح المتفق عليه قولاً وعملاً ،
وكذلك ممنوعة مما يؤدي إليها .

أما أن البرلمان ولاية عامة فظاهر من أن كل فرد فيه ينتخب عن دائرة من
الدوائر ، أو يكون في جملة المعينين بالاختيار ، ينوب في المسائل التي تعرض على
المجلس عن الأمة كلها ، لا عن نفسه شخصياً ، ولا عن أهل دائرته فحسب ،
وللبرلمان سلطة تشريعية فهو يسن القوانين ، ويهيمن في رأى اللجنة على تنفيذها .
ولكن أية ولاية عامة هذه ؟ هل هي من نوع ماورد فيه الحديث الشريف
من الملك والإمامة الكبرى ؟ أو من قبيل ما قاسه العلماء السابقون عليه كالقضاء
على خلاف بينهم ، وقيادة الجيوش ؟

يقولون إنها ولاية سن القوانين والهيمنة على تنفيذها ، وسن القوانين والهيمنة عليها كلمة فخمة ضخمة ، فأية قوانين تلك التي يسنها البرلمان ، أو لجانه الفرعية ؟ أيسن قوانين يكمل بها الدين ؟ أم يقرر شيئاً يخالفه ؟ أم هو يضع ما يراه من نظم الحياة في دائرة من الإسلام ليس من حقه أن يتخطاها ؟

ونحن معشر المسلمين وفي مقدمتنا اللجنة الموقرة نعلم أن الله أكمل الدين منذ أنزل على نبيه في حجة الوداع ، اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ، فكان يوم عرفة عيداً لنا إلى يوم القيامة . فليس من عمل البرلمان المسلم إذاً أن يسن قوانين يكمل بها الدين . أما إن سن ما يخالفه ، فهل نعترف به ، ونقر الرجال عليه ، وتجب طاعة الولاية فيه ؟ إن البداة الإسلامية ترد ذلك وتأباه ، فرسول الإسلام يقول : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، والخليفة الأول يقول في خطبته الخالدة « أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » ، بقي أن يسن بعض النظم الجزئية التي يراها لصالح المجتمع في دائرة من الإسلام لا تعدوه . وهذا شيء لا بأس فيه .

على أن أجل مهام البرلمان تمثيل رغبات الأمة ، وإبداء الرأي فيما يعرض عليه من قوانين ، ومحاسبة الحكام على ما يعملون ، وإقرار تصرفاتهم ، أو اعتراض عليها إن لم تكن في صالح المحكومين .

ولم يقل أحد في الإسلام بأن المرأة ممنوعة من إبداء رأيها ، أو توجيه النصيحة للحاكمين ، أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر متى كانت عالمة بما تقول ، وفي الكتاب الكريم :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقىمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله » .

وقد راجعت امرأة النبي في ظهار زوجها منها ، وكان من قبل يعد طلاقا ، وجادلت فيه ، واشتكت إلى الله ظلم زوجها ، فسمع الله شكواها ، وشاء الله سبحانه أن تكون محاورتها فرجا من ضيق ، فنزل قوله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما . . . الآيات ، وكانت هذه المرأة تنصح أولياء الأمور . خرج عمر ومعه الناس فمر بعجوز فاستوقفته (١) ووعظته ، فقال رجل يا أمير المؤمنين : حَسِبْتَ الناس على هذه العجوز فقال : ويلك تدري من هذه ، إنها خولة بنت ثعلبة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات . . . والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقها إلا للصلاة ثم أرجع .

وأنكرت أخرى على عمر ما أبداه من رغبة في تحديد المهور ، وخطب الناس بذلك ، فقالت : ليس ذلك إليك يا عمر إن الله تعالى يقول : « وآتيتم إحداهن قطارا ، فرجع عن رأيه ، وأعلن صواب رأيها .

فمراجعة المرأة الرجل في بعض ما يوضع من نظم عامة وقوانين أيسر من ذلك .

وعندى لو أن الرجل كان مسلما كامل الإسلام لنامت المرأة هاتئة لا تشتكى ظلمها ولا هضمها .

وهذه المراجعة في القوانين ليست هي الولاية العامة التي مُنعت المرأة في

١ - روى من طرق كثيرة ، وهي موجزة في حسن الاسوة ص ١٣٧ .

الإسلام ، فليست من قبيل ولاية الخلافة ، أو الملك ، أو قيادة الجيوش ، أو ولاية إقليم مثلاً ، من كل ولاية عامة يكون للوالى رأى الأعلى فيها ، والكلمة النافذة ، وعلى الآخرين السمع والطاعة ، مما يُخاف معه من طبيعة المرأة وما فطرت عليه من حساسية غالبية ، وسرعة تأثر ، وشبوب عاطفة ، فولاية البرلمان وإن علت فوق سلطة الوزراء والحاكمين أحياناً - أو هكذا يجب أن يكون - ليست ولاية فرد ولا أفراد ، إنما هي ولاية الأمة ، وسلطة الجماعة تحاسب المسئولين ، لا يملك الفرد فيها سلطة خاصة سوى الحجة والاقناع ، يتخذ الأعضاء من القرارات ما يستقر عليه الرأى بأغلبية أو باجماع ، والمسئولية ملقاة على المجموع ، والحديث فيما أرى بين الدلالة ، ووضح المقصود خاص بغير ما نحن فيه ، ونصّه الذى معنا يقول : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ، وليس هو لن يفلح قوم أشركوا المرأة فى أمرهم أو اتفقوا برأيها - ويعين هذا الفهم فى الحديث الرواية الأخرى التى أوردتها اللجنة فى سياق الفتوى عن أبى بكره وذكرها ابن حجر : لن يفلح قوم تملكتهم امرأة ،

فهذه هى الولاية التى حكم فيها رسول الله ﷺ بخسران هؤلاء الأقوام ، ولنا أن نقيس عليها ما قاسه بعض الأئمة من ولاية القضاء اجتهدا بتشعب الرأى فيه ، لانصاً يقف المسلم فيه عند حد لا يعدوه .

والحديث بهذه الصورة حديث من لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، ذلك أن القوم تتولاها امرأة فتملك من أمرهم ما لا يملكون ، إن كانت خيرهم للأمر وأقدرهم عليه فبنس القوم هم ، إنهم أشباه رجال وليسوا برجال ، وحق لهم ألا يفلحوا .

وإن لم تكن المرأة خيرهم وأقدرهم فقد قدموا غير مقدّم ، وحق لهم ألا

يفلحوا ، وصدق الرسول الكريم .

أما مثل ملكة إنجلترا والاعتراض بها على الحديث فليس شيئاً ذا غناء ،
ذلك أن الرجل في مكانها من الدولة لا يملك من أمره الخاص كثيراً ، فضلاً
عن شئون المملكة .

إن ملك إنجلترا لا يستطيع تصريف شيء من أمر الدولة إلا ما يسمح له به ،
بل ليست له الحرية الشخصية في التنقل والتحرك والاتصال إلا بإذن رئيس
الحكومة ، وبياناته وأعماله بأمر الحكومة ، وهما الملك السابق الذي لم يستطع
التزوج بمن ارتضاها لنفسه فتنازل عن العرش ليخرج من ربقة الحجر عليه
فالملك أو الملكة رمز استقرار ، والأمر كلها بيد الحكومة .

إلى هنا وأرانا اتهمنا من النص الوحيد الذي استندت به اللجنة على منع
المرأة من البرلمان وليس فيه دليل .

وكأنى بالقارئ الآن يستوضحني الرأي الذي أراه في دخول المرأة
البرلمان .

وهنا أورد ما أورده اللجنة بين يدي بحثها ، بما يعلمه كل دارس للاسلام ،
ويقرره كل منصف ولو كان من غير أهله حيث تقول اللجنة بحق :

« وهذه المصادر والأدلة (الكتاب والسنة وما يرجع اليهما) بما اشتملت
عليه من المبادئ العامة والقواعد السكينة لا تضعف عن النظر فيما يجد في الحياة
من مشا كل ، ولا تأبى الأخذ بما فيه مصلحة ، إلا أن تكون مصلحة براءة تلوح
لبعض الأنظار من بعض النواحي ، على حين تلازمها مفسدة مثلها أو أعظم منها
فش هذه المصلحة تلغيها الشريعة ولا تأبه لها ،

فلننظر إذا على هذا النحو لنرى هل يكون اشتراك المرأة في البرلمان خيراً
للدولة وللرأة . ؟

من المعقول أن يكون دخول المرأة البرلمان حافزا لها - إثباتا لجدارتها ،
وتبريرا لموقفها - أن تتقدم بالمقترحات الهامة في محيط الأسرة وغيرها لإصلاح
بعض النظم المنحرفة أو الخاطئة ، وهذا حسن .

ولسكننا على ثقة من أن هذا الخطأ الواقع في بعض النظم ، وما يصيب الأمة
من جراه ، ما جاء إلا لأنه منقول عن الغرب تقليدا ومسايرة بغير تمحيص دقيق
لما يفيد المجتمع الشرقي وما لا يفيد ، أو لتقصيرنا في الاطلاع على الفقه الإسلامي
وتفهم روح التشريع ، وسنظل حتما في اخطاء متلاحقة ، نصلح جانبا يافساد
آخر مهما عمل الرجال والنساء ، ما دمننا بعيدين عن روح الإسلام وهداه ولو
طبقنا الاسلام بروحه السمحة المشرقة لما كانت هناك شكوى ، ولما اضطرت
المرأة إلى تحمل الأعباء الثقيل ، لتدفع عن نفسها غلواء الرجال .

ثم طريقة دخولها البرلمان ، أيكون بالانتخاب أم بالتعيين ؟

وفي الانتخاب يُجمع المؤيدون والمعارضون على أن عملية الانتخاب بصورتها
المعروفة وفي أيامنا هذه مما ينبغي أن تصان المرأة منه حفظا لشرفها وكرامتها ،
ولذلك أثر الداعون لذلك أن يكون تمثيلها في البرلمان على طريقة التعيين ، وإن
كان ذلك فلا أظن أننا نتجاوز فيه ما هو عند الغربيين - ونقول زعيمة
المعتصمات في ذلك :

إني لا أريد أن تمثلنا في البرلمان سوى ست أو سبع سيدات على الأكثر ،
فان نسبة السيدات في جميع البرلمانات الأخرى الممثلة فيها المرأة لا تزيد عن
٢٪ أو ٣٪ وهكذا يكفي : ،

فإذا كان يكفي الزعيمه ست أو سبع في مئات الاعضاء من المجالسين فهل هذا
العدد أو ضعفه سيكمل الحياة النيابية ، وينهض بما عسى أن يقصر فيه الرجال ؟
وهل هذا العدد لو رأى رأيا في صالحه يستطيع فرضه على الآخرين ؟

إننا لم نحتاج على المرأة بما جعلت عليه من حساسية قوية ، وتأثر شديد ، وما ينالها من العوارض الطبيعية الخاصة بها ، بل وما يوحى به خلقها ، وينطق به تكوينا الجسماني ، من استعدادها الفطري لميدان غير ميدان الرجال ، لم نحتاج بكل هذا ، لأنه كما يتأتى بالنسبة للبرلمان يتأتى بالنسبة لكل عمل هام تتولاه المرأة في الحياة العامة .

إننا لانرحب باشتراك المرأة في البرلمان ، لأن البرلمان ولاية عامة وليست هي أهلا لها ، ولكن لأنه لانفع يرجى من اشتراكها في البرلمان ، والضرر في ذلك غير مأمون .

إن التاريخ أعدل حاكم ، وأصدق شاهد في الموضوع ، أنه يحدث عن مجد اليونان والرومان والفرس والعرب ، ويذكر أن المعول الوحيد الذي هدم المدنيات العريقة ، وأتى على بنيانها من القواعد ، فخرت شوايحها كشيئا أهيل ، هو الترف الذي انغمست هذه الشعوب فيه ، وذروته خروج المرأة إلى الحياة العامة ، وتدخلها في شؤون الدولة وسياستها ، وما يصحب ذلك من تحلل وإباحية وانكاس .

جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر على ما أورده المرحوم فريدوجدي في دائرة معارفه ما يأتي (١) :

كان النساء عند الرومانيين محبات للعمل مثل محبة الرجال ، وكن يشتغلن في بيوتهن ، أما الأزواج والآباء فكانوا يقتحمون غمرات الحروب . . . في ذلك الحين ، حين احتجاب النساء برع الرومانيون في كل شيء ، نحتوا التماثيل ، واستبدوا بصولجان الملك والعظمة دون سواهم من الأمم ، ولكن دعاهم بعد

ذلك دواعى اللهو والترف إلى اخراج النساء من خدورهن ، ليحضرن معهم
بجالس الانس والطرب ، فخرجن كخروج الفؤاد من بين الاضالع ، فتمكن
ذلك العنصر المهاجم (الرجل) لمحض حظ نفسه من إتلاف أخلاقهن ، وتدنيس
طهارتهن ، وهتك حياتهن ، حتى صرن يحضرن التياترات ، ويغنين فى المنتديات
وساد سلطانهن حتى صار لهن الصوت الأول فى تعيين رجال السياسة وخلعهم
فلم تلبث دولة الرومان على هذه الحالة حتى جاءها الخراب من حيث تدرى ولا
تدرى ، حتى إن القارىء للتاريخ ليدش حينما يرى ذلك الصرح الرومانى
الباذخ قد هدمته المرأة حجرا بعد حجر بيديها الرقيقتين ، لاسوء نية منها ، ولا
لأنها مفطورة على الشر ، بل لافتتان الرجال بها ، وتناظرهم عليها ، هذه حقيقة
سياسية ، لا مجال للجدال فيها .

كذلك أودى بالفرس اشتراك المرأة فى سياسة الدولة ووصولها إلى عرش
المملكة ، والعرب من بعدهم دال عزم وذهب ريمهم بتدخل المرأة سافرة أو مقنعة
فى الشؤون السياسية للأمة - وإذا كان الكلام عن الرومان والفرس والعرب يُعد
كلما عن القديم لدى أبناء القرن العشرين ؛ فهذا هو عصرنا الحالى ، وتاريخنا الحاضر ،
وتجاربنا الخاصة كفيلة بأن تسفر عن وجه المسألة بما لا يدع مجالا لمرتاب فى
أن سنة الله لن تتغير فى أمة أو جيل .

بدأت مصر عهدا الحديث فى عدد لا يجاوز الملايين الثلاثة من المواطنين
تابعة لسلطان تركيا سياسيا ، كما هى تابعة له روحيا ، فلما انتفضت غاضبة على
تركيا وولائها العاشمين لم يكفها تحرير نفسها من سلطانها ، بل سارت جيوشها
مظفرة فى شمال سوريا حتى قلب الأناضول ، ولولا تألب الدول الأوروبية خشية
قيام الأمبراطورية المصرية لحات مصر لواء الخلافة آتت على انقاض تركيا ،
كذلك ارتفع لواءها من قبل فوق الأراضى العربية ، وعبرت البحر إلى ربوع

اليونان ، تنجد في الحاليتين دولة السلطان . ولو رُزق ذلك الرجل الذي قادها حينذاك حظا وافرا من العدل فلم يُشكل بمن أعانوه وناصروه ، وأخلصوا له يوم ألبسوه خلعة الولاية على البلاد من علماء مصر وزعمائها ورجالاتها لكان لها الآن شأن وأى شأن .

وسل نفسك أين كانت المرأة المصرية في النهضة الكبرى زمن محمد علي ليأتيك الجواب شافيا بقرارها في كنفها ، تؤدي دورها أكل الأداة .

بل أين كانت قبل محمد علي يوم أبلت أروع البلاء وأقواه ، يوم ساهمت مع الرجل في إدارة ربحي القتال ودافعت الغزاة الفرنسيين في كل بلد وعن كل شبر من أرض الوطن ، في اسكندرية بأعلى الأسوار ، وفي داخل المدينة مصوبة الرصاص من نافذة بيتها إلى صدر نابليون ، ولولا القدر يساعفه لخط التاريخ مصرعه بيد مصرية من السكندريات ، وفي دمنهور ، وفي العاصمة ، وفي المنصورة وسواها من المدن والقرى ، بحيث لم ينل المحتل من مقاومة الأهالي وثورانهم - على تحبسه اليهم وإعلانه الدخول في الإسلام ترضية لهم - راحة ترد عليه أنفاسه اللاهثة إلى أن جلا عنها يائسا حسيرا .

لقد كانت المرأة في بيتها تعكف على ماتحسن من شئونها المنزلية ، تاركة للرجل أعباء الخارجية ، حتى إذا روع الوطن بالدخيل وقفت من خلف أبيها وأخيها ، وزوجها وولدها ، تشد أزرهم وتسند ظهورهم ، وتروى ظمأهم ، وتأسو جراحهم وربما احتملتها الحمية فتلقت الرصاص بصدرها من دون صدورهم . يقول الكاتب فيروس (١) : يصف دفاع الأهالي عن بعض القرى وصدم الفرقة المغيرة حتى استشهدوا بالقيادة العامة : وجاءنا المدد . . وقتلنا من الأعداء [الأهالي] من ٤٠٠ - ٥٠٠ بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام .

١ - ص ٣٢٥ الحركة القومية للرافعي .

وتجاوز أول العصر الحديث إلى الصق أيامه بنا وأقربها إلينا ، إلى القرن العشرين ، وهذه مصر بحمد الله تضاعف عديدها ، وعظمت مواردها ، وركت من سلم العلم والمدنية درجات ودرجات ، وهذا زعيم الأمة في حفل تكريمه بعد عودته من منفاه ، يتقدم إلى أقرب امرأة فيمزيق القصاب عن وجهها ، وتلتهب الأكف النواغم والحشن بالتصفيق المتواصل تحي الزعيم لإعلانه عيد الحرية بالنسبة للنساء ، واقرن مع هذه الصورة صورة الجهاد الوطني التي شركتها في الزمن سائرة معها متجاورتين متجاوبتين ، لترى صورة من النهريج السياسي في شكل أحزاب وهيئات رجالية ، وأخرى نسائية تستمر في كفاحها للمستعمرين نيفا وثلاثين عاما من ذلك التاريخ لم تنل مثالا ، ولم تحصل على طائل بل لقد انحدرت البلاد في أخلاقها إلى مهوى سحق من الانحلال جاوز مداه حتى لم تعد تشكو وجود المحتل فحسب بل ضروبا لانحصى من المشاكل الحلقية والاجتماعية والاقتصادية ، وصار من المؤلف مطالعة القوانين بعد القوانين لمنع معا كسة السيدات في الطرقات !!! بل تقدم الأمر خطوة اذ تقدم كبير من رجال الأمن ، محافظ سابق لدمياط ، إلى وزارة العدل باقتراح يطالب فيه بضرورة سن تشريع يكفل حماية الرجال والشباب من النساء اللائي يقفن في الطرقات والميادين للإغراء والتحريض على الفجور (١) . . . وأيامنا القريية وما داخلها من فساد في الأخلاق والسياسة مريع أطاح بالملك السابق ، ونحسى مشاييعه من الأحزاب ، لم تغب بعد عن الأذهان . . . وحفلات شويكار ، والمواساة ، ومأساة فلسطين ، وأسلحتها الفاسدة ، وتدخل سيدات القادة والوزراء ، مما كشفت عنه تحقيقات الجيش ، ومحكمة الثورة كل ذلك

١ - ١٥ / ١١ / ١٩٥٣ المصري وأحيل الاقتراح إلى إدارة التشريع لبدء الرأي فيه

قريب ومعروف ، ولا حاجة إلى الاطالة فيه ولولا رحمة الرحمن بكنائته أدركتها بالثورة المباركة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لارتكست البلاد في هوة سحيقة لا يعلم مداها إلا علام الغيوب .

فأين هذا من حمية الالهين وحفاظهم وسلامة اخلاقهم سلامة أتاحت لهم أن يدافعوا الفرنسيين أروع دفاع ، حتى استلوا من الغزاة اعجابهم فأشادوا بشجاعتهم ، كما سجلوا بلسان مؤرخيهم وعلمائهم ما كان المصريون عليه من أمانة وصدق . جاء في فصل عقده المسيو جومار أحد مهندسي الحملة الفرنسية عن تخطيط القاهرة أثبتته الحملة في المجلد التاسع عشر من كتاب وصف مصر ، أن مما استلفت نظره « كثرة الوكائل التجارية في بولاق ، ووفرة الغلال التي كانت تكس على ساحل النيل بلا حراسة ، وبغير أن توضع في مخازن . قال مسيو جومار : إن الثقة بين الناس في مصر كانت على أنهم ما يكون بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد يدٌ إلى تلك الغلال ، وهذا يدل على أن الصدق والأمانة كانا من فضائل الخلق المصري ، هكذا يشهد للبصريين شاهد عيان من الفرنسيين المحتلين تسجل شهادته في أعظم أثر علمي نفتخر به تلك الحملة أو يفتخر به الفرنسيون من بعدها حتى اليوم (١) .

فتلك أخلاق مصر وهي ترنو بعين كليّة إلى الإسلام في عصر نعه من .
أوهن العصور وأقربها إلى الظلمات ، لزمت المرأة فيه بيتها إلا الحاجة ظاهرة أو ضرورة قاهرة .

وهذه آلام مصر وهي تنظر بعينين شاخصتين محمقتين إلى الغرب ومدنية الغرب وتجري في ركابه تقليداً لهرجه ، لا تعرف الحقيقة أمره ، أو انتفاعاً بصواب

١ - حقائق - المقال الافتتاحي في مجلة الأزهر عدد ٦ المجلد ٢٥ لرئيس التحرير
الاستاذ محب الدين الخطيب .

ماوصل إليه ، واعتبارا بخطأ ماوقع فيه ، حتى لئسنى على دعاة الفضيلة والأخلاق الكلام على الأذرع العارية لأنهم بذلك يشغلون الأمة عن أهدافها. !!!

ولئن عزا الباحثون مانشكوه إلى امتداد موجة التحلل والاباحية التى أعقبت الحربين الأخيرتين فأهوت بالمعاول الشداد على المثل العليا فى العقائد والأخلاق والآداب ، وأفزعت المفكرين وذوى رأى من رجالات الغرب ، فذلك نفسه يوجب علينا ألا نندفع فى التقليد ونسرف فى المحاكاة - ولن يكون من ضرورة الرقى أن نساير مظاهر الغرب شبرا بشبرا ، وذراعا بذراع ، كما لن يكون إعفاء المرأة من اعباء الانتخاب والسياسة ازراءً بها وتحقيرا لها ، فهى بنت الناخب وأخته وأمه ، وهى ملكة البيت وربته ، وليس منع الجيش من التصويت والتدخل فى السياسات عند معظم الدول المتحضرة تحقيرا له واستهانة به ، وهو حامى حمى الوطن ، وسياج عزه ومنعته .

والحياة الراقية تعتمد التخصص فى الأعمال ، كما تعتمد فى العلوم والفنون ، ليتسنى الاتقان فى مرافق الدولة كلها ، ومن جميعها يقوم البناء شديد الكيان ، قوى الأركان .

وقبل أن نختم هذا الفصل نسجل هنا على دعاة حق الانتخاب والسياسة للسيدات ، اسرافهم فى الدعوى ومبالغتهم فى تصويرها ، فقد دأبوا على تكرير القول بأن منع المرأة من البرلمان عبودية ورق يجلبان العار والشنار على بلدنا العزيز ، وخير للمرأة اذا لم تظفر بحريتها الكاملة أن ترحل من بلد تقسم على الضيم فيه ، ولقد بلغ من اسرافهم أن عد اتحاد النساء مساواة المرأة بالرجل أقل ماينبغى لها من كرامة واعتبار ، كفء ماتقروم به من مهام وابعاء .

فقد أرسل الحزب الاتحادى النسائى الى رئيس الجمهورية السابق يطلب المساواة بالرجال (على الأقل) واحترام توقيع مصر على ميثاق حقوق الإنسان وجاء فى برقيته مانصه : « وما دامت المرأة المصرية عليها التزامات الرجل ومسؤولياته فلا أقل من مساواتها به ، وبذلك يكون الدستور الجديد أقر الأمر الواقع ، وهو تحميل المرأة نصيبها فى بناء مصر » (١)

تضاحك صاحبي وهو يسمع ذلك الذى نقراً ، وسأل سائل : إن كانت المساواة على الأقل فاذا على الأكثر ؟ وأجاب بحجب . .

وقد يكون ذلك الاسراف تطرفا وتكلفا ، أو تفكها وتظرفا ، وقد يكون دليلا على حذقهن الأساليب السياسية إذ يطلبن أكثر مما يرتجبن توصلا إلى ما يرتجبن ، وعلى أى حال من أحواله فكان خليفنا أن نمر به متجاوزين ، غير أن بعض من نجل ونسكبر من قادة الرأى فى الأمة وذوى الصحافة المعروفة والمواقف الوطنية المشهوددة ردد نفس هذه الأقوال فسمعنا رجلا كالدكتور على ماهر رئيس لجنة الدستور يقول فى بيان إلى المعتصمات بعد أن طمأنهن إلى نيل مطالبهن بالطريق الدستورى « كما يهمنى لسمعة مصر فى العالم أن تظفر المرأة المصرية بالمساواة السياسية مع الرجل ، فكان لزاما أن نقف قليلا إزاء هذا القيل لنقول بدورنا لكل من تهمة سمعة مصر مخلصا إن هذه السمعة والكرامة ليست فى المساواة السياسية ، وليست فى مجرد المجازاة والتقليد إنها فى أجل من ذلك وأخطر ، وإليهم جميعا — تطميننا لهم — أهدى بعض الحقائق التى سجلها مؤتمر عالمى ، لامن الرجال ولكن من صفوة النساء القانونيات ، وشهدته مصر لأول مرة وتناقلت أنباءه صحف العالم ، وأشارت إليه فى كلبة قصيرة بعثت بها إلى صحفنا

الكبرى (١) التي ضذت بنشرها وهامى ذى بنصها :

(المصرية أكر نساء العالم تمنعا بالحقوق)

لعل هذا العنوان غريب فى موضوعه وبخاصة فى هذه الأيام التى يشور فيها فريق من النساء ثورة الحياة أو الموت على ماهن فيه من استعباد وظلم دفعهن إلى الاعتصام بنقابة الصحفيين للظفر بحقوقهن السياسية ، مؤثرات الموت على العبودية . ولكن هذا العنوان على غرابته ليس من وضعى بل هو عنوان سجلته الأهرام فى سبتمبر من العام الماضى حينما روت أنباء المؤتمر الذى عقدته القانونيات العالميات فى مدينة تورنتو بايطاليا ومثلت مصر فيه لأول مرة .

وبحثت المؤتمرات موضوعا طريفا فى بابة ذلك ماسمى بحقوق الأم الآنسة أى التى أنجبت ولم تتزوج ؛ وترتيب حقوق لها ولولدها قبل أى رجل يتصل بها وقد وقعت مندوبة مصر على ماروته الأهرام توفيقا كبيرا .

ومن الحق بيان أن هذا العنوان الذى أذكره للأهرام ليس من وضعها لتلفت نظرا أو تثير اهتماما بل هو قرار المؤتمر نفسه حيث قالت الأهرام بعد نقل أخبار المؤتمر وما دار فيه : دثم أخذت الأصوات لمعروفة الدولة التى تتمتع المرأة فيها بأكر قسط من الحرية ، وأكر قسط من الحقوق ، فاتفق المؤتمر على أن مصر هى أول دولة فى هذا الصدد ،

ويهمنا أن ننظر على ضوء هذه القرارات التى اعترفت بها القانونيات العالميات للمرأة المصرية ونسائل أنفسنا من أين جاءتها الحرية الكاملة التى سبقت بها نساء العالم أجمع ؟ . ألتفوق مصر على العالم فى معارفها وعلومها ، وفى صناعاتها واختراعاتها ومدنيتها ؟ . أم هو لشيء آخر ؟ .

١ - بعثت بها إلى الأهرام والجمهورية والمصرية أثناء الاعتصام .

إن بداهة النظر تقضى بأن تفوق المرأة المصرية في حقوقها إنما هو أثر من آثار دينها ، ذلك الذى سجل منذ قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان هذا المبدأ الكريم الخالد فقال في كتابه « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، فكان ذلك المبدأ خالدا بحكم الفطرة السليمة في خلق الله لأن النساء شقائق الرجال . وإذا كان للرجال عليهن درجة ، فذلك هو الواقع الملبوس من عالم الأحياء . وهى درجة تزيد في أعبائهم ، وتضاعف من واجباتهم ، وتقهم موقف المسؤولين عن أنفسهم وعن حو لهم .

وهى درجة تصلح بها الحياة ، ويعتدل بها الميزان ، وتتوحد الوجهة ، ويستقيم عليها الأمر .

فهل لأولئك العزيزات المعتصات أن يطلبن ماشئنا من حقوق ، على أن يكون ذلك فى موضعه المعلوم من أنها مطالب الرفاهة ، والأبهة السياسية التى لا يرونها البيت وأعباءه ، ولا يشيع منها نوازع الترف ؟ (١)

١ - من طرائف أنباء الاعتصام النسوى مارواه الاستاذ فكرى أباطه عند زيارته لهن اذ يقول : وعندما دخلنا غرفة المعتصات فى صباح اليوم التالى ، كانت المضربات فى ثيابهن المنزلية ، بينما ظهرت زعيمتهن فى أكمل زينتها ، فقلنا لها : إن الاضراب عن الطعام يعنى الحرمان من احدى ضروريات الحياة ، ومادام الامر كذلك فلم لاتقلعن عن الكماليات ؟ - أية كماليات ؟ - المساحيق ، (كالبودرة والروج ، واحمر الشفايف) - وابتسمت الدكتور درية وقالت : - لا .. إلا هذه ، ومن ناحيتى فسوف احرص على أن أبدو فى كامل زينتى حتى لاتقوى يداى على عمل «التواليت» لاتنسوا أننا نساء قبل كل شىء . . . المصور فى ١٨/٣/١٩٥٤ .

ونحن من جانبنا لانسى أنهن نساء . وأنهن فى حاجة الى الزينة . وأن للزينة أنا غير هذا الآن ، ومكانا غير هذا المكان - ثم لو ظفرت الدكتور بالبرلمان فهل ستحرص على أن تبدو فى كامل زينتها ؟ - ولم لا ؟ ومن أسلحة المرأة جمالها ؛ لقد ذهبت مظاهرة الى مجلس العموم فى بريطانيا ، واستعانت باثنتين من ملكات الجمال .

ذلك أن المرأة لم تكن يوما - ولن تكون - مستعبدة في بلد دينه الاسلام
والسلام .

ذاك ماقلته آنذاك ، وضّنت صحفنا الماجدة بنشره على كرمها الحائمي في
نشر الكثير عن هذا الموضوع .

والآن فحمد الله على هذا الدين الذي مازال الى القرن العشرين سباقا لكل
ماظهر على وجه الأرض من مدينيات ، وسيظل حتما على سبقه إلى الحق والخير
والمدينة الصحيحة الكاملة ، مادام هو تنزيل العليم الخبير ، ولو كره الكافرون ،
وأنكر الجاهلون .

أما أولئك المتباكون على سمعة مصر ان لم تركب المرأة المركب الخشن ،
وتسلك الطريق الوعر الذي أدمت أشسوا كه وأحجاره من سلكه قبلها ،
فلعلمهم بعد أن يقرأ عينا ، ويطمئنوا بالا ، ولعلمهم بعلمون بأن مصر بتعاليم
دينها - لو شاءت - أعز جانبها ، وأثبت ركنها . والمرأة بنعمة اسلامها أكثر
حقاً وأرفع شأنها .

ولو شاءوا أن يكونوا قادة ورؤسا . لاساقه وذنبا . فليتموا نعمة الله عليهم
بإقامة اركان دينهم بتمامها . ويطبقوا تعاليمه السامية بنصها وروحها . اذا لحقت
لهذه الأمة زعامة الأرض وخلافتها . وعادت خير أمة أخرجت للناس . وممكن
لهم دينهم الذي ارتضاه خالقهم . كما وعد سبحانه المؤمنين الصادقين إذ يقول :
«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف
الذين من قبلهم . وليمكننهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ،
وبعد : فاذا كنا لا نرحب بدخول المرأة البرلمان فلأنه كما قلنا لاخير يرجي منه ،
والضرر فيه غير مأمون ، وليست هي الدعوى بغير دليل . وليست هي الدعوى
يقوم عليها دليل يعارضه آخر أو يلاحيه . بل هي الأدلة القاطعة من القديم
والحديث . يطبق عليها الواقع . ويشهد بها التاريخ . وتطردها عليها سنن الاجتماع .

المراة والشواطي

الهدوء الراحة والاستجمام من عناء العمل ، وكفاح العيش ، وجهاد الحياة حقّ أوّلَى للعامل المجدّ ، وأمر طبيعي تليّه القواعد الصحية ، والضرورات الحيوية ، والنظم الاقتصادية ، ويدعو إليه الدين ويأمر به ، وفي الحديث الشريف « إن لبدنك عليك حقاً » . وبالترويح عن النفس ثوب إلى العامل قوته ، وتشحذ عزيمته ، ويتجدد نشاطه ويقبل على عمله راضياً باسمه .

وقد حبا الله مصر شواطئ فيسيحة تمتد من غزة في فلسطين إلى الاسكندرية ومرسى مطروح ، كذلك شواطئ البحر الأحمر ، والنيل وقناة السويس ، حيث يتسنى للمصريين جميعاً — لو شاءوا ، وشاءت حكوماتهم — أن يتمتعوا صيفاً بجو البحر النقي ، وينعموا بنسيمه الصافي الجميل . وفي ذلك ما فيه من صلاح للأجسام والعقول ، وصفاء للنفوس والقلوب — وفي وسع الأطباء أن يحدّثونا بالشيء الكثير عن أثر الشواطئ في الصحة الجسمية والنفسية ، وعمّا يحمل هواء البحر من « اليود » وما يحدد من الدورة الدموية . . .

والمصايف معروفة في القديم والحديث . والشرق والغرب ، وكان عظماء العرب يصطافون في الأمّا كن المعتدلة صيفاً ، تحاشياً لوقدة الهجير ، ولنفحة الحر ومن أشهر الأمّاكن عندهم مدينة الطائف ، وما تزال إلى اليوم مصيفاً يؤمه سادة العرب وأعيانهم (١) كذلك بعض جهات نجد ، وإقليمها أصبح بلاد العرب وأطيبها هواء ولذا تغنى به الشعراء قديماً ، فقال قائلهم :

قفا ودّعاً نجداً ومن حل بالحي وقلّ لنجد عندنا أن ثودّعاً
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربّعاً

(١) محاضرات التاريخ العربى للاستاذ محمد سليمان بدير بكلية أصول الدين

وقال غيره :

ألا يا حبيذا نفحات نجد
ورباطيها بين القفار
والآن وقد أصبح موسم الصيف عندنا في مصر جزءا من حياة الألوف
المؤلفة من عامة الشعب ، فلنلق نظرة سريعة على أهم هذه الشواطىء التى يؤمها
المصطافون حيث يقضون الأسابيع والشهور على الشاطئ الجميل — تعال معى
إلى هؤلاء الذين هرعوا إلى البحر ، يتخفون من عناء العمل ، ومشاق الحياة
وجهاد العيش ، ويستريحون بطيب الهواء ، وروعة الماء ، وجمال السماء ،
ويستردون صحة النفس ، وقوة الجسم ، وراحة الأعصاب ، لعلمهم قد سعدوا فى
فراغهم بالنافع المفيد من الرياضة البدنية ، والمطالعات الأدبية ، والثقافات
العقلية ، وتعاهدهم ذوو الرأى من الأمة بالشيق اللطيف من التهذيب والتشويق
والتوجيه السليم ، والإرشاد الحكيم ، وتنبيه القلوب ، وملئها بجلال علام الغيوب
من وحى ذلك المشهد الرائع ، بين اليابسة والماء ، وعلى بساط الأرض وفى ظلة
السماء ، فظهرت الأفئدة ، وصفت النفوس ، وفاضت من القلوب مشاعر الخير ،
حتى إذا عادت من المصيف إلى مكانها من الواجبات والأعباء ، عادت إلى الأمة
رسل هداية ورحمة ، بما ابتعثه جو صالح ، ومجتمع خير ، ونظر سليم فى ملكوت
السموات وبديع الآيات .

ولكن ما ذا نرى ؟ هؤلاء هم المصيفون ؟ وهؤلاء قومنا أم هم قوم
آخرون ؟ ما بالهم متجدين ؟ ما لهذه الأجسام ، وقد من الله عليها بالتكريم
وخلقها فى أحسن تقويم ، وكساها بأنعمه ، وزانها بزينته ، ترد مختارة إلى أسفل
سافلين ، فتززع عنها أستارها ، وتبدى للناس عارها ، ما بال هذه الفئة من
الناس ؟ أشاقهم حياة الغاب ؟ أم أثقلتهم رفاق الشباب ؟ أم فدحتهم تقاليد
الأخلاق والآداب ؟ أم غرر بهم من الإنس شياطين ، ديوحى بعضهم

إلى بعض زخرف القول غرورا ،

ثم ما بال هذا المحافظ بينهم ؛ ذلك الرجل الكاسى ، ومعه امرأته الكاسية ومن بين يديها ومن خلفها ، وعن يمينها وشمالها الشباب الناضج المكتمل من الرجال ، قد لبس ملابس البحر ، وأخذ حظه من الماء ، وسبح ماشاء ، وصارع الأمواج ، ثم خرج إلى الظلة فاستلقى أو جلس يسامر صاحبه ، ترى هل هى فى شغل عنه بزوجها ؟ أولعلمها اعتادت هذه المناظر وألفتها ، فلم تعد تثير انتباهها ، أو تشغل بالها ، أو تحرك شيئا من غرائزها .

وهذا الرجل نفسه ومعه امرأته الكاسية ، وذلك سرب من الأطباء الرشيقات عاريات أو شبه عاريات ، ينزلن إلى الماء يسبحن ويمرحن فيه . لعله كذلك فى شغل عن السابحات — ولسن الفاتنات — غنى بزوجته ، أو هو اعتاد ذلك المنظر فلم يعد يحرك منه ساكنا .

أما الشباب الأعزب الثائر من فتيان وفتيات ، وشباب وشابات ، فإنه ينفس عن نفسه بمنظر تلك اللحوم الغريضة المختلفة الأحجام والأوزان ، والأشكال والألوان ، وسوف يألف بدوره تلك المشاهد ، فلا تعود تأسره أو تسحره (١) هكذا يقول بعض السكاكين ، يهونون العرى به على المتعربين .

فما أحوالنا إذا أن نروض الغرائز الجامحة بمثل هذا العلاج لوصح ما يزعجون ولوصح لبطل كل شوق من زوج لزوجته ، ومن زوجة لزوجها ، إذ هما معا متلازمان وجها لوجه فى الصباح وفى المساء ، وقد ألف كل صاحبه وخبره وعرف خافيه وظاهره ، فنجبت لذلك رغبته ، وخمدت غريزته ، وسكن جانسه ولوصح ما كانت حياة ، ولا كان إنسال .

(١) انظر الفصل الآتى المرأة والأقلام المسمومة .

يقول قائلهم : إنما تثير هذه المناظر أولئك الذين ألفوا التشدد والمغالاة في الحجاب ، لأنهم لم يألّفوا ذلك ولم يتعودوه ، فغراؤهم مكبوتة تحاول متنفسا لتسرع إليه ، أما ذلك الذي اعتاد أن يحيا حياة حرة طليقة فليست هذه المظاهر بالشئ الجديد عليه ، وليست تثير منه ما تثير من صاحبه ، بل ليست خطورة التكشف بأشد من خطورة التصون المتكلف ، والتحفّظ المتزمت « وأحب شيء إلى النفس ما منعها » - ثم إذا شب الصغير على هذه الحياة ، لم يجد فيها أمرا غربيا حينما يبلغ مبلغ الرجال .

فهل من الحق أن إلف هذه المناظر ، وذلك الاختلاط العارى يجعله أمرا عاديا لا يؤبه له ولا يلتفت إليه ؟ وهل نشأة الصغير عليه تجعله كعادة المشى لا يفكر فيه ، ولا يلحظ كيف يخطو ، أو كعادة الكلام ، أو كمضغ الطعام ، من كل شيء لا يثير التفاتا ، ولا يبعث انتباها ؟

ولو كان العرى عندهم لدواعى الصحة والرياضة ، والتمتع بشمس البحر وهوائه الجميل ، فهل يخلع الرجل منهم ملابسه لو كان وحده على شاطئ الماء ؟ وهل تعرى المرأة من أستارها لو عرا المكان من الرواد ؟ وهل يتكشف أحدهما لو كان في شمس بيته قريبا من البحر ؟ أو هي اللذة الجائعة ، والشهوة العارمة ، أضراهما التحلل والتبجح والاختلاط ، وهون الأمر فيه وفلسفه أقلام آئمة ، وآراء مسمومة ، وصمت عبي في سياط القانون .

يقولون : إن تكرار لذة حسية بعينها يضعف أثرها ، ويفضى في الغالب إلى فقد الرغبة فيها - فهل كانوا على شيء من الصواب أو أن العادة - وهي

كما قيل طبيعة ثانية — إنما تنشأ بالتكرار والمرادة والاعتیاد ؟
إن علماء النفس : قد كفونا الجدل الكثير حول هذه الأمور . فقد قرروا
المشاهد المحسوس من أن اعتیاد عمل من الأعمال يصيره عادة لا يستطيع النفس
عنه انفكاكا بغير عزم شديد .

وقالوا : (١) إن كل عملية نفسية من حس وتذكر وتخيل وتفكير
وأنفعال ورغبة ونزوع إلى عمل معين تاركة في النفس أثرا باقيا معروفا عندهم
بالميل النفساني . وتكرار عملية نفسية يزيد أثرها عمقا . ويحدث في المرء ميلا
إلى سلوك مسلك خاص يقتضيه هذا الأثر الذي تركته هذه العملية . وكلما
ازداد تكرارها ازداد الميل تمكنا ورسوخا . ولذلك أثره الواضح في تكوين
عادات المرء وسلوكه وأخلاقه في النهاية .

وقرروا : أن أساس العادة في الإنسان مرونة الأعصاب (٢) . ولقد بلغ
من أمر التكرار . وما يخلف من آثار ، أنه لا يؤثر على الكائن الحي فحسب . بل
يفعل فعله في الجماد : فكل يعلم أن الملابس الجديدة تتخذ شكل الجسم وتنطبق
عليه بعد أن تلبس مرات . . . وأن القفل يسهل فتحه وإغلاقه بعد أن يعمل
المفتاح فيه عدة مرات . . . وأن الورقة إذا ثنيت مرة ثم طبقت اتخذت شكلا
خاصا يسهل معه تطبيقها في المرة الثانية من غير ضغط عليها . وأن صوت القيثارة
ليحسن في يد الموسيق القدير لأن ألياف مافيها من الخشب تتخذ نظاما خاصا في
تذبذبها . يصبح عادة فيها ملائما لها . . . وأن الماء بجريه المتتابع يحفر له مجرى
يتسع ويزداد عمقا فاذا غاض ذلك الماء مرة ثم عاد إلى جريه سار في مجراه

١ - من كتاب أصول علم النفس للأستاذ مرسى قنديل ج ١ ص ٣٨ .

٢ - المصدر السابق ص ١٣٥ وما بعدها .

القديم الذى احتفده لنفسه أول مرة (١) ، ومن هذا ما يحدث فى الجسم الحى ونسيج الجهاز العصبى أسرع قبولاً للتأثر والتشكل من سواه ، كما أن المرونة فى الطفولة والشباب أكثر منها فى الرجولة والسهولة — وكما تكون العادات فى الخلق وفى الوجدان ، تكون فى سلوك الإنسان وأفعاله اليومية الظاهرة ، وهذا يزيد فى قيمة العادات الطيبة ونفعها ، ويجعل السىء منها كبير الضرر شديده ، فالعادة كما ترى خير صديق ، وألد عدو (٢) — فما يغالط فيه المغالطون من ضعف تنبيه الأعصاب للعتاد ، إنما هى سهولة التأثر ، وسرعة القبول ، حتى يصير ما اعتاده راسخاً فيه ، يسهل إتيانه والسير بمقتضاه ، بل يشق الانفكاك منه والتخلي عنه . وما الإدمان إلا أمر اعتاده صاحبه ومرن عليه ، حتى أفقده اختياره أو كاد . ومن شب على شىء شاب عليه ، — وشتان بين عمل آلى قلباً التفتت النفس إليه ، وبين آخر ينبه الغرائز ويشيرها . . . وذلك ما جعل « مالك دوجل » يقول بضرورة وجود مدرك يدركه الإنسان ليستثير الغريزة (٣) .

هذه حقائق علمية نفسية ، معروفة ومحسوسة ، تدمخ زيف المبطلين ، نسبناها إلى أصحابها من علماء الغرب الذين اعتاد هؤلاء أن يتمسحوا بهم ، وينقلوا عنهم ، ويتلقفوا آراءهم مكبرين .

فها يقنع أولئك بالإثم يقعون فيه فلا يحاولوا استدراج مواطنهم إليه !! أم تراهم يدارون ضلال أنفسهم بإضلال الآخرين !!

أم يموهون بالترهات ليكسو عارى الفجور زقامن باطل الأهواء ، وزيف الآراء ، كي يواروا سوء ما يفعلون !!

(١) اقتباس من وليم جيمس نقله صاحب المصدر السابق ص ٢٢٦ وأشار إليه كتاب علم النفس والأخلاق تأليف ج . ١٠ هادفياد - ترجمه الاستاذ أبو العزم (٢) المصدر السابق باختصار: (٣) ص ١٦٤ من المصدر السابق

أم يحاولون التغرير بالضماير إن أحسست لحظة بالهون والخطر الجسيم ؟
ألا فليتيق الله أولئك الأقوام في وطنهم وفي المواطنين ، ولا يجمعوا إلى أوزارهم
أوزار الآخرين ، فليتقوا الله الذي يميز الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث
بعضه على بعض فيركمه جميعا ، فيجعله في جهنم ، أولئك هم الخاسرون ،

أما أولئك المتعرون والمتعريات على الشواطئ الأولى يعرضون أجسامهم
عرض الرقيق . فلن يصيب إقناعهم قضايا العلم وآداب الدين ، نقذف بها أقفيتهم
وبين أكتافهم ، فما حاجتهم إلى شيء من ذلك بمثل حاجتهم إلى سياط تهق منهم
الجلود بما سفكوه من إنسانية ، وارتكسوا فيه من شهوانية ، وانخطوا إليه من
إباحية ، وبما أبادوا في نفوسهم من بقايا الضمير ، ونوازع الكرامة ،
وآثار الحياة

وأى ضمير وأى كرامة لمن يتباهى بالحمه وتباهى بشحمها أمام الناظرين
والناظرات !!

إنما لا نخطب هؤلاء ولا نحسبهم من أهل الخطاب ، إنما نخطب أقواما يكرمون
أنفسهم ، ويرتفعون بها عن منازل السوام ، إنما نخطب فتيانا وفتيات ، كراما
وكريمات ، نشد من عزمهم ، ونمهد بنور الحق سبيل العزة أمامهم ، ونندأ عن
طريقهم آثام الخاطئين ، وأخطاء الضالين ، فلا يابهون بهم أو يبالون ، ولا
يعجبون بهم أو يغترون ، وبآدابهم ودينهم يستمسكون ، قل لا يستوى الخبيث
والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث . فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلمكم تفلحون ،

الإباحية بعيدة عن كل دين وإنسانية

ما أبعد هؤلاء المتكشفين والمتكشفات عن منهج الإسلام والمسلمين ،
فألفنا المسلمين عراة متجردين ؛ لقد جاء الإسلام وبين البشرية وعهود الغاب

ألوف السنين ، وفي القرآن الكريم « يأبىها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » وفيه وايضربن بخمرهن على جيوبهن ، وفيه « وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن »

وما أبعد المتكشفين والمتكشفات عن المسيحية . وإنها لتعد كشف الرأس من المرأة غير لائق ؛ ولو كانت بين يدي الله (١)

وما أبعدهم عن اليهودية ، وإنها لتأمر بالستر والاحتشام ؛ حتى في أبعد المواطن عن الشبهات ؛ في أما كن العبادة وتقديم القرابين (٢)

بل ما أبعدهم عن الآدمية الكريمة التي فضلها الله على كثير من خلق ؛ وجعل إليها خلاقة الأرض .

إن الطائر يزينه الريش السابغ الجميل ، وإن من الحيوان ما يكسوه الشعر الغزير ، فهل رضى المتجردون لأنفسهم دون مارضيته الطبيعة للحيوان ؟
لئن كنا نتحدث عن الأسرة وصلاحيها ببعض الجسد فماذا بقي لها بعد فوضى الشواطىء وعرى البلاج ؟

كيف يستقيم رجل رضى لنفسه وآله التجرد من الخلق والدين حينما تجردوا من الثياب !

وكيف تؤمن هذه الفتيات والنسوة على بيوتهن وأعراضهن وقد رأين الأجسام حفا مشتركا ، وحفا مشاعا للناظرين ؟

(١) رسالة القديس بولس ص ٣٠٠ العهد الجديد من الكتاب المقدس
(٢) ف ٢٨ من سفر الخروج ص ١٣٩

وكيف يُبتغى منهن احتشام ، ويطلب تصون ، ويرجى من الواحدة منهن أن تكون حليمة زوج ترعاه ، وتصون عرضه ، وتحفظ غيبه ، وكيف بأولياء هؤلاء ، فقدوا الغيرة ، ففقدوا الرجولة ، ففقدهم الوطن ، بل كانوا له داء من الأدواء — إن الذي لا يغار على أهله وعرضه لن يغار على أمته ووطنه ، وكيف يرجى لغيره من لا رجاء فيه لنفسه ؟

الإباحية وجدت قديما :

وليعلم من لم يكن يعلم أن هذه الإباحية الفاحشة ، والبهيمية المسالطة ، ليست من خصائص المدنية الحديثة ، ولا وقفا عليها . إنها حالات من المرض الوبائي تلم ببعض النفوس ، فتصيب منها السويداء ، ولا تلبث إذا مهدت لها السبل في غفلة من الصالحين أن يتطاير شررها ، ويشتعل أوارها ، ويتفاهم خطرها ، فلا يقف عند موقعها ، بل يأتي على الجميع فيذروهم ذرو الهشيم ، ما لم يقيم لها صالحون مصلحون يحاصرون وباءها ، ويكافحون لها ، ويتعقبون دعايتها ، وبصرعون إثمها وفجورها ، ليكفوا الناس شرها ، ويدفعوا عنهم سوءها وداءها .

لقد وجدت الإباحية في الدولة الرومانية فهوى تاج عزاها ، وانفصمت عرى أوصالها ، وخرت على أذقانها .

وقامت دعايتها في اليونان حينما تدمرت مدنها ، وأسفت فلاسفتها ، وعرف من بينهم من بنى مذهبه على اللذة ، وسمى أتباعه من بعده قطيع « أبيقور » ،

وراجت في الفرس واستكثرت من أنصارها ، واستمال « مزدك » ، الشيعي بدعوته الإباحية في الأموال والفروج ملكة المعاصر ، فنار به الناس وخلعوه وفتكوا به ، وجاء خلفه فقضى على « مزدك » ، وأتباعه .

إنها دعوة تستغل من الإنسان الجانب الحيواني الذي جعله الله داعية النسل
وسبب الحياة ، وصانه بضوابط وحدود تقيه التبخر والضياع ، فتحاول إزالة
الحواجز والضوابط والحدود ، حتى يسفح الماء ويغيض ، وتنحل روابط الأسرة
والمجتمع ، ويصير أشبه بالسوائم المتناحرة ، على شفا الهاوية من حفرة الفناء .
ضرورة الصدق في الإصلاح .

ألا فليتدارك المصلحون وذوو الغيرة والنخوة هذه الحال ، ويكبحوا ما
تطير من شرر الإباحية ، ودب من عقاربها وسرى من سمومها إلى المجتمعات
والبيوت ، وتسال إلى الدور والحدور ، وسكن بعض القلوب والصدور ، قبل
أن يعجز الداء ، ويعز الدواء ، ثم لا يرجى الشفاء .
إن افدح الفواحش أن يرى المنكر فلا ينكر ، وأن يكتفى الصالحون بهز
الرؤوس ، وإظهار اليأس من الإصلاح ، أو تهاجم القشور ، وتترك الأصول
والجذور .

إن بعض المصلحين يتحدثون عن وجوب منع الصور الخليعة في الصحف
والمجلات ، وقد تركوا — ولعلهم ملئوا — الحقائق الخليعة في الشواطئ
والبلاجات ، فهل رأيت داء يكافح من جسم المريض على القرطاس ، أو
ميكروبا ، يقتله عدم تصويره للناس ، أو عدوا مهاجما يترك شخصه ثم
يطعن في ظلاله ، أو يُنال منه في مثاله وخياله ؟ ١١١

ألا فليصدق المصلحون حملة الإصلاح ، وليكن رائدهم إن أرادوا فلاحا
كتاب الله وهده ، أو يريحوا ويستريحوا ، فالعلاج الأبر داء فوق داء .
لابد للمسلمين من رأى ديني عام ، وذوق إسلامي سام ، ويقظة روحية
نيرة ، وصيانة لهذا المجتمع من الدمار ، وضرب على أيدي العابثين المتحاملين .

إن حكومة الثورة التي أخذت على عاتقها إرساء قواعد المجد لهذه الأمة ، وأزالت من الحياة العامة كثيرا من رواسب الماضي وأوزاره ، وقضت على الإقطاع ، فأصلحت الجانب المادى ، والناحية الاقتصادية بالتشريع الحكيم ، والعمل الحازم السريع ، جدرة بإتباع هذه الخطوات الجادة ، بحولة فى عالم الأدب والأخلاق ، بمسكة بدرّة عمر ، وسيف المعز .

الاباحية شيوعية : إن حكومتنا الرشيدة تناهض الشيوعية مناهضة العدو اللدود ، بيد أنها تقر الشواطىء على ماهى عليه ، وتترخص فيها على أنها من الحريات الشخصية التى تترك لأصحابها ، وليست بذور الشيوعية ، وجراثيمها الحقيقية إلا هذه الشواطىء الداعرة ، وأمثالها من الاختلاط الفاجر المشين . لم يدع للشيوعية الفقير ولم يروج لها الكادح ، إنما يروج لها عنده صاحب الليالى الحمراء ، ويغرى بها المتحلل المستييح الذى يستوحى أنظمة روسيا وذهبها وأموالها ، ويسفك الأعراض على مذابح الشهوات .

إن هذه الآفات التى تعشش وتبيض وتفرخ على دفء الرمال ، ونسيم البحر ، ثم تنتشر تبرجا فى الشوارع ، وتكشفنا فى كل مجال ، لن يقف تيارها بوليس الآداب فى الشوارع والطرق ، يتصيدون العابثين والعابثات ، مادام هناك أصل الداء ، ومصدر البلاء .

خرجت ظهر شمس النسيم (١) إلى المتنزه العام بطنطا لأكمل الصورة عن هذه المجتمعات . ولم أبارح منزلى فى يوم شمس النسيم مذ كنت طالبا ناشئا - فخفف عني أن لم أرفيه ما كنت أعرفه من خروج وابتذال شديد ، فسألت صاحبي

فقال : إن الأوامر الحازمة أعطيت لرجال الآداب ، فأخرجوا من بين المجموع من رأوا فيه بعض الخروج ، وأنذروا من لعب الورق ، أو دق الطبول .
لقد ثارت حكومتنا واحتجت على ما استاءت له الأوساط في السودان من أخذ صور الخمس وثلاثين فتاة سودانية ومعهن المدرسات والناظرة بمعرفة بعض المصورين من الإنجليز ، وعدوه سبة وإهانة أن تخلع الفتاة السودانية المعطف والخمار ، لتقف أمام المصورين (١) .

وهؤلاء هم عشرات الألوف من المصريين والمصريات يخلعون دينهم وأجسامهم أياما وشهورا . فهل نتركهم سموما نافذة في كيان الوطن تفخر بالنكر ، وتوحى بالعُهر ، وتدفع إلى الفسوق ؟ إن الأخلاق تسرق من الأخلاق ، وإن أسرعها لصوقا مصادف الأهواء وأشبع الغرائز والنزعات . وإن طريق الانحدار أيسر موطننا وأخفض مركبا من طريق التسامى والصعود ، فهل ندع هؤلاء المواطنين ينزلون ويجذبون معهم الآخرين ؟ إن مثلهم هو هذا المثل الخالد في آيات الله وسننه الخالدة : من ركاب سفينة واحدة في خضم الحياة يستبد جماعة منهم ببعض جوانبها ، فيقولون نخرق من هنا خرقا نغترف منه الماء ، فإن تركوهم وشأنهم غرقوا وغرق الآخرون ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجا الراكون .

لئن دفعت الأخطار المحقة بأخلاق الأمة بعض الخالصين إلى قارس اللفظ وقاسى القول . فما كانت الألفاظ والأقوال مؤتية ثمارها مالم تصب موقع الاقتناع ، وقلما يقتنع المنحرف الذي تعمد الانحراف وارتضاه وأسأغه ، واستنام إليه وتلذذ به ودافع عنه ، ولن يُقنع مثله سوى الملبيات من سياط

١ - الأهرام في ١٨ / ٩ / ١٩٥٣ وقبله بأسبوعين .

القانون . ودرّات الحاكمين ، وإن ذرة واحدة كدرة عمر أفعل في بعض النفوس من عشرات المواعظ والخطب .

ذهبت الى شاطئ البحر لأرى بنفسى ماسمعه بأذنى وقرأته بعينى . وركبت السيارة وسألنى القائم بالتذاكر وجهتى فقلت إلى سيدى بشر فقال : المسجد ؟ فقلت أو كل شيخ هنا لا يكون إلا للمسجد ؟ إني أقصد الشاطئ لأرى ما فيه وتحدث إلى الرجل . واحتفى بى ونزل معى وتحدثت إلى بعض الموظفين هناك وتحدثوا إلى . ورأيت فى عيونهم . ومن مظاهر حفاوتهم . وعنوان ضجرهم بالحال وما فيه ، ما قرأت منه أنهم يستنجدون بالأزهر ورسائله . ويطلبون إليه الغوث والنجدة .

أعطانى أحدهم وهو شاب ناشئ تذكرة لبعض جهات الشاطئ ، وقال بقروش وفيها من الإثم الألوف ، قلت وماذا جاء بك وأنت على ما هنا ساخط ؟ قال : أواسر الرؤساء وطاعة المرءوسين .

وعلمت أن المسجد الأنيق الرشيق يخطب خطيبه وواعظه فينصح المصطفين قلت مسكين ذلك الرجل ، يتعب وينصب ويرى بعينى رأسه الهزء من حوله ، والسخرية بقوله ، والزراية على ما هو فيه . ولو قد أعطى سوطا ومن حوله بعض جلاديه ، فأذاق من هان جسده على نفسه بعض الهوان لكان أبلغ قاتل وأخطب خطيب .

إن على أولئك المسرفين فى نقد الأزهر ، المبالغين فى اتهامه بالتقصير ، المحاسنين له على ما انزلت الاخلاق فيه ، وهبطت النفوس والقلوب اليه ، أن يعلموا تمام العلم أن الدين لم يجعل قصاره قولا يقال ، ولفظا يتلى ، وآية تقرأ ، إنما جعل القوة تسند الحق وتخدمه ، والسوط يصون الأدب ويحميه ، والحدود تردع المعتدين وترد الباغين .

إن الحديد تذيب النار قسوته ولو صببت عليه البحر مالانا
وإذا لم يكن في يد الأزهري سيف يفرض به الآداب ، فسيغه الحكومة
الرشيعة العادلة ، تحمي حمى الدين والخلق المتين ، فعلى الأزهري البلاغ ، وعلى
الحكومة التنفيذ .

وعلى أولئك الذين يطيب لهم إلقاء التبعة على الآخرين أن يعلموا أنهم كسالمين
مستولون عن ذلك كما يسأل عنه كل أزهري وكل مسلم ، إن الله لم يجعل الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر خاصا بفئة ولا وقفا على أحد ، وإنما فرضه عليهم
أجمعين ، فقال سبحانه يعم كل مؤمن ومؤمنة :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر .. »

وكل واحد قادر في اختصاصه ، ومن ذا الذي يزعم انه عاجز عن أمر
نفسه ونهياها ، وأي رجل يعجز في بيته وأبنائه ؟ « كلكم راع وكلكم مسئول
عن رعيته »

فاذا أمر كل واحد نفسه ومن يليه ، ودرج على الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر ، يبصر غيره بالصواب كما يبصر نفسه ، استقام أمر الجماعة واعتدل
حالتها ، وكان لنا رأى ديني عام يرد الخارجين ، ويردع المتبردين .

لو كان لنا في كل مسلم قلب حي يغير ما يراه غير سليم ، لما جرؤ المسرفون
وتبجحوا ، ورأوه ظرفا ومدنية ، ولما انزلق إلى المنكر كثيرون ممن يرون
الناس عنه ساكتين .

إن الاسلام فرض الرأى العام الديني وجعله واجبا على الجميع ، فقال ﷺ :
« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يقدر فبلسانه ، فان لم يقدر فبقلبه
وذلك أضعف الإيمان » ، بل قد وسم بميسم الخروج من زمرة المسلمين من

لا يعنى بأمرهم ، ولا ينصب فى سيدهم فقال ﷺ : « من أصبح لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » وأنذر المتهاونين بمثل عقاب الظالمين : « إذا رأى الناس الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بالعذاب »
رجاء :

وأخيرا فإن الحكومة الرشيدة التى تغنى بأمر الإسلام والمسلمين ، وتسعى جاهدة لضم شملهم وإعلاء كلمتهم ، وتتولى زعامة الدعوة للمؤتمر الإسلامى ، والتى تطارد الاستعمار ، وما خلف من آثار ، لجديرة بأن تطارد عوامل الهدم فى الشواطىء ، وتقضى على إباحيتها وفوضاها ، وتحظر العرى والتكشف وتراقبها كشأنها فى مراقبة الآداب فى الشوارع والطرقات ، وأن تجعل للسيدات أوقاتا ، وللرجال أوقاتا .

كذلك تملأ هذا الفراغ الواسع بأنواع شتى من الثقافات التى تعود بالخير الكبير . على المصطافين ، ولن يقل بذلك المصيفون ، بل سيكونون أضعافا إلى أضعاف .



المرأة والأقلام المسمومة

ليست المرأة وحدها هي التي تضار بآثار الأقلام المسمومة ، ولو كان ضرر تلك الأقلام واقعا على المرأة وحدها لكان ضررا بالامة بالغاً ، يصيب سويدياءها ويطعن فؤادها ؛ فالمرأة من الامة مكان القلب من الجسد ، يمنحه الحياة والبقاء ، ويمده بأسباب القوة والنماء ، فاذا وهن القلب أو اضطرب ، فما أسرع ما يشيع الوهن في الجسد كله ، يزلزل بنيانه ، ويهد منه كيانه .

إن الأقلام التي تتملق نوازع الشباب والفتيان بدعوى الحرية في التفكير والتعبير ، فتثير منهم الغرائز الحيوانية ، والشهوات البهيمية ، وتلك التي تعرض الفجور والنكر ، تزخر فيه ، وتلح فيه ، وتدفع إليه وتغري به ، وهذه الصحف والمجلات التي تسود صفحاتها بالقصص الهزيل ، والأدب المكشوف ، والصور الخليعة التي تدور كلها حول الجنس ، ولا تهدف لغير استمالة فريق من القارئ ، وتنفض الزعاف يسرى في الأوصال ، فيذرو بقايا الآداب والأخلاق في القلوب والنفوس ذروا الهشيم — هذه وتلك أقلام آثمة ، وصحف جائرة ينبغي أن تكافح بما تكافح به وسائل الشر في المجتمع .

فاذا كانت الكتابات لأقلام معروفة ، وصحف مقروءة في مصر والشرق العربي ، كان الأثر آنكى ، والسهم أشد .

لأنكر على الكاتب أن يطرف قراءه بما رأى وشاهد من صور لا عهد لهم بها ، ولا أن يحدث عن حياة أوربا وأمريكا وما رآه منها ، وينقل اليهم صورة من حياة القوم ويثبتهم وأخلاقهم ولا عليه أن يشيد بما يراه من جد ونشاط وعلم وعمران .

ولكن الذى ننكره ونلج فى إنكاره أن يخرج به الإعجاب إلى حد الإطراء لمباذلم ومفاسدهم ، وانطلاقهم فى شهواتهم فيخرج قبحهم فى إطار من الألوان البراقة ، والنقوش الزاهية ، جاعلا من هذه الحياة الماجنة طهارة وقديسا ، بل ولا يستحي أن يزرى بما عليه قومه الشرقيون من استجهان مباذل الغربيين ، فينخدع قارئه مرتين ، ويكون قوله أشبه بالخدرد الذى يذهل متعاطيه عما يحمل من أفك الجرائم ، ثم هو ييشأ أينما سارت كتاباته فى الشمال وفى الجنوب ، وحيثما طار بها البريد جيئة وذهوبا فى عرض هذا الشرق وطوله .

يقول كاتب معروف فى القبلات على قارعة الطريق :

والآدب فى باريس لايسمح بإزعاج العشاق ، وظل الفتى يقبل الفتاة وهى بين يديه كالغصن المطول ، وكأنا لسنا هنا ، وكأنهم ليسوا هناك .

— لا تحسب يادكتور أن هذا فسق ، فقد يكون هذا العناق مقدمة زواج .

— اطمئن فأنا أعتقد أن هذا الغزل المكشوف أسلم وأشرف من تلك

السرائر المظلمة والقلوب السود التى تطوى عليها جوانح الغدرة الفجرة بمن يدعون الفضيلة ، (١)

وهذا كاتب لامع يفلسف للقبلة ، ويشرح لزوجته التى كانت معه فى زيارة

باريس أن هذه القبلة ليست إلا تعبيرا عن إحساس جميل ، وعاطفة نبيلة ، ولا

اعتبار للجنس بين المتحابين (٢) وأن الثورة الفرنسية جعلت ما بين الرجل

والمرأة فى العواطف ما بين رجلين أو امرأتين ، وأن الحرية افترضت (هكذا)

البراءة فى الناس .

(١) بقلم المرحوم زكى مبارك من كتاب باريس الذى جمعه الأستاذ أحمد

الصاوى محمد (٢) لاندري أيجب زوجته فلا اعتبار للجنس بينهما . أم هو يبغضها

ليعتبره ؛

ذاك شاب وفتاة يتحدثان في الطريق ، فلما أن أن يفترقا قبلته وقبلها ،
 واتخذ كل سبيله ، وذكرت لها أن ذلك من متعارف أخلاق الأوربيين ، فهو لا
 يجرح حياء أحد ، وهو كذلك لأنه قبله أخوية للقاء أو وداع يعبر اللذان
 يتبادلانها عن إحساس جميل ، وعاطفة نبيلة . . . ثم يذكر أن الثورة جعلت
 بين الرجل والمرأة من المساواة والإخاء ما جعلهما يتبادلان العواطف والمنافع
 كما يتبادلها رجلان ، أو كما يتبادلها امرأتان ، وأنها قضت في القلوب والأذهان
 على الاعتبار الجنسي الوضع الذي يجعله أكثر المصريين وأهل الشرق في
 المكان الأول من قدر صلات الجنس . . . وما دامت الحرية الحقيقة تفترض
 في الناس الطهر والبراءة ، فليكن النظر العام للقبليات كلها على أنها قبليات
 إنسانية ، كقبيلة الأخ لأخته ، والآب لبنته ؛ والخطيب لخطيبته (١)

ثم تخطو هذه الأقلام المقروءة المسموعة في مصر والشرق خطوة أو خطوات
 فتقرر أنها ما أحست الطهارة العليا الكاملة إلا بالحرية المطلقة في إتيان أى رذيلة
 بدون خشية قيد أو تحریم وهذا هو السبيل الذي زهد الفيلسوف في الرذيلة ،
 وجعله يمتق المادة ، ويهيم في عالم الأرواح . انظر إليه يجعل من هذا الضلال
 فلسفة ، ومن ذلك الفسق طهارة بانينا من الإباحية الخليعة على الروح .

أقسم لك يا جان (ساقى الأقداح) أنى في حياتى ما أحسست الطهارة العليا
 الكاملة إلا في هذا الحى الخليع . أتصدق هذا ؟ وهل تعرف السبب ؟

السبب بسيط : الحرية ، تلك الحرية المطلقة في إتيان أى رذيلة بدون خشية
 قيد أو تحریم ، هذه الإباحة للرذيلة زهدتني في الرذيلة نفسها إن الإنسان بطبعه
 يطلب الممنوع عنه ، المحرم عليه ، ويزهد في المباح . إن المالك شهر يار الذي

١٠ بقلم الدكتور محمد حسين هيكل صاحب في منزل الوحى وحياة محمد

ورئيس حزب كبير سابقا المصدر السابق ص ٣٩٣

استمتع طول حياته بالنساء واللذة الجسدية ، كاد يقتله الملل فصار يقتل كل امرأة بعد ليلة ، حتى جاءته شهر زاد . فكشفت له عن اللذة الروحية ، فاذا هو ينقلب إنسانا يعشق كل ماهو روح ، ويمقت كل ماهو مادة . وإذا هو يصبح كلما عرضت له المادة « شبت من الأجساد ، شبت من الأجساد ، هذه الصيحة انطلقت من فمى يوما ... كما انطلقت من فم كل فنان فى مونا رتر . رأيت كيف أن مونا رتر فى حقيقتها تملك الروح لا تملك المادة (١)

ولئن كان هذا الكاتب الكبير أحس الطهارة العليا من حرية الاتيان بأى رذيلة ، وصعد إلى عالم الروح على سلم ذرجه صيحات : « شبت من الأجساد شبت من الأجساد » فهذا كاتب آخر أكبر منه فى معناه — لقد أحس الطهارة فى نفسه بعد خمس دقائق فقط مُصدم فى أولها بمشاهدة الرقصات العاريات إلا من أوراق التوت ، فأكسبته هذه الدقائق الجنس آدابا وأخلاقا حسنا . لم تصنعها له حياته الماضية كلها . بل جعلت منه قديسا يرى فى استعراض العرى والجمال قطعة من روائع الفن العالية ثم هو يعرض ثمرات رحلته المظفرة علاجا لمشكلة الشباب . اقتداء بالدول الغربية التى أباحت الدعارة سرا وعلنا . والأخرى التى أباحتها بشكل محتشم غامض : فىرى أن نجعل المرأة فى شكل محتشم بين يدى الشباب ليزهد فيها .

كتب هذا الدكتور إلى صاحب ما قل ودل :
« أخى الأستاذ الصاوى تحياتى الخالصة من سويسرا . أكتب لك الآن من جنيف ، وقد اطلعت على جرائد ومجلات الوطن العزيز وراعى منها شدة اهتمامها بمعاكسة الفتيات . وكيف السبيل الى معالجة هذا الداء الويل ... ثم

١٠ بقلم الأستاذ توفيق الحكيم من المصدر السابق ص ١٠٥

قرأت كيف يعصر المفكرون قرائحهم لإيجاد حل سليم للخلاص من هذه الورطة الأخلاقية . . . ثم تذكرت كيف ذهبت بالأمس إلى مسرح في جنيف اسمه «الباتا كلان» لآرتاده إلا أرقى الطبقات . وكيف بدت الراقصات عرايا تماما إلا من ورقة توت صغيرة. وكيف صُدمنا نحن المصريين في بداية الاستعراض ثم لم نلبث أن اعتدنا العري والجمال بعد الخمس دقائق الأولى، وأصبحنا ننظر إلى الاستعراض كقطعة من روائع الفن العالي .

وتذكرت باريس، وكيف أبيعحت الدعارة فيها سراوعلنا، وإيطاليا وكيف نظمت الدعارة فيها بشكل محتشم غامض، وانجلترا العجوز، وكيف أباحت الحرية الشخصية في حدود القبلات والمقابلات في حدائقها العامة، وقلت لنفسي هل حالت الصراحة الجنسية دون تقدم هذه الأمم؟ لماذا لا تراجع أنفسنا وقوانيننا في حدود التطور العالمي الخلقى؟ فلشباب ثورته ولا مفر من مهادنته بطرق محتشمة حتى يزهد في المرأة عند ما يراها في متناول يده . . (١)

وبعد :

فهذا الجمال في الإحساس، والنبل في العواطف، والتعالى عن اعتبار الجنس وعدّ المرأة والرجل كأنهما رجلان أو امرأتان، والطهارة المجلوبة من شبع الأجساد، والحرية الكاملة في اتیان كل رذيلة، ومملكة الروح، ثم تنظيم الدعارة بشكل محتشم غامض، وزهد الشباب الثائر في المرأة الجميلة وهي بين يديه، كل هذه عناصر العقار العجيب، لشفاء الأخلاق والآداب، وإقامة الأمم على منهج الصواب .

أيها الحكومات في مصر والخارج، إن كتابنا الأعلام، يقدمون إليكم

(١) الاهرام ٢٢ من يونيه سنة ١٩٥٤ من رسالة الدكتور مصطفى الديواني،

من نتاج القرائح والأفهام ، ماسوف يغنيكم عن البوليس والشرطة ، وحفظة الأمن ، وأما كن السجون ، ودور القضاء ، وما سيوفر عليكم ماتنفقون في هذا كله من (ملايين ، وألوف الملايين)

لماذا تسنون القوانين ، وتحدون الحدود ، وتفرضون النظام ، وتشغلون أنفسكم بالضرب على أيدي العابثين ، فتزيدوهم ضراوة وإقداما ، وحبا في الممنوع وتكالبا على المحرم ؟

كيف يفوتكم أن في الحرية المطلقة ، والفوضى الكاملة ، ما يرد الناس إلى الاعتدال ۱۱۱

ألم يأتكم نبأ (الباتا كلان) ؟ : بل كيف غاب عنكم ما يقدمه لكم من علاج سليم ۱۱۱

أليست حرية الحصول على امرأة جميلة مزهّدة في الجمال ؟ أليست حرية السلب والنهب منفرة من احتياز الأموال ؟ أليست حرية السرقة واللصوصية مبعدة عن السرقات ؟

هلاّ أبحتم هذا وغيره لتحصلوا في رأي كتابنا على الانسان «السوبرمان» . إن الآكلين زهدوا الطعام الشهى من طول ما هو مباح ، والشاربين عافوا الشرب لأنه كذلك مباح ، واعلمهم بقرب أن يزهدوا الهواء والشمس والنور لأنها مطلقة عن التقييد .

أى ضلال انحدرت إليه أقلام هو أفدح من هذا الضلال ، وأى سموم تنشر باسم حرية الرأي هي أفنك من هذه السموم ؟

إن القانون الذي يُقيد للفرد عن أتلف جسمه بكأس من الشراب المسموم لجدير بأن يقيد للجماة من دساسة السموم للعقول والقلوب والأرواح .

ماذا نراقب من عوامل الشراء ، ومعاول الهدم ، ووسائل الإجرام ؛ إن لم نراقب هذه الاباحية المتبجحة المستهتره الى تعلن عن فسوقها ، وتدعو إليه وتروج له .

إن الحياة العقلية للناس مزاج ما يحيط بهم ؛ ويتفاعل معهم ، ويؤثر فيهم من مشاهدات ومطالعات ومعلومات وأفكار ، فإذا كانت خليطاً من المغالطات والشهوات ، والأكاذيب والأضاليل . انحرفت بهم عن سواء السبيل ، وصرفتهم عن منهج الرشاد ، وهونت عليهم التقم وارتكاب الآثام .

إن رائداً معاصراً من رواد الحرية الفكرية يدعو هؤلاء وسواهم معلم الجليل . يود لو وضع تحت المراقبة كل كاتب مريض بشهواته ونزواته يصورها في قصص وروايات تسحر الفتيان والفتيات . وتثقل إليهم العدوى التي تجعل منهم مرضى قليلي العمل كثيры الهوس .

يقول الأستاذ لطفى السيد رئيس الجمع اللغوى : (١)

... على هذا أ كاد أتمنى أن يكون عندي هنا قلم مطبوعات . أى سلطة غير محدودة ، كقلم مطبوعات الحكومة ، ليضع كتاب القصص ، ومعربى القصص تحت المراقبة ، حتى لا يضيفوا إلى التشويه الطبيعى تشويهاً آخر صناعياً فإن الكاتب قد يكون ضعيف الأعصاب بالإجهاد الشخصى ، أو بحكم الوراثة هائج المجموع العصبى من جراء المعيشة المدنية ، والإسرافات المتنوعة من شرب الكحول ، ومن السهر ، بل من البيئة المدنية المصفاة التي لاتكاد تفيق من اللهو واللعب ، قد يكون الكاتب كما وصفنا ، فيجرد من شخصه المريض بطلا لروايته الغرامية .

ولا شك فى أن أغلب الفتيان والفتيات فى سن معلومة تسحرهم القصة ،

(١) المنتخبات ص ٢٠٦ وما بعدها .

فتسرى إليهم العدوى المعنوية من أخلاق أبطال الروايات اذا قرأوها في خلواتهم ، أو شهدوها تمثل على المراسح ، فتكرر في الجمعية بتلك الصورة المريضة ، ويفشوا في الناس التشوه الذى هو في الطبيعة ، قليل المثال ... وما أغنى الانسانية وهى أحوج ماتكون إلى الأعمال المنتجة فى سعادتها وهناءتها عن إكثار عدد المرضى ، قليل العمل ، كثيرى الهوس ، والخيالات العقيمة ، يقول الكاتب الكبير ذلك من قرابة نصف قرن ، وهو يخشى على الشباب « ميكروب » القصص المرضى ينقل إليهم عدواه ، ولم تكن النذر حينذاك لتعدو قطرات تسيل بها الأقلام ، أو شررا يتطاير من الأوهام ، فكيف بنا وقد استطار الشرر فأمسى لهيبا يتسعّر ، واستحالت القطرات ركاما من السحب انفجرت عن الصيب الغمر ، بل الطوفان المحتاح ، يأتى على القواعد من الآداب والعادات والعقائد والأخلاق .

هذه صحف يومية ، وأخرى أسبوعية وشهرية ، وتلك دور اللهو العامة بالليل والنهار ، تعرض القصص المقروءة ، والصور المنظورة ، والمشاهد المتحركة فتحشد لها حشدا ، وتفنن في اشكائها ، وأوضاعها ، وأحجامها ، وعريها ومفاتها ، وهى فى دهبها ، وإلحاحها وحرصها على إثبات ذلك فى أذهان مشاهديها وقرائها ، كأنما تطرفهم بأنباء عالم عجيب غريب لاعهد لهم بمثله ، بل كأنما تعالج المجهول من أسرار الكون فتبرزه ، أو ماغاب عنا من وسائل استعمار القطبين فتجلوه ، أو ما فات أوربا وأمريكا من شئون الذرة فتكشفه وتنفع به . إن هذه الأقلام الممتونة بشهوات الغرب تقول لقرائها : هذه هى المدنية الغربية إن شئتم النهوض ، فيها الصراحة الجنسية التى لم تكن حائلا دون تقدمهم بل هى من أسباب هذا التقدم والفوق والامتياز — وكأن هذه المدنية قامت

يوم قامت على الشهوات والنزوات والقبليات . كأنما لم تقم على الجهاد والجلاد والجد والكفاح .

أما والله لو منيت المدنية الغربية يوم قامت بهذه الاباحية لما كان لها من نهوض ولا قيام -- لو منيت بها يوم قامت لما أبدعت إبداعها الذي ملك عليهم القلوب والعقول ، ولما اكتشفت واستعمرت ، ثم ملكت مملكته بالعرق والدموع والدماء والحديد والنار .

إن هذه الصراحة الجنسية الحديثة هي الصراحة الجنسية في (ابيقورية) اليونان وهي الصراحة الجنسية في أواخر امبراطورية الرومان . وهي الصراحة الجنسية في (مزدكية) الفرس ، وهي الصراحة الجنسية في ليالى الأندلس وبغداد ، وهي نفسها التي قضت على تلك المدينيات . وهي نفسها التي قام يكافحها عقلاء أوربا وأمريكا . وجاءوا إلى هذا الشرق الحبيس ، يلتمسون منه العون ليخرجوا مدينتهم من مأزق يوشك أن يطبق عليهم بأسباب الفناء .

إن صاحب الدقائق الخمس الذي تطهر فيها بصدمة واحدة من كل آثار ماضيه في الحياء ، لا يكفيه عرى الشواطىء . ولا تكشف الشوارع . ولا ما يضج به المخلصون من الشكاوى الآلمية مما انحدرت إليه الأخلاق والآداب ، فيقدم علاجه في ذلك استباحة المرأة ليزهد فيها الشباب .

كتبت فتاة مثقفة من طالبات الجامعة إلى رئيس تحرير الأهرام (١) تحمل على السيدات الخائنات لأزواجهن ، الهاديات لسعادة أسرهن وأنفسهن ، واقترحت على الصحف والإذاعة حملة شديدة لعلاج هذه الحالة الويلة . وعلى القانون صرامة في عقاب الزوجات الخائنات -- وعلق الكاتب الكبير يؤيد هذه الصيحة ويقويها .

فهل علمت الفتاة المثقفة أن أعدى أعداء المرأة هي هذه الأقلام التي تزين لها الخروج عن الآداب والتقاليد المرعية بدعوى الحرية ، والتي تشجع المرأة على مساجلتها ما ترجوه من شهوات ونزوات ؟

وهل رأت وهي الحصيصة الغیری علی کرامة المرأة وصالح الأسرة وخیر الأمة أن هذه الأقلام (والأفلام) والصحف التي تغري المرأة بهذا الفساد ، وتريدها علی أكثر منه وأفدح ، یجب أن تنصرف إلى مكافحتها جهود المخلصین من الرجال والنساء .

أليست تواقفني ومعها كل ذات عفة وكرامة أن شر زراية وتحقير وامتهان للمرأة هو في مثل ما يقترحه الدكتور وأمثاله من مهادنة الشباب حتى يزهد في المرأة عند ما يراها في متناول يده ؟

يقول الأستاذ في ما قل ودل « جريمة واحدة تذاع فضائحتها هكذا تؤخر زواج مئات من الفتيات الطاهرات اللاتي لا ذنب لهن ، ومن واجبننا أن نحمين ، وأقول : وأي حاجة للشباب في أعباء الأسرة إذا كان كل ما رغبه رهن إشارته ؟

لماذا لا يستمتع ماشاء ، وله في شهواته الغم كل الغم ، وعلى المرأة وجنيها الغرم كل الغرم ؟

لماذا لا ينادى بالحرية في إتيان أي رذيلة ، حتى تنطلق من فيه صيحات « شبع من الأجساد ، شبع من الأجساد ، فإذا هو بعد ذلك عدو للبراة مبين يتندر بها ، ويعيبها ويزدریها ، ويسوء ظنه فيها ؟

بل ما له إذا شبع منها لا يطلق عليها الرصاص من لسانه وألسنة إخوانه .

إن لم يكن على حظ من شجاعة الشبعان من الخمسين ، في شارع عماد الدين . (١)
إن واجب المرأة الآن يفرض عليها الدفاع عن نفسها وبنات جنسها ، لا من
مغتصب المطالب السياسية التي تريدها ، ولكن من سارقى شرفها وعرضها ودينها .
إن خير ما تقدمه المرأة لنفسها وأخواتها هي الصيانة من ذئاب الرجال ،
 واحتفاظها بأدائها ، واعتزازها باحتشامها ، وترفعها عن أن تكون العوبة الرجل
 يلهو بها ثم يلقها .

إن واجب المثقفة الكريمة على نفسها ووطنها أن تثور على كل ما يمس حياءها
أو يخذش عفافها ، من صور خليعة لبنات جنسها : وأقاصيص مكشوفة وروايات
غرامية ، تدور حولها ، وأزياء مبتذلة وعري فاضح ينال من كرامتها .
ورحم الله الكاتب المسلم ، وأفاض عليه سبحانه رضوانه إذ يقول :
« احذري أيتها الشرقية ، وبالغي في الحذر ، واجعلي أخص طباعك الحذر كله
إحذري وأنت النجم الذي أضياء منذ النبوة أن تقلدي هذه الشمعة التي أضياءت
منذ قليل .

احذري أن تخسري الطباع التي هي أليق بأم أنجبت الأنبياء في الشرق .
احذري أن تخدعي عن نفسك ، إن المرأة أشد افتقارا إلى الشرف منها
إلى الحياة .
الحب ، الزواج ، المال — هذه صلاة الشعب حين يتظاهر بالتقوى
أمام الدجاجة .

احذري السقوط إن سقطت المرأة لهوله وشدة ثلاث مصائب في مصيبة

« ١٠ » حادثة اهتزت لها الأوساط العامة وخاضت في تفاصيلها الصحف وتناقلتها
الأسنة . ووجد للجاني مذكرات دون فيها صلته بخمسين امرأة . وذكر أنه أطلق
الرصاص على عشيقته لاحتقاره لها وتخلصا من مطاردتها الهوما تزال منظورة أمام القضاء

سقوطها هي ، وسقوط من أوجدوها ، وسقوط من توجدهم .

نواب الأسرة كلها يسترها البيت الاعار المرأة .

أيتها الشرقية احذري احذري (١)

أيتها الشرقية الفاضلة ، أيتها المثقفة الكريمة على نفسها وعلى ذوى الكرامة من

مواطنيها ، أوصيحي لوحى ضميرك ، وتنسيمي ريح السعادة من دينك ، واستنيري

بنور الله ، وتمسكي بالإسلام ولو ذى بجاه ، فقد حماك من لحظ البصر ، وغنم

الحديث ، وكوني مؤمنة في عداد المؤمنين ، وازدري المنافقة والمنافقين فالله تعالى

يقول : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمررون بالمنكر وينهون

عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون

وعد الله المنافقين والمنافقات نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم

عذاب مقيم ،

ويقول سبحانه في شأن الأخيار : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء

بعض ، يأمررون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وقيمون الصلاة ، ويؤتون

الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم ، وعد

الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن

طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم ،

« ١ » للرحوم الاستاذ الرافعى — وحى القلم ج ١ تحت عنوان احذري ص ٢٩٦

في رياض القرآن

وهدي الرسول

كأنى بالقارىء الكريم ، وقد طال به المسير في رحلة مباركة مرجو لها التوفيق ، نفذت إلى الأغوار البعيدة في مجاهل من الرأى ، ومذاهب من القول اختلط فيها صاف بزائف ، واشتبه عقل بهوى ، فكشفت عن الحر الأصيل من نتاج الألباب ، ومقاطع الصواب ، تبسط الرأى ، وتناقش الخصم وتدل بالدليل تلو الدليل ، وتمحو ظلمة الباطل بضياء الحق ، وتجبه الخاطئين والمخطئين بأسلحة العلم — كأنى به وقد رغب التخفف من القال والقيـل ، كى ينفى إلى ظل ظليل من كتاب الله ، يستروح به أنسام الجنة في هذه الحياة ، ويتفيا واحات النعيم في صحرائها المستعرة . فيروى من نيره . ويغتذى بثماره ، ويغسل بطهره وفيضه ونوره آثار اللغو الكثير من تفاهات التافهين ، وأوهام الواهمين ، فإلى رياض القرآن بعقولنا وقلوبنا ساعة ، عسى أن تكون لحياتنا عمادا ، ولأيماننا زادا ، ولما انشعب من أمورنا صلاحا وسدادا .

يقول القرآن الكريم في نسقه السماوى الرائع ، يقرن الكوامل من النساء بالكملة من الرجال : إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والحاششعين والحاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما . .

فالفضايات من النساء مسلمات لله ، خاضعات لأمره ونهيه ، عاملات بشرعه

وهديه .

مؤمنات به سبحانه ، وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، راضيات بقضائه وقدره ، واثقات بفضلته وبره .

قاتات داعيات ، وعليه مقبلات ، وفي رضاه قائمات
صادقات الألسنة والقلوب ، طاهرات السرائر والظواهر ، أغناهن صدق
الأعمال عن تزوين المقال .

صابرات على الطاعات ، واداء الواجبات ، رابطات الجأش في الشدائد
والمهمات .

يزين هذا الصبر تواضع وخشوع ، في رقة ولطف ، لاختشونة وغنف .
في هدوء وسكينة ، وعزة وصيانة .

وتصدق على المحتاجين بفضل المال والعلم والتوجيه الحكيم
وصوم عمايشين ، وحفظ للجوارح والغيوب ، ودوام ذكر الله ، مع
الرجاء في بره ورضاه ، ولهن من ذلك عند الله المقام الكريم ، والأجر العظيم .
هذه صفات الكاملات من المؤمنات ، في الآية الكريمة التي تحدثت بمثلها
عن الكاملين من الرجال .

وتسبق هذه الآية آيات ، في شأن الفريق الأول الذي أقامه الله أمثلة عليا
للمؤمنات ، يهوين إليه بالقلوب والأفئدة ، ويرينه بالعقول والبصائر ، يرمقن
جلاله ، ويحتذين مثاله ، ويتربصن كماله وفعاله . أولسكن هن زوجات الرسول ،
شرعن بقول الله سبحانه « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ،
أعلى الله همتهن عن أن تكون الدنيا غايتهم ، أو تكون زينتها من حظوظهن
ورغبتهم ، لأنهن قدوة المسلمات ، والأعلام المرفوعة هداية للمؤمنات ،
والمبلغات لأعظم الرسالات ، فلسن كغيرهن من النساء وذلك قول الله سبحانه :

« يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين
أمتعنن وأسرن حكن سرا حميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار
الآخرة فإن الله أعد الحسنات منكن أجرا عظيما ، — فلم تكن منهن واحدة
بعد هذه الآيات إلا سارعت الى الله ورسوله . وآثرت الحياة الباقية على زينة
الدنيا ، وحافظت على عهدها ، حتى لحقت بجوار ربها .

لقد تفتحت براعم الحياة للمسلمين . واستهلت واردات الأموال في عهد
رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وبدأ الصحابة ينعمون بما آفاه الله عليهم
من بركات ، ثم فتحت الدنيا ، وفاضت الأموال على عهد الخلفاء الراشدين ،
وكان لأمهات المؤمنين نصيبهن الكبير من هذا المال الوفير . ولكنهم ظللن كما
كن على عهد الرسول ، متقللات من الدنيا ، زاهدات في أعراضها ، متصدقات
بمخطوظهن على المحتاجين من أبنائهن المؤمنين .

يجيء من البحرين مال ، ويقضى الرسول صلاة الغداة ثم ينصرف فيلقاه
في المسجد بعض المصلين ، فيبتسم إليهم ، وقد عرف لماذا هم واقفون ويقول :
لعله قد بلغكم ورود المال . فيقولون : نعم ؛ فيقول : أبشروا . ثم لا يفارق
مجلسه حتى يفرقه في المسلمين ، وعمه العباس في القوم يملأ حجره بالمال حتى
لا ينهض به . فيقول للرسول : احمل عليّ ، والرسول الكريم يضحك من عمه
ورغبته في الدنيا ، ويقول ناصحا ومرشدا : « فوالله لا الفقر أخشى عليكم
ولكن أخشى أن تفتن عليكم الدنيا كما فتنت علي من كانوا قبلكم ،
فتنافسوها كما تنافسوها فتنازلكم كما أهلكتهم ،

والرسول وآله معه لا ينالون من الدنيا إلا كفافا — وتقول عائشة :
ما شبع آل محمد من خبز الشعير ثلاثة أيام تباعا . وتقول رضي الله عنها : كننا

نعد الهلال والحلال والحلال ، وما يوقد في أبيات رسول الله نار ، فتسأل عما كان يقوتهم ، فتقول : إنما هو التمر والماء — وتقول عن نفسها بعد عهد الرسول : ماشعت من طعام قط وأحببت أن أبكى إلا بكيت . لما كان رسول الله ﷺ يجوع ثم لا يشبع .

هذا هو المثل الأعلى في حياة المسلمين ، والقُدوة الصالحة للرؤساء والحاكمين ، لم يُكلف بمثلها عامة الناس ، إذ لا يُكلف الله نفسا إلا وسعها ، وإنما هي أعلام الهدى للمهتدين ، توقظ همّة المتوانين ، وتشجذ من عزائم السباقيين ، وتنفّ بالراحة والرضا على قلوب المحرومين ، فلا نلذث أن نرى أثر ذلك فيمن حولن من المسلمات إشارا وإخلاصا وتقانيا .

جاء رجل مسلم يشكو مابه من جوع ، فبعث النبي إلى إحدى نسائه ، ما عندك من طعام ؟ فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي سوى الماء ، فبعث إلى باقيهن واحدة واحدة ، فلم يجد عندهن سوى الماء ، فأخذه رجل من المسلمين إلى بيته وسأل امرأته فلم يجد إلا عشاء عياله ، فقال لها : ضيف رسول الله ﷺ فقالت : مرحبا بضيف رسول الله . وهيات الزاد ، ونوّمت الصبيان ، وقدمت الطعام إلى زوجها وضيفه ، وقامت إلى السراج متظاهرة بأصلاحه فأطفأته ، وطعم الضيف ، وزوجها يريه أنه يؤاكله ، وما مد إلى الزاد كفا ، فلما أصبح الصباح ، ولقى الرسول كان الوحي أسبق إليه منه ، فأخبره الرسول خبر الوحي ، وقال له : ضحك ربنا مما فعلنا الليلة بضيفكما فغفر لكما .

ثم تطرد الآيات السابقة مستكملة ما ينبغي لزوجات الرسول من الآداب : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا ، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن

تبرج الجاهلية الاولى ، وأقن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفا خبيرا ،

ثم جاءت على أثر آيات الامهات آية الفضليات من المسلمات ، تعقد على رموس النساء أكليل المجد ، وتيجان الفخار ، بما حزن من جميل الخلال ، وكريم الخصال ، وعظيم الآداب ، ولا عجب أن يثنى الله على الصالحين من عباده ويذكر من مكرماتهم رغبتهم الى الله ، ودعاهم إياه بأن يجعل لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين ، وبهجة أنفس ، ورضا قلوب ؛ فاذا هم على أمل في إمامة المتقين . قال تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . . . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » - وكيف لا ؟ وحديث الصادق المصدوق يقول : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرتة ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله ،

كذلك خير ما ترزقه المرأة المؤمنة بعد تقوى الله سبحانه ، زوج صالح يكون بهجة قلبها ، وعماد بيتها ، ودرع أيامها ، وتاج عزها والله تعالى يقول : « الطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ،

وإذا كانت المرأة في القرآن كريمة كرامة الرجل ، وهي فوق ذلك مستودع الحياة ، وموطن الحفاظ ، ومناط الشرف ، فقد صانها الاسلام أكبر الصيانة وحاطها بسيياج من الكرامة والحصانة ، فأمر النساء بالستر والاحتشام . فلا يكشفن من جسمهن سوى ما اعتيد كشفه من الوجه والكفين « ولا يُبدین

زيتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن . . . ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن ، «يأبى الله أن يعرضن زينتهن بآياتهن» ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، ذلك المؤمنات يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن بالكرامة ، فلا يؤذين بالبذاءة . كما أمرهن بغض الأبصار حتى لا يطمعن مرضى القلوب فقال : « قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، كذلك حفظهن من شره العيون ، وطرأح الأنظار . فأرشد أصحاب الضمائر الحية من الأخيار إلى ما ينبغي لهم ، ويحمل بهم من غرض البصر ، وأذر المنافقين والفجار ، الذين يعرضون بالأذى وإرجاف السوء للمحصنات العفيفات بسوء المصير ، فقال سبحانه لنبيه « قل للمؤمنات يغضوا من أبصارهم ، وقال : « لن لم ينه المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم أبان عاقبة الحملة الصادقة عليهم من الطرد واللعن والتقتيل فقال : ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، وإذا كانت هذه صيانة الاسلام للمرأة الكريمة وكرامتها ، فما أجدر المؤمنة الكاملة بأن تعتر بهدى القرآن ، وتحتفى بجماه ، فتسبغ ثيابها ، وتدنى جلبابها ، وتصون رأسها وصدرها وأطرافها عن عيون المتطفلين ، وسهام الناظرين ، ما أجدرها بأن تجعل من بيتها جنة وارفة يأوى إليه زوجها وأبنائها ثم يكون بيتها أفضل أسترها .

نعم : إن من حقها الخروج لحاجتها من علم وعمل ، وخير وبر .

من حقها الترويح عن نفسها بالرياضة

من حقها صلة من شاءت من خيرات الصديقات

كذلك من حقها التحشم والتصون والستر .

من حقها وحق كرامتها عليها سبوغ الثياب ، ووفاء الجلباب .
 من حقها وحق كرامتها عليها أن تكون ملء القلب بالاجلال والصيانة
 والرعاية ، لاملء الجسد بالشهوة والإسفاف والبغى .
 فهي بالاجلال أمّ تنبع منها الحياة .
 وهي بالصيانة أخت وزوجة يُحفظ لها وبها الشرف .
 وهي بالرعاية بنت يُضاعف لها الحنان والعطف .
 ولكنها بالشهوة فتنة تسعى .
 وبالإسفاف لفظة تؤذى .
 وبالبغى عرض يُنتهك .
 ينظرها الرجل فتلوى فيذكر أخس ما فيه وأحقره .
 يراها غوى الرجال عارية فتشوقه ولكن بالحيوان فيه ، كما تشوق الطفل دميته
 التي يريدّها نهيّةً ، ثم يلقبها بعد السأمة منها محطمة .
 ويراهم الرشيد مائلة مميلة ، فتثير اشتزازهم وامتعاضهم وتحقيرهم وسخطهم .
 في الحديث الشريف « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : نساء كاسيات عاريات
 مائلات مميلات ، على رءوسهن كأسنمة البخت ، لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها ،
 ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ،
 هؤلاء يفسدون الناس بالإذلال والقهر .
 وأولئك يفسدونهم بالشهوة والعهر .

* * *

لن تكون المرأة كريمة على الرجل لأنها تزامله في كرسى البرلمان ، أو
 تماثله على مكتب الديوان ، أو تراقصه في حلبة المجون والمجان ، أو تتعري له

على شاطئ البحر، أو تعرض فتنها عليه، فتشغله وتلهيه، أو تأسره وتصبه ١١ .
 إنما تكون كريمة على الرجل متى كانت كريمة على نفسها، ولن تكرم على
 نفسها ما لم تعرف حقيقة أمرها، فتعلم أنها في الحياة مستودع الحياة ومجراها
 وأنها مكلمة الرجل في رسالته، وأنه مكلمها في رسالتها. ومن الخير لها — إن
 استطاعت — أن يكفيها العمل الخارجى على أن تكفيه البيت وشؤنه، فإن
 اضطر إليها أمدته بعونها ورفدها، وإن فرغ من واجبه أعانها على أعبائها وأثقالها.
 لقد شاركت المرأة المسلمة في مواقف الإسلام الكبرى، وشهدت مشاهد
 الجلى، وأعانت الرجل في حروبه ومعاركه، فلم يكن على الرجل بأس أن
 يشارك في بعض أعباء البيت تخفيفاً وترفيفاً.
 وهذا هو السيد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه كان — أحياناً — يقيم
 بيته، ويخيط ثوبه، ويخصف نعله .

كذلك رغب لآله ما رغب لنفسه فقد جاءته فاطمة رضى الله عنها تسأله
 خادماً فأرشدتها إلى ما هو خير لها منه — روى البخارى بسنده عن على كرم الله
 وجهه أن فاطمة أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرجا، وبلغها
 أنه جاءه رقيق، فلم تصادفه . فذكرت ذلك لعائشة . فلما جاء أخبرته عائشة
 قال : فيجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبننا نقوم . فقال على مكانكما . فجاء
 فقعد بيني وبينها حتى وجدت برد قدميه على بطنى فقال : ألا أدلكما على خير
 مما سألتما ؟ إذا أخذتما مضاجعكما وأويتما إلى فراشكما فسجدا ثلاثاً وثلاثين ؛
 واحداً ثلاثاً وثلاثين . وكبرا أربعاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم —
 قال على فما تركتها بعد . قيل ولا ليلة صفين ؟ قال ولا ليلة صفين .

وروى البخارى كذلك عن أسماء بنت أبى بكر قالت : تزوجنى الزبير والله

من مال ولا مملوك ولا شيء غير ناضح و فرسه ، فكنت أعاب فرسه ، وأستقي الماء ، وأخرز غربه ، وأعجن ولم أكن أحسن أخبز ، وكان يخبز جارات لي من الأنصار ، وكن نسوة صدق ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي ، وهو منى على ثلثي فرس - فخبت يوما والنوى على رأسي . فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار ، فدعاني ثم قال : إخ إخ - أى لناقته - ليحملني خلفه ، فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته ، وكان أغير الناس ، فعرف رسول الله ﷺ أني استحييت فمضى ، فخبت الزبير فقلت لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى ومعه نفر من أصحابه فأناخ لأركب ، فاستحييت منه . وعرفت غيرك . فقال والله لملك النوى كان أشد على من ركوبك معه - قالت حتى أرسل إلى أبو بكر بعد ذلك بخادم يكفيني سياسة الفرس فكأنما أعتقني .

فالمرأة في بيتها تبنى نفسها وزوجها - وليس معنى ذلك أن تخشن ككفا ، وتصلب عودا . وتشبه الرجل في قوته وفتوته ، فما خلقت المرأة على نحو آخر غير الصلابة والخشونة والفتوة ، إلا لهذا الحنان واللين والعطف تسبغه على زوجها ، وتفيض به على وليدها الذي تجرى له الحياة من أئدائها - ولكنه العمل ببارك الحياة ويزينها ويحفظ الصحة ويصونها ، ويملاً فراغ المرأة فلا تحس بالضيق والضجر ، ولا تنفق وقتها في غير نفع وثمر .

والمرأة أستاذة البيت وربته تعين زوجها ، وتحفظ مالها ، وترعى لها أولادها وتكون خير قدوة لهم ، تطبعهم - إن شادت - على مناهج الخير ، وترضعهم - لو أرادت - لبان الاستقامة ، وهي على ذلك أقدر ، إذ بها تتعقد أبصارهم وتعلق قلوبهم . إن على الآباء حقاً واجباً أن يكونوا مثلاً صالحة لأبنائهم في أداء الواجب ورعاية الأمانة ، وحسن المعاملة ، وجميل الأخلاق ، وأن يتحلوا بكامل صفاتهم

أمام أطفالهم ، فإذا عاملوا أجهلوا ، وإذا قالوا صدقوا ، وإذا وعدوا وفوا —
 نادى امرأة صبيها لها يلعب قائلة يا عبد الله : تعال حتى أعطيك ، فقال ﷺ :
 وما أردت أن تعطيه ؟ قالت تمرأ ، فقال : أما إنك لو لم تفعل لكنت عليك كذبة .
 ورعاية الأبناء والبشاشة لهم من خير ما يطبعهم على البشاشة والنظرة السليمة
 المتفائلة فهما شقت الأعباء على الأبوين فليكونوا مجتلى السرور والحب لأبنائهم
 ولا يملئوا قلوب الصغار بالآلام الحياة ، ولا يقسو عليهم رغبة في المبادرة بتكليفهم .
 كذلك لا ينبغي أن يسرفوا في تدليلهم ، ففي المبالغة في إحدى الناحيتين إيذاء
 لهم ، وإتلاف لأخلاقهم ، وليكن لنا من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه
 أعظم القدوة وأجمل الأسوة ، فلقد بلغ رفيقه بأبنائه وأحفاده وأبناء المسلمين
 وأحفادهم المبلغ الأسى — تعلق به بنت لأحدى بناته وهو خارج إلى الصلاة
 فحملها ، وصلى بالناس وهي على عاتقه فإذا ركع وضعها ، وإذا قام رفعها —
 روى البخارى ومسلم عن أبى قتادة الأنصارى قال . رأيت النبی ﷺ وأمامة
 بنت أبى العاص وهي ابنة زينب بنت النبی ﷺ على عاتقه ، فإذا ركع وضعها
 وإذا رفع من السجود أعادها .

وروى البخارى فى جملة روايات ما مؤداه أنه ورد إلى النبی ﷺ ثياب وفيها
 خيصة صغيرة سوداء ذات أعلام ، فقال من ترون نكسو هذه ؟ فسكت القوم ، قال : هـ
 استوفى بأم خالد بنت خالد بن سعيد فأتى بها صغيرة تحمل فأخذ الخيصة بيده
 فألبسها ، وأشار إلى أعلامها فقال : يا أم خالد هذا سنة سنة وهى بالحبيشة حسنة
 قالت أم خالد : فذهبت ألعب بخاتم النبوة ، فزبرنى أبى . فقال : دعها ، ثم قال
 لها : أبلى وأخلقى ثم أبلى وأخلقى ، فعمرت طويلا .

ويكون ﷺ فى صلاة الجماعة فيسمع بكاء الصبي فيتجوز فيها شفقة بالطفل
 وأمه ، وروى ابن أبى شيبه أن رسول الله ﷺ قرأ فى الركعة الأولى من

الصبح بسورة نحو ستين آية ؛ فسمع بكاء صبي فقرأ في الثانية بثلاث آيات وروى النسائي أن رسول الله ﷺ كان يزور الأنصار ؛ فيسلم على صبيانهم . ويمسح على رؤوسهم ويدعو لهم

ومع هذا اللطف البالغ . والرفق العظيم . فقد كان يؤدب أهله بما أدبره به ، فإذا أخذ على أحد منهم كذبة هجره حتى يرى أنه أحدث توبة . وتناول الحسن ابن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه . وكان صغيرا فقال له : كخ كخ إرم بها إنا لاتحل لنا الصدقة . وأخذها من يده ، ويقول في حديثه : مانحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن .

هذا : ولودهننا نتقصى مبادئ التربية الخلقية العالية في آداب الإسلام

لطال بنا المقام . وإنه إلى القلوب حبيب .

فإلى الإسلام أيتها المسلمة . تمسكي بكتابيه . وتأدبي بآدابه ، واحتمي بحماه . إلى الإسلام أيتها المسلمة ؛ أعيدى لنا مجد المسلمات الأوليات ، وصلى من تاريخنا ما انقطع ، وارفعي من حاضرنا ما اتضع .

إلى الإسلام أيتها المسلمة . لا يلفتك عن أمجادك الأصيلة مفتون من الغرب بشهواته ، يفر من الأسرة ، ويتحلل من قيودها ؛ ويريدك لنزواته . إلى الإسلام أيتها المسلمة ، كافحي التجارة بجسمك ، والعدوان على حيائك في هذه الصور الخليعة ، والصحف المستهترة ، والأقلام المسمومة (والأفلام) الماجنة ، والتكشيف والتبرج في الشوارع والطرقات ، والتعري الفاضح في الشواطئ (والبلاجات) .

إلى الإسلام أيتها المسلمة أستبينى الذى يدعوك إلى الله ، بمن يدعوك إلى الشيطان . ومن يرجو لك الصيانة ، بمن يريدك على الهوان .

إلى الإسلام أيتها المسلمة ، إلى الله ، فربك أبر وأرحم ، وشرعه أكرم وأحكم

طريقه أحفظ لك وأسلم .

والله يتولاك ، وبفضله يرعاك ، وبتوفيقه يسدد خطاك ، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

ونسأله جلت قدرته ، وتعالى حكمته ، أن يهبنا البصيرة فى دينه ، والقوة فى يقينه ، والعمل بهديه ، والإخلاص لوجهه ، والعزة فى الحياة والخير فى لقاءه ، وأن يجمع شمل المسلمين ، ويوفق ولاية الأمور لما فيه خير مصر والعروبة والاسلام والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وأمهات المؤمنين ، والتابعين والتابعات لهم بإحسان إلى يوم الدين . آمين .

استدراك لأهم الأخطاء

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	الخطأ	صواب
٢١	٥	وقبائلهم	وقبائلهم	٧٢	١٩	بايمانهم	بايمانهم
٢٢	١٠	ويكسبنها	ويكسبنها	١٠٧	١٩	والمناققون	والمناققون
٢٦	٧	أنه فى بنى تميم	أنه وجد فى بنى تميم	١١٢	١٦	وما يطلع	وما لا يطلع
٤٤	١٠	فيعنف	فيعنف	١١٣	٥	البدوى	البدو
٤٥	هامش	الخمر	الخمر	١٢٤	١٦	ولينتصرن	ولينصرن
٤٩	{ ١٠ ١٨ }	ما يضحك	ما يضحكك	١٣٨	٦	هل ويعلمها	هل يعلمها
٦٥	٦١	واللائى	واللائى	١٨٨	١٠	ويتفاهم	ويتفاهم

﴿ فهرس الكتاب ﴾

مقدمة : بقلم فضيلة الأستاذ محمد فوزى خشبه

١ الإهداء :

٢ تمهيد : القضية الخالدة المصرية الحديثة . تأليف الكتاب . مصادرہ

١٢ المرأة في التاريخ : مبالغات المؤرخين . في الملك . في التوراة والانجيل . اليابانيون وأبنائهم .

٢٠ المرأة العربية : كرامتها في قومها . لم يكن الوأد قاشيا . العرب أنسب اليثبات للإسلام

٣٠ هل تساوى المرأة الرجل في القوى الجسمية ؟ الفروق بينهما لصالح الجنسين

٣٧ المرأة والدعوة : منذ اللحظة الأولى وقبلها . جهاد الموالاة ، وموقف المعادية ، في مكة والمدينة ، وعصر الخلفاء

٥١ مكانة المرأة في الإسلام : الحق الأول والأخير . شخصية المرأة كاملة . إقامة البيت

المسلم . بعد المسلمين عن منهج الدين . درجة الرجل طيعية . قوامته ضرورية شورية

٦٩ تعدد الزوجات : الكتاب والسنة والعمل . موقف الصحابة . موقف النبي في رعايته

للدولة الناشئة . أمهات المؤمنين . زواج زينب والأخطاء حوله . تشريع خالد .

الغرب وتعدد الزوجات . اتحاد القوانين التقييد المحرود .

٦١ مشروعية الطلاق : علاج كل من الزوجين لصاحبه . التحكيم . الطلاق عملية

إنقاذ . النهى عن التحليل . حق المرأة في حل الزوجية . بعد الفراق . المسرفون على

أنفسهم . كلمة خاتمة .

١٠٧ المرأة في الميراث والشهادة : نصيب المرأة ضعف نصيب الرجل . الشهادة . ضعف

شهادة المرأة وقوتها . وضعف شهادة الرجل وقوتها

١١٦ المرأة والحجاب : بالنسبة لأمهات المؤمنين . بالنسبة لغيرهن . محنته الحاضرة .

واجب ولاية الأمور

﴿ تابع الفهرس ﴾

- ١٢٥ المرأة والمسجد : مشروعية الجمعة والجماعة والعيددين . التخفيف على المرأة . شهودها المسجد في عهد النبي والخلفاء . شبهة بعض الباحثين . الحيلة تغلب قوما صالحين . اصلاح الأمة في الهدى النبوى
- ١٤٠ المرأة والأزهر : رغبة كثيرين . ضرورة ذلك لصلاح المرأة والأمة
- ١٤٦ المرأة والحياة العامة : التعليم بدؤه للفتاة . الأمل فيه . المصرية تؤثر العمل الخارجى أثر ذلك فى الأنباء . ازمة الزواج . لا يصلح لنا التقليد . رسالة المرأة
- ١٦٠ المرأة والحياة السياسية : وجهات النظر . فتوى لجنة الأزهر ومناقشتها . هل فى دخول المرأة البرلمان خير هام ؟ التاريخ قديما وحديثا أصدق شاهد . لماذا لانرحب بدخول المرأة البرلمان ؟ اسراف دعاة الانتخاب . المصرية اكثر نساء العالم حقوقا المعتصمات .
- ١٨٠ المرأة والشواطىء : قدم المصايف . العرى على الشواطىء ودعاة الاباحية . علماء النفس والعادة . العرى بعيد عن أى دين وإنسانية . الاباحية داء قديم . ضرورة الصدق فى الاصلاح . الاباحية شيوعية . فوضى الشواطىء تقضى على كل اصلاح . التبعة عامة وخاصة . رجاء
- ١٩٥ المرأة والأقلام المسمومة : نماذج . وبعد . لطفى السيد ومراقبة النشر . واجب المثقفة . احذرى
- ٢٠٧ فى رياض القرآن : المثل الأعلى . المثل العالى . كرامة المرأة فى أدبها . المرأة والبيت الى الاسلام أيتها المسلمة .

TE DUE

[illegible]

396:A96mA:c.1

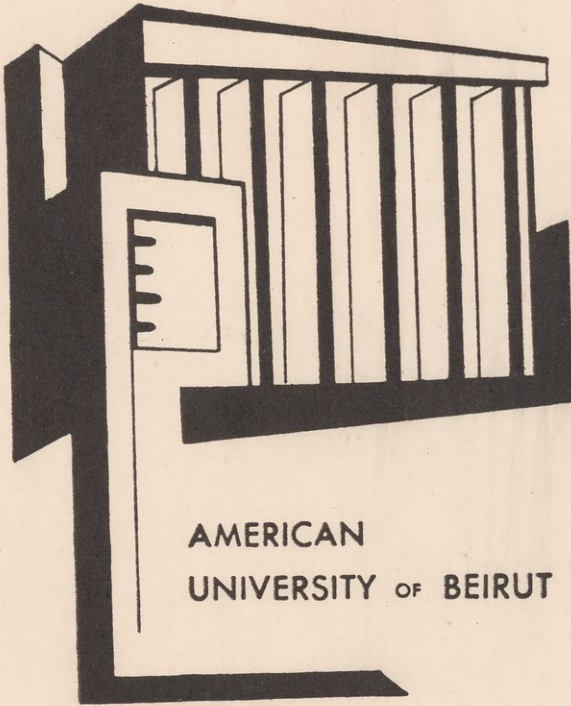
عون، كمال احمد

المرأة في الاسلام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01023962



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

